محاضرات

فكرية روحية تربوية



المجلد الأول

الهيئة العلمية في حوزة الرسول الأعظم

صلى الله عليه وآله وسلم

محاضرات

فكرية روحية تربوية





المجلد الأول

الهيئة العلمية في حوزة الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم

إهداء حسينية أنصار المهدي (عج)

الفاتحة على أرواح المرحومين

حبيب محمد أشكناني

مريم صالح أشكناني

حسين أحمد أشكناني

زهرة أحمد أشكناني

الشهيد / عباس علي محمد

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله اجمعين نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعداء الدين .

إن المشاكل المتعددة الاطياف التي تعاني منها الأمة بل والعالم بأسره ..

والمعاناة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي نتجرعها بمضض ..

وإذا أضفنا فوق كل ذلك الأزمات الأخلاقية والروحية التي نرزح تحت وطأتها ..

تعطى كل تلك المؤشرات ومضات تنبيه للحاجة الماسة إلى إعادة صياغة الشخصية المسماة بالإسلامية في عصرنا المعاش ، فالمفاهيم الإسلامية الحقيقية والتي يجب أن تتغلغل في كل جزئية من جزئيات حياتنا وتجري في عروقنا مجرى الدم نراها في غربة من حياتنا العادية مع أنها الحل الشافي لجميع أزماتنا المعاشة .

كما أن التعطش الشديد والحاجة الملحة إلى بث الروح الإسلامية الفعالة والمتمثلة بالمنهجية المتكاملة لفكر أهل بيت الوحي والنبوة عليهم السلام أضحت ضرورة حياتية لا غنى عنها لتطبّق كخطوات عملية على أرض الواقع ، لا أن تقرأ كسرد تاريخي قصصي عقيم .

لذا من تلك الفلسفة الإسلامية الأصيلة وإنطلاقاً من قوله تعالى "**ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**" رأينا أنه من الواجب علينا في لجنة سيد الشهداء الخيرية تبني منهجية نشر الثقافة الإسلامية الرصينة الأصيلة لاسترجاع المجهول من بقايا شخصيتنا الإسلامية الحقيقية والتي ضيع التغريب الثقافي بعضها ، وتاه الجزء الآخر في غياهب التيارات الضالة .

ومن نافلة العمل أن نبدأ هذه الخطوة الفعالة بطباعة هذا الكتاب القيم والذي هو عبارة عن خمسة وعشرون محاضرة القاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى المحقق السيد صادق الشيرازي (دام ظله) خلال فترة من الزمن ، وتضمنت مواضيع متعددة في مجالات متنوعة أفاض بها سماحته ، وقد قام أحد الأخوة المؤمنين مأجوراً بجمعها وتحقيقها .

ولتعميم الفائدة قمنا بالأشراف على طباعتها أملاً لتحقيق الهدف المنشود منها ، وفي الختام نرجو من الله العلي القدير أن يوفقنا لأعداد ونشر الحلقات القادمة من هذه المحاضرات النافعة وإخراجها إلى النور إنه مجيب الدعوات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



في حوزة الرسول الأعظم (ﷺ) - الكويت

ربيع الأول - ١٤٢٤هـ

المحاضرة ١

قضية الإمام الحسين عليه السلام
قضية الأرض كلها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

■ اللهم وفّر بلطفك نيّتي

في دعاء مكارم الأخلاق يقول الإمام السجاد (عليه السلام): «اللّهم وفّر بلطفك نيّتي، وصحّح بما عندك يقيني».

مهما أوتي الإنسان من البلاغة والدراية فإنه يبقى عاجزاً عن الوصول إلى أعماق معاني كلمات أهل البيت (عليهم السلام) لأنهم أرومة اللغة وسادات الأدب والبلاغة؛ ومن الأمثلة على ذلك كلمات الإمام السجاد (عليه السلام) في هذا الدعاء.

ما يبدو لأفهامنا القاصرة في هذا المجال أنّ الإمام السجاد (عليه السلام) يمزج المعاني هنا بعضها ببعض ويُشرب بعض الألفاظ بمعاني ألفاظ أخرى. هذا الإشراب الأدبي للفظ بمعنى لفظ آخر يجعله قالباً للمعنيين معاً.

التوفير في اللغة يستعمل متعدّياً ويستعمل لازماً، وكلٌّ بلحاظ معنى. تقول: وفرَ البناء أي كمُل، وتقول وفِّر البناء أي أكمله. كما يستعمل التوفير بمعنى الصيانة والحفظ أيضاً.

وقد استعمل الإمام (عليه السلام) هذه الكلمة بشأن النية لأنّ ما يطلبه الإمام من الله تعالى هو المراتب العالية من الشيء وليس أصل الشيء كما في طلبنا نحن.

فإنّ الإمام يطلب هنا توفير النية لأن الثبات على النية أصعب شيء على النفس والنفس متذبذبة بالنسبة إلى النية ذبذبة غريبة، يؤيّد ذلك الاعتبار الخارج - على حد تعبير الفقهاء -. ومثاله التذبذب الذي يحصل لبعضنا في الصلاة. فربما تبدلت نية بعضنا في الصلاة الواحدة أكثر من عشرين مرة! فقد يبدأ الشخص منّا صلاته بداعي «إلهي ما عبدتُك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتُك أهلاً للعبادة»[1]. فيبدأ تكبيرته بهذه النية، ولكن بمجرد أن يتم التكبير تهجم على ذهنه الأفكار، فإذا كان خطيباً مثلاً فكّر في المجلس الذي ينتظره، وإذا كان تاجراً فكّر في تجارته وهكذا. فهل هذا هو المراد من التكبير؟! هل كبّر الخطيب ليبدأ الإعداد لمجلسه مثلاً؟ إنّ الإعداد للمجلس أمر حسن ولا بأس به، ولكن ليس في الصلاة.

إنّ قضية الثبات على النية مسألة صعبة جداً. فإنّ الإنسان مهما أوتي من توفيق وإخلاص حتى لو بلغ مستمراً على الإخلاص سبعين سنة فإنّه لا يؤمَن من تزلزل النية أيضاً، لأنّ الإنسان - كما ذُكر- مكبّل ومشدود بغرائز وشهوات وهوى ودنيا وأشياء مختلفة وغريبة.

ولذلك يطلب الإمام من الله إكمال النية وإبعاد النقص فيها، ويطلب صيانتها فهي معرّضة للتأثيرات المختلفة. وما المانع أن يريد الإمام كلا المعنيين، واللغة - وبخاصة العربية - مليئة بالكناية والمجاز من أمثال ذلك.

إنّ موضوع النية موضوع صعب ودقيق للغاية. وقد ورد في كثير من الآيات الكريمة والروايات الشريفة والأحاديث القدسية أنّ جمهرة عظيمة وكبيرة من الناس يدخلون جهنم - والعياذ بالله - لسوء نياتهم رغم أنّ أعمالهم - كما في الروايات - كالجبال في ضخامتها. فقد روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «يؤتى في يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال - أو قال:

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٨٦.

كجبال تهامة – وله خطيئة واحدة، فيقال إنما عملتها ليقال عنك، فقد قيل، وذاك ثوابك وهذه خطيئتك، أدخلوه بها إلى جهنم».[1]

لذلك ينبغي لنا أن نطلب من الله توفير النية أي صيانتها من الأخطار ومن الشيطان والشهوات والتأثيرات المختلفة.

ليس هذا فحسب. إنّ الإمام لا يقتصر على قول: «وفّر نيتي» بل يقول: «وفّر بلطفك نيتي». أي يعلمنا أن نقول: يا إلهي أنا غير مستحق ولا أهل لأن توفّر نيتي، ولكن بلطفك أنت يا إلهي وفّر نيتي. فهذه الباء هي باء السببية. أي ليتدخل يا إلهي لطفك وبه وفّر نيتي، وإلاّ فإنّي غير مستحقّ لأن توفّر نيتي لولا لطفك ورحمتك. فما هو المراد من اللطف هنا؟

إنّ كل كلمة من كلمات هذا الدعاء موسوعة حقاً، ولو عرضتَ هذا الدعاء وحده على شخص لا يعرف أهل البيت (عليهم السلام) ولكن كان أديباً وعارفاً للمعاني لكان كفيلاً بتغيير نظرته وتحوّله إلى أهل البيت عليهم السلام!

"اللطيف" في اللغة له عدّة معان، ومن تلك المعاني: الرفيق أي صاحب الرفق. ومن معاني اللطيف: الدقيق. وغير مستبعد أن يريد الإمام المعنيَين. ولا شكّ أنّ هذه المعاني استعمالها كلها مجازي بالنسبة لله تعالى.

فكأنّ الداعي يقول: يا إلهي أنت رفيق بعبادك (ترفق بهم) فبرفقك يا إلهي وفّر نيتي، وإنّ النية أمر دقيق يا إلهي فبدقّتك وفّر نيتي.

■ على قدر النية تكون العطية

هناك حديث عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مفاده أنّ الله تعالى يعطي

---

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد ج ١ ص ٣٢٥

العطية على قدر النية [1]. كما أنّ هناك جملة متداولة مضمونها: «على نيّاتكم تُرزقون» تشارك الحديث المتقدّم بالمضمون.

صحيح إنّ الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة - كما في الحديث، و لم يقل: "جناحي بعوضة" لأنّ البعوضة قد تستفيد منهما آنذاك، بل قال «جناح بعوضة» بياناً لتفاهة الدنيا وانحطاط شأنها عند الله، بيد أننا مركّبون بنحو بحيث نحتاج إلى أمور كثيرة في هذه الدنيا، وقد تكبلنا المشكلات أيضاً، فنطلب من الله تعالى، وإن كان أكثر الناس معظم أدعيتهم للدنيا - وكل إناء بالذي فيه ينضح -. فإذا كانت العطية على قدر النية، فلنطلب من الله تعالى ما هو أعظم من الدنيا.. فلنطلب حاجات الآخرة أيضاً؛ فمن أجلها خُلقنا، ومن أجلها أيضاً خلقت الدنيا.

لا ضير في أن يطلب العبد من الله المال والله يرزقه، ويطلب الصحة والله يمنحه، ويطلب كل طيّبات الحياة الدنيا والله أحلّها للإنسان المؤمن، وكل ذلك موجود في الأدعية أيضاً، ولا بأس به، ولكن لنعلم أيضاً أنّ هذا ليس هو المهم عند الله تعالى، وليس هذا هو الهدف النهائي وراء خلق الإنسان، بل المهم عند الله وما خُلق من أجله الإنسان هي الدار الآخرة، فلنطلب من الله حاجات تلك الدار أيضاً؛ لأنّ العطية على قدر النية كما في الحديث العلوي الشريف.

■ عطية الله للحسين(ع) أعظم العطايا

ولا بأس أن نتذكّر - ونحن على أبواب شهر محرم الحرام - عطية الله تعالى للإمام الحسين (عليه السلام) الذي ترك الخلق طراً في الله، فقد أعطاه سبحانه امتيازات لم يعطها أحداً قط حتى أولئك الذين هم أفضل من الحسين (عليه السلام)

---

(1) راجع: نهج البلاغة: ج٣، ص٤٨، خطبة٣١، من وصية له لولده الحسن عليهما السلام.

وهم جدّه المصطفى وأبوه المرتضى وأمّه الزهراء وأخوه المجتبى سلام الله عليهم أجمعين. وهذا الأمر ملحوظ في الأدعية والزيارات كثيراً.

هناك زيارة للإمام الحسين (عليه السلام) يرويها العلاّمة المجلسي (رضوان الله عليه) في البحار لم أجدها في كتب الزيارات المتعارفة مثل "الدعاء والزيارة" و"مفاتيح الجنان" و"تحفة الزائر" للعلاّمة المجلسي نفسه و«مفتاح الجنات» للسيد محسن الأمين رضوان الله عليهما. ولكنّ المجلسي (رحمه الله) ينقل هذه الزيارة عن كتاب اعتبره جماعه من فقهاء الشيعة ومحدّثيهم من أصح كتب الطائفة وهو كتاب «كامل الزيارات» لابن قولويه (رضوان الله عليه). وابن قولويه هذا هو أستاذ الشيخ المفيد (رضوان الله عليه)، فالشيخ المفيد يروي عن الكليني بواسطة ابن قولويه.

هذه الزيارة معتبرة سنداً وينقلها كتاب معتبر، وفيها يقول الإمام الصادق (عليه السلام) مخاطباً جده الإمام الحسين (عليه السلام): «وضمّن - أي الله تعالى - الأرض ومَن عليها دمك وثارك»[1]. لا أقول لم أعثر، بل أستطيع أن أقول بجزم: لم يرد مثل هذا التعبير في الروايات والأدعية والزيارات المروية عن أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين إلاّ ما ورد هنا بحق الإمام الحسين (عليه السلام)، حتى أنّ العلاّمة المجلسي والأعاظم من العلماء بقوا متحيّرين في تفسير هذه العبارة. فذكر العلاّمة عدّة معانٍ أتصوّر انه ليس شيئا منها وافيا بتمام المعنى المقصود.

ولكن قبل بيان ذلك لابدّ أن نعرف معاني مفردات الجملة، وأوّلها «ضمّن» وفاعله ضمير مستتر يعود إلى الله، كما يتبيّن ذلك لمن يراجع الزيارة. أمّا الضمان فهو موضوع شرعي يوجد خلاف بين الشيعة والسنة في معناه.

فالمشهور بين علماء السنة أنّه «ضم ذمة إلى ذمة»، أمّا مشهور الشيعة فيقولون إنّ

---

(1) كامل الزيارات: ص٣٨٦.

الضمان «نقل ذمة إلى ذمة» وتوضيحهما:

لو كان في ذمة زيد مال لعمرو بسبب دَين مثلاً، وضمن بكر زيداً لدى عمرو، فحسب تفسير الشيعة للضمان لا يحق لعمرو بعد ذلك مطالبة زيد بالمال لأنّ الذمة انتقلت إلى بكر وهو المطالَب به بعد ذلك. أما حسب المشهور من علماء السنة فإن عمراً يمكنه أن يطالب زيداً وبكراً كليهما، ولكن حقّه بمطالبة كل منهما ينتفي لو وفّى له الآخر. ولكن الضامن - على كلا التفسيرين - مسؤول أمام صاحب الحق، سواء بانتقال المسؤولية إليه وحده، أم بالاشتراك مع المستفيد من ذلك الحق.

ظاهر عبارة الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام): أنّ الله سبحانه وتعالى ألقى على الأرض مسؤولية دم الحسين (عليه السلام) لأنّ ذلك الدم الطاهر أُريق عليها، وأصبح بذمتها فأصبحت هي الضامن والمسؤولة عن دم الحسين (عليه السلام). هذا هو المعنى الظاهر من «ضمن الأرض دمه».

ولا يشترط أن يكون الضمان اختيارياً فربما ركل النائم برجله كوباً فكسره فهو ضامن له، مع أنّه لم يكن مريداً لذلك، وهكذا الأرض - كل الأرض - أصبحت مسؤولة عن دم الحسين (عليه السلام) لأنه أريق عليها وإن لم تكن راضية بذلك!

■ كل تفسير ينافي العدل الإلهي مرفوض

لا إشكال أنّ من أصول الدين عند أتباع آل البيت (عليهم السلام) هو العدل الإلهي، وهو أنّ الله منَزّه عن الظلم. وهذا يستلزم أن ينسجم كل ما يرد في روايات أهل البيت (عليهم السلام) مع منطق العدل الإلهي، وكل تفسير يتعارض مع العدل الإلهي وينافيه فهو مرفوض سلفاً جملة وتفصيلاً.

ههنا يقول النص إنّ الله «ضمن الأرض» أي الأرض كلها، فليس في العبارة ما يصرف لفظة الأرض عن معناها العام إلى بقعة بعينها، مع العلم أنّ كلمة «كربلاء» وهي الأرض التي أُريق عليها دم الحسين (عليه السلام) موجودة في الروايات والزيارات الأخرى كثيراً، وكذلك كلمة «الكوفة» وهي الأرض التي خرجت منها الجيوش لقتل الحسين (عليه السلام). ولكن عندما نراجع هذه الزيارة نرى كلمة «الأرض» على اطلاقها. ليس هذا وحسب، بل يقول النص «وضمن الأرض ومَن عليها» أي كل من عليها وهم كل البشر الذين سكنوا الأرض من أول الدنيا إلى آخرها.

يقول العلامة المجلسي (رضوان الله عليه) لعل المقصود من (من عليها) الملائكة والجن.

ولكن قد يقال: ولماذا الملائكة والجن فقط؟ بل البشر أيضاً، لأنّ (مَن) موصولة وهي تفيد الإطلاق أوالعموم كما هو المشهور بين علماء اللغة والأصول. فتكون معنى العبارة: أنّ الله تعالى ألقى مسؤولية دم الحسين على الكرة الأرضية وكل مَن عليها.

بل أكثر من ذلك، يقول النص: «ضمن الأرض دمك وثارك» فإنّ الدم شيء والثار شيء آخر. الثار يعني الانتقام للدم المراق؛ مما يعني أنّ الله ألقى مسؤولية الثار على الأرض ومَن عليها.

■ ربط قضية الإمام الحسين (ع) بالتكوين

نستنتج من كل ما تقدم أنّ الله أعطى للحسين (عليه السلام) ما لم يُعط أحداً من العالمين؛ إذ ربط دمه بعالم التكوين، فألقى مسؤولية دمه على الأرض كلها، وعلى كل مَن عليها. فكأنّ الجناية وقعت من كل بقاع الأرض ومَن عليها، ثم حملهم جميعاً مسؤولية الثار له (صلوات الله عليه)!

استوحش العلاّمة المجلسي من المعنى الحقيقي الظاهر لهذه العبارة، ولعله اعتبره منافياً للعدل الإلهي، فكيف يحمّل الله تعالى الأرض وكل من عليها المسؤولية وفيهم مَن لا يرضى بقتل الحسين (عليه السلام) ويلعن قاتليه ويتبرّأ منهم؟! بل فيهم الأنبياء والأولياء وأهل البيت عليهم السلام؟!

هذا الأمر جعل العلاّمة المجلسي يأتي بمعانٍ مجازية للعبارة؛ منها: أنّ معنى العبارة أنّ الأرض تعذّب قتلة الحسين (عليه السلام) عندما يُدفنون فيها، فهذا هو الضمان الذي ضمّنه الله الأرض.

لكنّا نقول: لو صدق هذا المعنى على الثار - مجازاً - فإنّه لا يصدق على الدم أي مسؤولية القتل والجناية بحال.

لكن المعنى الذي يقرب إلى الذهن هو أنّ الله سبحانه وتعالى ربط قضية الحسين (عليه السلام) بالتكوين. فمسؤولية الأرض والجمادات مسألة تكوينية. كما أنّ مسؤولية مَن جعل الله له العقل كالإنسان والجن والملك أو الشياطين هي مسؤولية تشريعية. وبالتالي فإنّ كلمة «ضمن الأرض» صريحة —كما يبدو— فهي مسألة تكوينية لا داعي لأن نتأوّلها لأنّها ليست في مجال التشريع، يكفي أن نعرف أنّ الله جعل دم الحسين (عليه السلام) في ذمة الكرة الأرضية، ولا بأس في ذلك. ولكن الشق الثاني هو الذي يحتاج إلى تأمّل وهو كلمة «ومَن عليها»؛ فظاهر العبارة أنّ كل مَن على الأرض يتحمل مسؤولية دم الحسين والثأر له، مع أنّ من بينهم أحباء الحسين (عليه السلام) - كما قلنا - فكيف يستقيم ذلك؟

يقول الفقهاء: إذا ورد حديث صحيح وفيه صيغة "أمر" مثلاً، فظاهر صيغة الأمر هو المعنى الحقيقي - أي الوجوب - إلاّ إذا كانت هناك قرائن على عدم إرادة الوجوب، فننتقل إلى الاستحباب.

وهنا أيضاً لما كان المعنى الحقيقي لا يمكن حمله على العبارة لأنّ ذلك يقتضي توجيه العقوبة حتى للذين لم يشتركوا ولم يرضوا بقتل الإمام الحسين عليه السلام،

وهذا ينافي منطق العدل؛ إذاً لا يمكن حمل العبارة هنا على المعنى الحقيقي، والقرينة العقلية لصرفها على المعنى المجازي موجودة وهي العدل الإلهي، فنبحث الآن عن أقرب المجازات.

أما المجازات التي ذكرها العلاّمة المجلسي (رضوان الله عليه) فلا أراها حسب تصوّري القاصر أقرب المجازات. والمشكلة طبعاً في كلمة «دمك»، أما الثأر فبرأيي لا مشكلة علمية فيها، فإنّ الله ضمّن الأرض ومن على الأرض مسؤولية الثأر للإمام الحسين (عليه السلام) فربط التكوين بقضية الحسين (عليه السلام) وعلى ذلك أدلة وروايات متواترة ومتوافرة، من ذلك ما روي أن إبراهيم (عليه السلام) مر في أرض كربلاء وهو راكب فرساً فعثرت به وسقط إبراهيم وشج رأسه وسال دمه فأخذ في الاستغفار وقال: إلهي أي شيء حدث مني؟ فنزل إليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم ما حدث منك ذنب ولكن هنا يُقتل سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء فسال دمك موافقة لدمه [1]

أليس هذا من ربط قضية الإمام الحسين (عليه السلام) بالتكوين علماً أنّ النبي إبراهيم (عليه وعلى نبينا وآله السلام) كان يعيش قبل آلاف السنين من حادثة كربلاء يشج رأسه عندما يمر من أرض كربلاء، مع أنّه شيخ الأنبياء والمرسلين، الذي أُمرنا أن نسلّم عليه أوّلاً إذا ذُكر اسمه ثم نسلّم على نبينا وآله (عليهم جميعاً سلام الله). ولقد أمرنا الأئمة (عليهم السلام) أن نقول إذا ذكرنا اسم نبي من أنبياء الله هكذا: على نبينا وآله وعليه السلام، إلاّ إبراهيم فإنّه ينبغي أن نقول إذا ذكرنا اسمه: عليه وعلى نبينا وآله السلام. فإبراهيم أبو الأنبياء وشيخ المرسلين ولقد اتّخذه الله خليلاً من بين كل مخلوقاته من الإنس والجن والملائكة. ونسب إليه المشاعر المقدسة في مكة المكرمة تعظيماً له وتشريفاً وتكريماً، وإلاّ فإنّ معظم هذه المشاعر

---

(1) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٤٣.

ابتدأ بها (آدم على نبينا وآله وعليه السلام)، فآدم أوّل مَن نزل عرفات وهو أول من ذهب إلى مِنى وأول من طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، وعندما سئل الإمام (عليه السلام) عمن حلق رأس آدم بعد أداء المناسك، قال: جبرئيل. ومع ذلك فإنّ الله تعالى ينسب شعائر الحج إلى إبراهيم (عليه السلام).

إبراهيم الخليل (عليه السلام) على هذه العظمة عندما يمر من أرض كربلاء يخرج منه الدم موافقة لدم الحسين (عليه السلام)؛ ذلك أنّ قتل الحسين قتل للكرامة وللإسلام وللأنبياء جميعاً.. إنّ قتل الحسين (عليه السلام) قتل للمعنويات.. وللتكوين وللكرة الأرضية؛ ومن هنا جعل ثأره على عاتق الأرض ومَن عليها أجمعين، وهذا معنى "ضمن الأرض ومَن عليها ثأرك".

ولا يقصد بالثأر قتل القاتل فقط بل يعني المسؤولية التي ينبغي تحملها تجاه قضيته عليه السلام. روي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: «كان أبي إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكاً وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه ويقول:" هو اليوم الذي قتل فيه الحسين صلى الله عليه"»[1].

مسؤوليتنا تجاه قضية الإمام الحسين عليه السلام

وهذا يعني أنّ لمحرم خصوصية وتميزاً. فبحلول هذا الموسم وبمجرد أن يهلّ هلال هذا الشهر يتبادر إلى الذهن اسم الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث قُتل في العاشر منه مظلوماً شهيداً، ويذكّرنا بمسؤوليتنا تجاه قضية الحسين والثأر لدم الحسين (عليه السلام)، ومن جملة مسؤوليتنا أمران؛ الأوّل: التعريف بالحسين (عليه السلام) وقضيته وجعله علماً بحيث يراه كل إنسان في شرق الأرض وغربها.

---

(1) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٨٣.

لقد نقلت العقيلة زينب بنت الإمام أمير المؤمنين (عليهما السلام) لابن أخيها زين العابدين (صلوات الله عليه) في الحادي عشر من المحرم لما رأته يجود بنفسه حديثاً سمعته من أم أيمن إحدى زوجات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) تسليه به فقالت: «لا يجزعنك ما ترى فوالله إن ذلك لعهد من رسول الله إلى جدك وأبيك وعمك ولقد أخذ الله الميثاق من أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأمة وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة فيوارونها وهذه الجسوم المضرجة وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلاّ ظهوراً وأمره إلاّ علواً»[1].

إذن علينا تأسيس عزاء الحسين (عليه السلام) وتشجيع إقامته بمختلف أساليبه وأشكاله المشروعة، والفقهاء المتخصصون في معرفة الحلال والحرام - وهم مراجع التقليد - يحددون ما هو جائز منها وحسب، ولا ينبغي الاستماع لغيرهم أو القول دون علم.

أما الأمر الثاني وهو الأهم، بل جُعل الأمر الأوّل طريقاً إليه، فهو متابعة أهداف الإمام الحسين (عليه السلام).

نقول في زيارته (عليه السلام): «وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة»[2]. واللام في (ليستنقذ) لام التعليل، أي لهذا السبب. فهذا هو هدف الإمام الحسين (عليه السلام). وليس المقصود بكلمة «عبادك» المؤمنين المتقين منهم، المعتقدين بالإمام الحسين (عليه السلام) ومَن عبّر عنهم القرآن بقوله تعالى: «عباد الرحمن» فهؤلاء ليسوا في جهالة وضلالة، وهم يعرفون الإمام الحسين

---

(1) كامل الزيارات، ص٢٦٢.

(2) مصباح المتهجد، ص٧٨٨، تهذيب الأحكام: ج٢، ص١١٢، إقبال الأعمال: ج٣، ص١٠٢، المزار، ص١٨٦، بحار الأنوار: ج٩٨، ص٣٣١.

(عليه السلام)، بل المقصود غيرهم من سائر البشر. وهذا الأمر يدعونا للتأمل في زيارات الإمام الحسين عليه السلام.

فكتاب البحار (مثلاً) في متناول الجميع يمكن الحصول عليه بسهولة، فلنطالع زيارات الحسين (عليه السلام) فيه بتأمل، ولنتدبر في المفاهيم الموجودة فيها، فإنّ مطالب كثيرة سيحصل عليها الإنسان خلال التدبر في هذه الزيارات.

فالتعريف بالحسين وقضيته من خلال إقامة مجالس العزاء والشعائر الحسينية - من جانب - والعمل على تحقيق هدف الإمام الحسين المتمثل بإنقاذ العباد من جهالة الكفر وضلالة الباطل إلى نور الحق والإسلام والإيمان - من جانب آخر - هما ضمن المسؤولية الملقاة علينا جميعاً تجاه الثأر للإمام الحسين (عليه السلام).

فلنشمر عن ساعد الجد في هذين الشهرين بالخصوص، ولنعدّ ونستعد من قبل حلولهما ولنستثمر كل طاقاتنا في هذا السبيل من أجل أن يكون الحسين علماً وهادياً لكل البشر.. من خلال المواكب والشعائر، من خلال الأفلام والتسجيلات ومن خلال الشبكات العالمية والفضائيات ومن خلال المنابر والندوات، وكل الوسائل المتاحة لنا، فهذه جزء من مسؤوليتنا الواردة في قول الإمام الصادق (عليه السلام) يخاطب جده الإمام الحسين: «وضمن الأرض ومَن عليها دمك وثارك». فما أكثر الناس الذين لا يعرفون الحسين وقضيته وأهداف نهضته! وما أثقل مسؤوليتنا إذاً.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة الإسلام والثأر للإمام الحسين عن هذا الطريق، طريق تعريف العالَم أجمع بالإمام الحسين (عليه السلام) وأهداف نهضته المقدسة.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الإمام الحسين(عليه السلام) أقام الدين　المحاضرة ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين ولعنة الله علىأعدائهم أجمعين.

قال الله تعالى: ((**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه**))[1].

▪ دين الله واحد

الدين: طريقة السلوك في الحياة. فالدين اليهودي يعني طريقة سلوك اليهود في الحياة. والدين المسيحي يعني طريقة سلوك النصارى في الحياة. والدين الإسلامي يعني طريقة السلوك التي رسمها الإسلام لأتباعه في الحياة.

هذا والخطاب - في الآية - موجّه للمسلمين، فإنّ الله تعالى يخبرهم أنّ الدين وأسلوب الحياة التي شرعها (أي وضَعها وسنّها) لهم هو نفس الطريق الذي رسمه لنوح (عليه السلام) وهو نفس ما وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام). فطريق الأنبياء كلّهم واحد وهو عين ما أتى به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

إن الباطل متعدّد ولكن الحق واحد دائماً. فمثلاً: الإجابة عن اثنين في اثنين أربعة دائماً وهو الجواب الصحيح الوحيد. ومهما سمعت من إجابة أخرى فهي خاطئة، والإجابات الخاطئة متعدّدة. أمّا الإجابة الصحيحة فواحدة لا تتعدّد.

---

(١) سورة الشورى: ١٣.

ومادام الأنبياء كلّهم يصدرون عن الإله الواحد، فطريقهم كلّهم واحد؛ ولذلك قال تعالى: ((شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى)).

▪ ماذا وصّى الله به أنبياءه؟

والسؤال الآن: ما هو الشيء الذي وصى به الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم النبيين محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

يقول النحاة: إن قوله تعالى: «أن أقيموا الدين» بدل من قوله تعالى: «وما وصّينا»، وهذا يعني أنّ توصيات الله سبحانه لأنبيائه عليهم السلام - ومن جملتهم نبينا وسيد الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) - هي إقامة الدين؛ أي جعله قائماً.

فكما أنّ الإنسان القائم يتحرّك ويمارس حياته بشكل طبيعي خلافاً للمريض الذي لا يستطيع القيام والنهوض، فكذلك الدين إذا كان مبعداً عن الحياة لم يكن قائماً، والله تعالى وصّى أنبياءه أن يقيموا الدين.

▪ الحسين (عليه السلام) من آيات الله الكبرى

وحيث صادف بحثنا ليلة ميلاد الإمام الحسين (عليه السلام) فقد صدّرناه بهذه الآية الكريمة لأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) أقام دين جدّه (صلى الله عليه وآله وسلم). ولولاه لما قامت للدين الإسلامي قائمة. وهذا ما سنبيّنه خلال البحث؛ عسى أن نكون قد تحدّثنا عن الإمام الحسين (عليه السلام) وفضله ووفينا ببعض ما علينا تجاهه ولو بمقدار ما تحمله رأس الأبرة من بلل البحر!! ذلك أنّ الحديث عن الحسين (عليه السلام) حديث عن الله سبحانه والقرآن وعن الرسالة والحق وعن كلّ فضيلة.

لقد ذكر القرآن الكريم قصّة إسراء نبيّه وعروجه إلى السماء في عدّة موارد

منها قوله تعالى في سورة النجم: «ثم دنا فتدلّى، فكان قاب قوسين أو أدنى»[1].

القوس: ما يُرمى به النبل، وهو خشبة مقوّسة، وقابه: ما بين طرفي الخشبة وهو بضعة أشبار. وهذا التعبير كناية عن القرب.

فعن ابن عباس في خبر: «فلما بلغ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى سدرة المنتهى فانتهى إلى الحجب قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت»[2].

وجاء في رواية أخرى أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «فلمّا انتهيت إلى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدّم يا محمد، وتخلفَ عني، فقلت: يا جبرئيل في مثل هذا الموضع تفارقني؟! فقال: يا محمد إن انتهاء حدّي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه إلى هذا المكان، فإن تجاوزته احترقت أجنحتي بتعدّي حدود ربي جلّ جلاله.

فزخَّ بي في النور زخّة حتى انتهيت إلى حيث ما شاء الله من علوّ ملكه»[3].

وهنا يقول الله تعالى: «فأراه من آياته الكبرى»[4]. أي أنّ الله سبحانه عندما بلغ بحبيبه هذه المرتبة جعل يُريه آياته الكبرى.

فماذا كانت يا ترى تلك الآيات الكبرى؟ هل تريدون أن تعرفوها؟ طالعوا معنا إذاً هذه الرواية:

عن الإمام الحسين (عليه السلام) قال: «أتيت يوماً جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، فرأيت أُبي بن كعب جالساً عنده، فقال جدّي: مرحباً بك يا زين السماوات والأرض! فقال أُبي: يا رسول الله! وهل أحد سواك زين السماوات والأرض؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أُبي بن كعب والذى بعثني بالحقّ نبياً، إنّ الحسين بن علي في السماوات أعظم مّما هو في الأرض، واسمه

---

(١) سورة النجم: ٨.

(٢) بحار الانوار، المجلسي، ج١٨، ص٢٨٦.

(٣) بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٤٦.

(٤) سورة النازعات: ٢٠.

مكتوب عن يمين العرش: إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»[1].

وهذا الحديث يرويه الشيعة والسنّة على اختلاف مذاهبهم.

▪ هل عرفنا الحسين (عليه السلام) حق معرفته؟

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «مَن أتى الحسين عارفاً بحقّه كتبه الله في أعلا علّيين»[2]. على الزائر أن يعرف أنّه بين يدي مَن، ويكلّم مَن. ولو كنّا كذلك ونحن في حرم الحسين (عليه السلام) وبين يديه وعندما نزوره لما شغلنا بغيره أبداً، فهل عرفنا الحسين حق معرفته؟

إنّ الله سبحانه وتعالى دعا أشرف أنبيائه ومن خاطبه بقوله: «لولاك لما خلقت الأفلاك»[3]، دعاه في أعظم دعوة لأعظم وليمة يغذيه فيها بالتعاليم الروحية وليريه آياته الكبرى، ويكون من الآيات الكبرى «أنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة». فهذا هو الحسين (عليه السلام)؛ فهل عرفناه حقّ معرفته؟

أنّى لطاقاتنا المحدودة أن تدرك الحسين (عليه السلام)؟ والله سبحانه يعبّر عنه بآيته الكبرى، ويقول عنه أنّه مصباح الهدى وسفينة النجاة. فهذا ليس تعبير الإمام الصادق أو أمير المؤمنين (عليهما السلام) ولا تعبير جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل هو كلام الله مكتوب على ساق العرش وقبل أن يولد الحسين (عليه السلام).

وهنا نسأل: لماذا يري الله أشرف أنبيائه هذه الكلمة عن حفيده ويعدّه آية كبرى؟ وما هو السرّ وراء ذلك؟

والجواب: هو أنّ الحسين (عليه السلام) خير مَن طبّق الآية التي صدّرنا بها

---

(١) مدينة المعاجز، للسيد هاشم البحراني، ج٤، ص٥١.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٨، ص٧٠.

(٣) بحار الأنوار، ج١٦، ص٤٠٦.

البحث وهي ما وصّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد سلام الله عليهم أجمعين، وهو «أن أقيموا الدين». فالحسين (عليه السلام) أقام الدين وحفظ الشريعة. فلولا الحسين لما كانت الصلاة اليوم ولا الصيام ولا حجَّ البيت أحدٌ؛ لأنّ بني أمية كانوا على وشك القضاء على الدين، ولكن الحسين (عليه السلام) حفظه بدمه ودماء أهل بيته.

▪ حقد معاوية على الدين والرسالة

كان لمعاوية بن أبي سفيان صديق ونديم اسمه المغيرة بن شعبة. وهو مثل معاوية، فإنّ الطيور على أشكالها تقع. يقول المطرف بن المغيرة بن شعبة: «دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه، يتحدث معه، ثم ينصرف إليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة ظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم. قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به. إنّك قد بلغت سنايا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وأنّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، واجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: عمر.. وإنّ ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: (أشهد أنّ محمداً رسول الله) فأيّ عمل يبقى، وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك! لا والله إلاّ دفناً دفناً»[1].

---

(١) المسترشد، محمد بن جرير الطبري، ص٦٨٠.

▪ يزيد يثأر لقتلى بدر

أرأيت كيف كان يفكّر معاوية؟! أمّا ولده يزيد فقد أظهر ما كان يضمره بعد قتله سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وقال في أبيات أخرى:

لّما بدت تلك الحمول وأشرقت تلك الرؤوس على ربا جيرون

نعب الغراب فقلت: قل أو لا تقل فقد اقتضيت من الرسول ديوني[1].

يعني اقتصّ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما قتل سبطه بمن قتلهم الإسلام من أجداده الكفرة في بدر.

وهو القائل:

قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

فالقضية عند يزيد تتلخّص في نزاع بين قبيلتين، فلا دين ولا نبوّة ولا وحي ولا جنّة ولا نار!

▪ خليفة يشتهي أن يفجر فوق الكعبة!!

نموذج ثالث من خلفاء بني أمية هو «الوليد بن يزيد».

قالوا: «واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهي وغير ذلك من المنكرات»[2].

ومن أخباره أنّه واقع جاريته وهو سكران وجاءه المؤذّنون بالصلاة فحلف لا يصلّي بالناس إلاّ هي، فلبست ثيابه وتنكّرت وصلّت بالمسلمين وهي سكرى

---

(١) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي (عليه السلام)، ابن الدمشقي، ج٢، ص٣٠١.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١، ص٣.

متلطّخة بالنجاسات على الجنابة[1].

فهل عرفتم الآن كيف أنّ الحسين (عليه السلام) أنقذ دين جدّه من براثن بني أميّة؟ وكيف أنّه حقّق وصيّة الله لأولي العزم من أنبيائه بإقامة الدين. ولماذا وجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكتوباً على ساق العرش «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»؟

أليس للحسين (عليه السلام) حقّ على الصلاة؛ كل صلاة على وجه الأرض؟ اليس لدمه (عليه السلام) حقّ على الكعبة والبيت الحرام؟ فلولا جهاد الحسين (عليه السلام) وثورته ودمه لما كان يُصام رمضان ولما كانت الزكاة والخمس وسائر أحكام الإسلام.

وما نقلناه كان غيضاً من فيض، فاقرأوا التاريخ بأنفسكم لتعلموا ما أراد الأمويون فعله بالإسلام، وما هو دور الحسين (عليه السلام)؟ ولماذا قال الله عنه: «إنّ الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة»!

▪ حسين منّي وأنا من حسين

وهكذا أيضاً يفسّر معنى الحديث النبوي الشريف: «حسين منّي وأنا من حسين»[2].

أمّا أنّ الحسين من النبيّ فهذا لا خلاف فيه، ولكن كيف يمكن أن يكون الجدّ من الحفيد أو السبط؟ لاشكّ أنّ النبيّ يقصد استمرار رسالته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا الكلام النبوي الشريف مقتبس من ذاك التعبير المكتوب على ساق عرش ربّ العزّة! لأنّ بقاء اسم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يُرفع على المآذن (أشهد أنّ محمداً رسول الله) كان ببركة الحسين (عليه السلام). ولولا الإمام

---

(١) شرح أصول الكافي، ج٥، ص١٤٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٦١.

الحسين (عليه السلام) لمحا هذا الذكرَ معاوية ويزيد وآل مروان بعدهما، ولعادت الجاهلية، فكذا كان تخطيط معاوية، ولكن الله تعالى شاء أن يرى الإمام الحسين قتيلاً! لأنّه يريد إنقاذ الدين بأساليب طبيعية غير غيبية. وهكذا كان إنقاذ دين الله متوقّفاً على دم الحسين (عليه السلام) ولولا شهادة الحسين وأهل بيته لما بقي للإسلام من أثر. ومن شاء فليراجع التاريخ.

وهذا ليس كلامنا وحدنا. فهذا هو الشيخ محمد عبدة من كبار علماء الأزهر (ت) فمع أنّه عالِم سنّي لكنّه قارئ للتاريخ ومنصف يقول: «لولا الإمام الحسين (عليه السلام) لما بقي للإسلام أثر».

إذن كل مسجد تدخله اليوم فهو مدين للحسين، وكل صلاة وصيام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وبرّ بالوالدين، وإخلاص لله، بل واسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما يُرفع في الأذان.. كله من الحسين (عليه السلام)، وهذا معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «وأنا من حسين».

ولولا الحسين لكان اسم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - وكما تمنّى معاوية - حاله حال اسم أبي بكر وعمر، لا يزاد أن يُقال: كان محمد. أمّا رفعه في الأذان مقروناً بالرسالة كل يوم خمس مرات، وامتداده في استمرار تعاليمه في الصلاة والصوم والمساجد والحجّ والدين كله فكل ذلك رهين دم الحسين (عليه السلام).

وهذا معنى مخاطبتنا له (عليه السلام) في الزيارة: «أشهدُ أنّك قد أقمت الصلاة» لأنّه لولا الحسين لما صلّى أحد.

ينقل الشيخ محمد شريعت (رحمه الله) أحد علماء الشيعة الذين عاصرناهم (أصله من كراجي، وكان في النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة) أنّه كانت تربطه صداقة بقسّ مسيحي فقال له يوماً: أنتم الشيعة عندكم الحسين (عليه السلام) ولكنّكم لا تستفيدون منه كما ينبغي. ولو كان عندنا الحسين فقط لركزنا في كل

شبر من الأرض علماً باسم الحسين نجمع الناس حوله ونبلّغهم ديننا ولما تركنا أنساناً على وجه الأرض إلاّ دعوناه إليه.

▪ ماذا نقدّم للحسين (عليه السلام)

ماذا نقدّم للحسين (عليه السلام) ونحن على أبواب ميلاده المبارك؟ أقترح ثلاث وصايا صغار وبسيطة يتمكّن كل منّا العمل بها عسى أن نرفع شيئاً من التقصير تجاه الحسين:

أوّلاً: من الآن أخبِر كلّ مَن تلقاه - سواء في محلّ عملك أو في طريقك إلى البيت أو صديقاً تلقاه - أنّ يوم الثالث من شعبان (اليوم الفلاني القادم مثلاً) هو يوم ميلاد الحسين (عليه السلام)، ولا أبالغ إن قلت إنّ كثيراً من المواطنين الذين تعيش بينهم لا يعلمون بذلك.

ثانياً: لنتحف أولادنا ومَن هم تحت إنفاقنا بهدية وعيدية في يوم ميلاد الحسين (عليه السلام) ليتربّوا على حبّ الحسين (عليه السلام).

ثالثاً: لنظهر علامات الفرح والتهنئة ولنوزّع الهدايا أو الحلويات على زملائنا في محلّ عملنا ومنطقتنا في يوم ميلاد الحسين (عليه السلام).

إنّ العمل بهذه الوصايا الثلاث هو أقلّ ما يمكن أن نقدّمه وأقلّ ما يُراد منّا، لكي يصدق علينا أنّنا نحبّ الحسين (عليه السلام) ونواليه. أمّا الأمور والمؤهّلات المطلوبة منا لكي نكون على طريق الحسين فلسنا بمستواها فإنّ الحسين (عليه السلام) أقام الدين، ونحن نرى محيطنا مليئاً بالمحرّمات وذوينا لا يؤدّون الواجبات ولا نكترث. فلو أنّ أحداً من أبنائنا مرض وزادت سخونته نعمل كلّ شيء لطرد هذه السخونة. أمّا سخونة المرض الروحي وضعف العقيدة والإيمان والسرطان الذي يأكل الإيمان فلا نبالي به. فليكن سعينا أن نبدأ بنشر حبّ الحسين، وبَعده فكر الحسين ثم السعي للعمل وفقه؛ إن شاء الله.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

المحاضرة ٣

الحجّة المنتظر عجّل الله فرجه

منـّة الله على المستضعفين في الأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: «ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلَهم أئمّة ونجعلهم الوارثين. ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»[١].

هاتان الآيتان المباركتان من الآيات الواردة في صاحب الزمان المهدي المنتظر صلوات الله وسلامه عليه وعجّل الله تعالى فرجه الشريف.

ويشهد على ذلك – إضافة إلى الأحاديث الكثيرة المرويّة في كتب الفريقين في تفسير الآية – تحمله الآية نفسها، ونعنونه في النقطتين التاليتين:

أ. التأكيد على وقوع الفعل في المستقبل

قد لا تجد في القرآن الكريم كلّه آية مشابهة لهاتين الآيتين من هذه الجهة؛ حيث بلغ عدد أفعال المستقبل فيهما – على قصرهما – ستّة أفعال، وهي (ونريد.. أن نمنّ.. ونجعلهم أئمّة.. ونجعلهم الوارثين.. ونمكّن لهم.. ونري..).

---

(١) القصص: ٥و ٦.

وما هذا التكرار في استعمال صيغة المستقبل إلاّ للتأكيد على أنّ هذا الفعل سيقع في المستقبل وأنّ وقته لم يحن بعد، فهو لم يصدر في الماضي ولا هو صادر في الحاضر، بل إنه سيصدر في ما يأتي من الزمان ويقع لاحقاً وفي المستقبل.

ب. شمول دائرة المنّة لكلّ أهل الأرض

لقد نهانا الله عن المنّة فقال يخاطب نبيّه الكريم: «ولا تمنن تستكثر»[١]. أي أنّك لو تصدّقت بمليون دينار على الفقراء - مثلاً - فلا تستكثرها ولا تمنّ في ذلك.

وقال - يخاطب المؤمنين - في آية أخرى: «يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى»[٢]. وقال أيضاً: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذىً»[٣].

وحيث إنّ الله تعالى نهانا عن المنّة، نراه سبحانه لم يستعمل تعبير المنّة — في القرآن الكريم - في ما تفضّل به على عباده، إلاّ في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: على أنبيائه (عليهم السلام) حيث قال عزّ من قائل مخاطباً نبيّه الكريم محمداً صلّى الله عليه وآله: «ولقد مننّا عليك مرّة أخرى»[٤].

وقال في آية أخرى يمنّ على نبيّيه الكريمين موسى وهارون عليهما السلام: «ولقد مننّا على موسى وهارون»[٥].

الحالة الثانية: منّ الله فيها على المؤمنين في مورد واحد فقط، وذلك في قوله تعالى: «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً»[٦].

---

(١) المدّثر: ٦.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) البقرة: ٢٦٢.

(٤) طه: ٣٧.

(٥) الصافات: ١١٤.

(٦) آل عمران: ١٦٤.

فقد توسّعت الدائرة هنا وجُعلت المنّة على المؤمنين ببعث الرسول الكريم.

الحالة الثالثة: على أهل الأرض كلّهم، أي أنّ الدائرة هنا أصبحت عامّة وشملت كلّ البشرية، حيث لم يحدّد سبحانه الذين يمنّ عليهم بالمستضعفين من الأنبياء ولا من المؤمنين بل قال: «ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض».

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا غيّر الله تعالى الأسلوب في الحالة الثالثة، فعندما تحدّث عن بعثة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لقد منّ الله على المؤمنين»، ولكن عندما وصل الدور في هذه الآية إلى صاحب العصر والزمان المهدي الموعود (عجّل الله فرجه الشريف) وسّع من إطار منّته (تعالى) حتى شملت كلّ الكرة الأرضية؛ إذ قال: «ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض» مع أنّ لكلّ كلمة واستعمال في القرآن غاية وأبعاداً ينبغي التوقّف عندها؟!

والجواب واضح، وهو أنّه لم تعمّ منّة الله على أهل الأرض كلّهم حتى اليوم، فمازال حتى الآن وفي كلّ مكان وزمان أُمم وألوف بل ملايين من الناس لم تبلغهم حجّة الله وأحكام دينه ولا عرفوا الله عزّ وجلّ. فهناك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف مليون غير مسلم على وجه الكرة الأرضية، فهل تمّت منّة الله عليهم؟ كلاّ بالطبع؛ إذ بأيّ شيء منّ الله عليهم؟ هل بالمال ولا قيمة له عند الله تعالى ولا ذُكِر بعنوان المنّة؟ أم بالوجود البحت ولا قيمة له عند الله أيضاً، وكذا الصحّة وكلّ الدنيا؛ لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبرنا: «إنّ الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة»[1].

إنّ الشيء الذي له قيمة عند الله تعالى ومنّ به على البشر هو معرفته سبحانه وتعالى؛ وأن يعرف الإنسان لماذا خُلق ومن أين أتى، ولماذا جاء إلى هذا الوجود، وإلى أين سينتهي!

ولذلك نلاحظ أنّ الله تعالى لم يمنّ على الناس لأنّه أعطاهم الصحّة، ولا يمنّ على من يدخلهم الجنة، بل قال تعالى: «فمَن زُحزِح عن النار وأُدخِل الجنّة فقد

---

(١) مستدرك الوسائل ج٢، ص٤١٩.

فاز»[1]، في حين نراه منّ على المؤمنين ببعثة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله.

فحقّ لنا أن نسأل: ما هو هذا الأمر الذي يستوجب منّة الله على الناس كلّهم كما استوجب المنّة على المؤمنين خاصة ببعث الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله؟ أليس في هذا إشارة إلى الحجّة المنتظر عجّل الله فرجه، وأنّه كجدّه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تماماً إلاّ في مقام النبوّة؟!

انظر إلى مترلة صاحب الزمان عجّل الله فرجه، فهو كجده أمير المؤمنين (عليهما السلام) له ما للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا النبوة، كما ورد ذلك في كتب السنة والشيعة على السواء؛ من ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده من عدة طرق؛ يرفع أحدها إلى سعيد بن المسيب قال: حدثنا مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي بن أبي طالب: «أَوَ ما ترضى أن تكون مني بمترلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» ومن بعض روايات أحمد بن حنبل إلا النبوة[2].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «معاشر الناس ما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ، وكل علم علّمنيه قد علمته علياً والمتقين من ولده»[3].

فإن قيل: لماذا يمنّ الله على مستضعفي الأرض كلّهم بظهور الحجّة؟

نقول: لأنّ المهدي (عجّل الله فرجه) يحقّق النتيجة النهائية التي أرادها الله تعالى من وراء بعثة الرسل والأنبياء كلّهم من لدن آدم حتى الخاتم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن الطبيعي أن تقرن هذه النتيجة العظمى بالمنّ كما قرنت ببعثة الرسول صلّى الله عليه وآله.

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) كتاب الطرائف، ج١، ص٥٦.

(٣) كتاب اليقين، ص٣٩٤.

خلاصة الدليل

تبيّن إذن أنّ الله تعالى لم يذكر المنّة في القرآن الكريم إلاّ في ثلاثة مواضع؛ الأوّل على أنبيائه في آيتين، والثاني على المؤمنين وكلها وردت بصيغة الماضي (لقد منّنا.. ولقد مننّا.. لقد منّ الله على المؤمنين..) لكن هنا (في آية القصص) تبدّلت الصيغة إلى زمان المستقبل، وكانت المنّة شاملة لكلّ أهل الأرض.

وهكذا نرى أنّ هذه الآية هي من الآيات الواردة في شأن الإمام المنتظر، ناهيك عن الأحاديث التي تؤيّد الموضوع من كتب الفريقين.

ما يحول دون تشرّفنا بلقاء المهدي

إنّ موضوع الإمام المهدي (عجّل الله فرجه الشريف) من المواضيع العميقة والواسعة وهو متشعّب الجوانب كثير الفروع، الأمر الذي يتطلّب من كلّ منّا أن يزيد من مطالعاته في هذا الموضوع الهام، لكنّي أحببت أن أثير سؤالاً في هذا المجال، وهو: إذا كان الإمام الحجّة (عجّل الله فرجه) موجوداً بين ظهرانينا - كما هو الحق - فلماذا لا نراه مع أنّه يرانا سلام الله عليه؟.

في جواب هذا السؤال أذكر لكم قصّة رواها المرحوم والدي تعود إلى الأيّام التي كان يعيش فيها في سامرّاء العراق:

يقول والدي رحمه الله: كان أحد العلماء يكثر من ارتياد سرداب الغيبة[1] في أيام الجمع وغيرها، يخلو فيه .. يقرأ دعاء الندبة والعهد وزيارة صاحب الزمان

---

(١) الذين وُفّقوا لزيارة قبر الإمامين العسكريين (عليهما السلام) في سامرّاء يعلمون جيداً أنّ هناك سرداباً متعلّقاً بالإمام الحجّة عليه السلام، وهو السرداب الذي حصلت غيبته الأولى فيه أي منه غاب عن الأنظار. ولذلك يؤمّه الزوّار والشيعة وكلّ المتشوّقين للقائه، فقد روي أنّه رُئي فيه عدّة مرّات. وهذا لا يعني أنّه لم يُرَ في غيره أو أنّه مختبئ فيه، بل لقد رُئي في الصحراء وفي السفينة في البحر وفي كلّ مكان؛ لكن مكانة هذا السرداب هي لاعتبار قرب الصلة بالإمام ولأنّه منسوب إليه (عجّل الله فرجه).

ويدعو الله بفنون الدعوات على أمل اللقاء بالإمام عليه السلام.

يحكي والدي عن هذا العالِم أنّه قال:

مرّ زمان وأنا على هذه الحال أرتاد السرداب مشتاقاً لرؤية صاحب الزمان صلوات الله عليه. وفي أحد الأيام وبينما أنا جالس وحدي - و لم يكن في السرداب أحد غيري - منشغلاً بالدعاء والمناجاة، مفكّراً في حالي وأنّ المدّة قد طالت وأنا مواظب على الحضور إلى هذا المكان دون أو أوفّق للقاء الإمام عليه الصلاة والسلام، متسائلاً مع نفسي عن السبب الذي يحول دون تشرّفي برؤيته، قائلاً: ماهو ذنبي ولماذا لا يمنّ عليَّ الإمام بشرف رؤية طلعته... وبينما أنا ساهر في هذه الحالة إذ أُلهمت بأنّ الإمام سيدخل السرداب حالاً، لقد وقع هذا الموضوع في قلبي على نحو اليقين وليس وقوع تخيّل ومجرّد تصوّر، بل عرفت ذلك من ضميري وأيقنت —بوجداني— أنّ الإمام سيدخل السرداب الآن، وشعرت أنّي سأوفّق للقائه.

ولكن ما إن عرضت لي الفكرة الأخيرة (أي قرب التشرّف والتوفيق للقاء الإمام) حتى تملّكتني هيبة عصرتني عصرة لم أشعر معها إلاّ وأنا خارج من السرداب الذي تزيد درجات سلّمه على الثلاثين.. وبدأ قلبي يدقّ بشدّة. فأدركت أنّه لم يحن بعد الوقت الذي أكون لائقاً ومؤهّلاً للقاء الإمام الحجّة.

قصة الرجل المحبّ للضيف

ولكي أوضّح لكم الموضوع أكثر أنقل لكم الرواية التالية:

يحكى أن رجلاً شكا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه يحب إقراء الضيف لكن زوجته تكره ذلك وتعكّر عليه، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) قل لها: «إنَّ الضَّيْفَ إذَا جَاء جَاءَ بِرِزْقِهِ وإذَا ارتَحَلَ ارتَحلَ بِذُنُوبِ أَهْلِ البيتِ»[1].

أي أن الله سيضيف في رزق أهل ذلك البيت ما ينفقونه في إقرائه، ثم إذا

---

(١) مستدرك الوسائل ج: ١٦ ص: ٢٥٩ ح ١١.

انصرف عنهم بعد ذلك وارتحل ارتحلت ذنوبهم معه.

يقال: إن الرجل عاد ثانية إلى النبي وأخبره أن ذلك لم ينفع معها.

وهنا أمره النبي أن يمسح بيده على وجهها إذا حل الضيف.

وفعل الرجل ذلك، فأصبحت المرأة تتمنى إقراء الضيف بعد ذلك؛ لأنها رأت الأمور التي أخبرها بها زوجها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على حقيقتها، بعد أن مسح على وجهها بأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أي رأت الضيف عندما يدخل الدار ترافقه أنواع الأطعمة والفواكه، وعندما يخرج تخرج معه الأوساخ والعقارب والحيات مثلاً.

نستفيد من هذا الحديث أموراً عديدة؛ منها أمران لهما صلة بموضوعنا وهما:

الأمر الأوّل: الولاية التكوينية لرسول الله صلّى الله عليه وآله. فمع أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقم هنا بفعل، فلم يمسح بيده الشريفة على وجه المرأة - مثلاً - بل أمر الزوج أن يمسح هو بيده على وجهها، ومع ذلك أثّر في تكوين المرأة، أي أنّ أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكلامه يكفي لتغيير الكون، ولا حاجة حتى لفعله المباشر، بل تكفي إرادته وقوله. والإمام كالنبي في هذا.

الأمر الثاني: هو أنّ الذنوب قاذورات وأوساخ وحيّات وعقارب تحيط بنا من الرأس إلى القدم وتكون مانعاً من تشرّفنا بلقاء صاحب الزمان عجّل الله فرجه، أي أننا لا نكون جديرين بسببها للقائه (عليه السلام) فنحرم هذا التوفيق.

ويمكن تقريب هذا الموضوع بمثال:

لو أنّ رجلاً دقّ عليك الباب وأنت في غرفتك. وعندما فتحت الباب رأيته كريه المنظر والرائحة لكثرة ما علق به من قاذورات ونجاسة وأوساخ وديدان وعقارب وحيات.. فهل ستسمح له بالدخول إلى المكان النظيف الذي تجلس فيه؟ كلاّ بالطبع.

هذا يعني أنّك لو كنت في مكان صاحب الزمان (عجّل الله فرجه) لما أذنت بلقاء رجل يحمل كلّ هذه القاذورات العالقة بلسانه وعينه وأذنه وأنفه ويده ورجله

وبطنه وفكره.

عرفنا إذن لماذا لا نرى الإمام صاحب الزمان عجّل الله فرجه، فكلّ المشكلة تكمن هنا.. فينا نحن.

إنّ ذلك العالِم الديني تَهيّب للقاء الإمام فلم يره. أما نحن فلم نصل حتى إلى هذه الدرجة، فذلك الرجل العالِم كان قد قطع شوطاً للقاء الإمام (عجّل الله فرجه) أما نحن فلم ننتهج الطريق بعد.

إنّ الإمام صاحب الزمان (عجّل الله فرجه) يرانا ويرى أعمالنا كما ورد في تفسير قول الله تعالى «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

وفي الروايات أنه «مؤيّد بروح القدس، بينه وبين الله عز وجل عمود من نور يرى فيه أعمال العباد، وكل ما يحتاج إليه»[1].

فهو يرى كلامنا واجسامنا وكلّ ما يظهر منّا، ويرى كذلك ما وراء الكلام والسطور وهو الفكر والنوايا. فهو يرى الشيء الذي نفكّر فيه عندما نتكلّم أو نكتب.. وفيما إذا كانت نيّاتنا وأفكارنا لله، أم لكي يقول الآخرون عنا أننا نجيد الكلام أو الكتابة وأنّ مواضيعنا أفضل من غيرنا. هذه الأمور يراها الإمام أيضاً.. يراها منا في كلّ ساعة وفي كلّ لحظة.

وكما أنّك تطلب من الشخص المنتن الذي أتى لزيارتك أن يذهب أوّلاً ويزيل عنه الأوساخ والقاذورات ويرمي العقارب والديدان عنه ثم تقول له: تفضّل أهلاً وسهلاً فبابنا مفتوح لك، فكذلك صاحب الزمان (عجّل الله فرجه) فاتح بابه لكلّ إنسان ولكنه يطلب منا أن نتطهّر أوّلاً ثمّ نأتي للقائه.

فلنعاهد الله في هذه المناسبة أن نبدأ بسلوك الطريق؛ فلعلّنا نبلغ المقصود بعد زمان طال أو قصر، فإنّ من سلك الطريق لابدّ وأن يصل، وصاحب الزمان عليه الصلاة والسلام يعرف عن قلبك وقلبي إن كنّا سالكي الطريق حقّاً أم لا؛ فإن علم

---

(١) بحار الأنوار ج٢٥، ص١١٧.

صدقنا فسيأخذ بأيدينا. ولو أنّ أحدنا تقدّم إليه بمقدار خمسة في المئة من الطريق فإنّه (عجّل الله فرجه) سيتقدّم إليه في الباقي ويفتح له ذراعيه، ولكن علينا أن نجعل أنفسنا أهلاً لذلك.

إن الأرواح النجسة غير لائقة للقاء الإمام، والأعين الخطّاءة لا تستحق أن تطلّ على حضرته، والآذان المليئة بالمعاصي غير جديرة بسماع صوته، وأنّى لهذه الشفاه التي صدرت من بينها آلاف المعاصي أن تتشرّف بتقبيل يديه!.

وإلاّ فلِمَ لا يسمح لنا الإمام بلقائه وهو أهل الكرم والجود؟ ألم يلتقِ السيد الفلاني والشيخ الفلاني والبقّال الفلاني والعطّار الفلاني بل وأشخاصاً أمّيين لا يعرفون القراءة والكتابة، فلماذا لا يسمح لي ولك نحن المتعلّمين؟ إلاّ بسبب ذنوبنا؟ فإنّ الإمام لا ينظر إلى أبداننا بل ينظر إلى قلوبنا وأرواحنا وعقولنا.

ذكرى مولد الإمام المنتظر فرصة لمراجعة أنفسنا

لنعاهد الله على أن نكون عند مرور ذكرى مولد الإمام في كلّ سنة أحسن من السنة السابقة. ولنبدأ الطريق بأن يسعى كلّ منا لتقليل نقاط ضعفه وإصلاح نفسه، فلو أصلحنا أنفسنا فإنّ صاحب الزمان هو الذي سيأتي إلينا قبل أن نذهب إليه.

لنخطّط لأرواحنا قبل أن نخطّط لبطوننا وأيدينا وبيوتنا وأهلينا ولنسِرْ قليلاً بهذا الاتّجاه لنحظى بلقيا المولى صاحب الزمان.

ختاماً: بودّي أن أذكر شيئاً عسى أن نكون بذلك قد عملنا خدمة ولو صغيرة لصاحب الزمان. فلعلّ كثيراً من الشيعة لا يعلم شيئاً عن صاحب الزمان، والذنب في ذلك يعود علينا نحن المتعلّمين.

إننا بحاجة إلى مليارات النسخ من المطبوعات عن صاحب الزمان فإنّ نفوس العالَم لم يعُد بالملايين بل بلغ المليارت، فليخصّص كلّ واحد منكم منذ الآن مقداراً من المال يطبع فيه كتاباً عن صاحب الزمان، ولا مانع من طلب العون من أهله وأقربائه ومن زوجته وابنه وأخيه وأخته في هذا المجال بأن يضع سهماً من عنده

وأسهماً من أقربائه وأصدقائه ثمّ يقوم بطبع الكتاب ولا يُشترط أن يكون الكتاب ضخماً فكلٌّ حسب سعته. وإذا لم تستطع أن تعطي مبلغاً خلال يوم فقد تستطيع أن تعطيه خلال شهر وقد تستطيع من خلال الاستعانة بأهلك وأقربائك وأصدقائك.

فهذا شيء بسيط وأقلّ ما يمكن أن نقوم به لخدمة صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف.

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

في ذكرى ميلاد منقذ البشرية المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه الشريف

لنعرف إمامنا ووظيفتنا بصورة أفضل

المحاضرة ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

في هذه الأيام من شهر شعبان المبارك، التي تنتسب للمولى صاحب العصر والزمان (عليه وعلى آبائه السلام) أودّ التعرّض لموضوعين؛ الأوّل: يتعلّق بالإمام (عليه السلام وعجّل الله تعالى فرجه الشريف)، والآخر: يتعلّق بنا وبوظيفتنا في عصر الغيبة.

١ لنعرف إمامنا أكثر

أمّا الموضوع الأوّل فقد روي عن النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[1].

فكما تكون الميتة الجاهلية على كفر وشرك وإلحاد؛ لأنّها ليست في ظلّ الإسلام، فكذلك تكون حال مَن يموت ولا يعرف إمام زمانه، أي

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٣، ص٧٨، باب وجوب معرفة الإمام.

يموت وحكمه حكم المشرك والملحد والكافر.

المهديّ عجّل الله فرجه من الأمور المسلّمة، ومنكره منكر للبديهيات

إنّ البحث العلمي حول هذا الموضوع واسع ومتشعّب، ولكنّني لا أريد التعرّض إلى تفاصيله. فأصل وجود المولى (صاحب الزمان)، ومعرفته بصفته إماماً مفترض الطاعة، يُعدّ من أصول الإسلام، وهو من الأمور المسلّمة والمتواترة. وإذا ما بلغ أمرٌ حدّ التواتر، فإنّ الجدال فيه يكون من باب السفسطة وإنكار الوجدانيات[1].

إنّ المولى سيشرّفنا بحضوره إن شاء الله، ويظهر للناس كافة، ويعلن للعالم أنّه المهديّ من آل محمّد (صلّى الله عليه وعلى آبائه الطيّبين أجمعين). فكيف سيكون هو (عليه السلام) في ذلك اليوم المبارك؟ وكيف سيكون حال الناس؟!

إنـّه يصدع بالحكمة والموعظة الحسنة

قال الله (تعالى) يخاطب نبيّه الكريم: «ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»[2]. فمن صفات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) هناك أشخاص تضخّمت عندهم قوة التخيّل حتّى صاروا ينسبون كلّ شيء إلى الخيال وينكرون الوجدانيات والأمور المتعلّقة بالعلم الوجداني كالمتواترات؛ فلا شيء عندهم يسمى العلم. وإنكارهم لوجود المولى (صاحب الزمان) من هذا القبيل، إي هو إنكار للوجدانيات والمتواترات.

(٢) النحل: ١٢٥.

هذا التعبير نفسه، وهاتان المفردتان عينهما (الحكمة والموعظة الحسنة) وردتا في زيارة الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه) المروية عن المعصوم (عليه السلام) حيث تصفه بأنّه «الصادع بالحكمة والموعظة الحسنة»[1].

فهو كجده (صلى الله عليه وآله وسلم) يبدأ بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويسير بسيرة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام

روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «إنّ قائمنا إذا قام سار بسيرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام»[2].

وتقول الروايات أيضاً: إنّ علياً (عليه السلام): «سار بالمنّ والكفّ»[3]، أي أنّه (عليه السلام) كان لا يعاقب بل يمنّ.

إذا أردتم أن تعرفوا سيرة الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه) في التعامل مع الأصدقاء والأعداء فانظروا إلى سيرة أمير المؤمنين عليه السلام. فهذا تاريخه (صلوات الله عليه) بين أيديكم دوّنه الشيعة والسنّة والنصارى واليهود وغيرهم في صفحات مشرقة.

جانب من سيرة أمير المؤمنين

لقد كان (عليه السلام) يدفع مَن ناهضه وبارزه بالنصح والموعظة ما أمكن، وكان يسعى للحؤول دون وقوع الحرب وإراقة الدماء، سواء عن

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٩، ص١٠١، زيارة الإمام المستتر عن الأنظار.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٥٤.

(٣) بحار الأنوار، ج٥٣، ص٣٥٣.

طريق المواعظ الفردية والجماعية أو غيرها .. ولكن إذا وصل الأمر بالطرف الآخر أن يهجم ويريد القتال قام الإمام بدور الدفاع لا أكثر، ولكن ما إن يتراجع الخصم أو ينهزم حتّى يتوقّف الإمام عن ملاحقته ولا يسعى للانتقام منه. و لم يبدأ أحداً بقتال أبداً.

وهذا الأمر مشهود في تاريخ أمير المؤمنين سلام الله عليه.

ومع أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يصرّح له بالقول: «يا عليّ حربك حربي وسلمك سلمي»[1] نلاحظ أنّ الإمام (عليه السلام) لم يأسر من أعدائه حتّى فرداً واحداً، ولا صادر أو سمح لأصحابه بمصادرة أيّ شيء من أموال الخصم وإن كان رخيصاً أو عديم الثمن.

تروى في هذا المجال أمور لا نظير لها، لا في التاريخ، ولا في الحاضر ولا في الآتي، إلاّ ما كان عن الإمام أمير المؤمنين وما سيكون من الحجّة المنتظر سلام الله عليهما.

فقد روي أنّ الإمام (عليه السلام) لم يسمح بمصادرة حتّى «ميلغة» واحدة من العدوّ[2]!*

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٤، ص٢٦١.

(٢) والميلغة: هي الإناء الذي يلغ فيه الكلب، فهي اسم آلة مشتقّ من الفعل «ولغ»، وكان الناس آنذاك إذا كسرت كيزان الماء الخزفية لم يرموا بكعوبها بل يتّخذون منها أوعية للماء الذي تلغ فيه الكلاب.

* ففي الحديث أنه:

بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خالد بن الوليد على صدقات بني المصطلق حيّ من خزاعة، وكان بينه وبينهم في الجاهلية ذحل فأوقع بهم خالد فقتل منهم، واستاق أموالهم ، فبلغ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ما فعل فقال : اللّهمّ أبرأ

ويلبس ثياب عليّ عليه السلام

أما عن سيرته الشخصية، فقد روى البرقي عن حماد بن عثمان قال: «حضرت أبا عبد الله (عليه السلام)، وقال له رجل: أصلحك الله ذكرت أنّ عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك ونرى عليك اللباس الجديد. فقال له: إنّ عليّ بن أبي طالب كان يلبس ذلك في زمن لا يُنكر ولو لبس مثل ذلك اليوم شهّر به. فخير لباس كلّ زمان لباس أهله غير أنّ قائمنا أهل البيت إذا قام لبس ثياب عليّ وسار بسيرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام»[1].

فهو (عجّل الله فرجه الشريف) لا يرتدي طيلة عهده الشريف والمبارك حتّى حلّة ثمينة واحدة مع أنّ الله تعالى يملّكه الدنيا وما فيها. فكلّ شيء في الوجود هو من أجل المعصومين عليهم السلام - كما في حديث

إليك ممّا صنع خالد، وبعث إليهم عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بمال وأمره أن يؤدي إليهم ديات رجالهم وما ذهب لهم من أموالهم، وبقيت معه من المال زعبة، فقال لهم: هل تفقدون شيئا من متاعكم؟ فقالوا: ما نفقد شيئا إلاّ ميلغة كلابنا، فدفع إليهم ما بقي من المال فقال: هذا لميلغة كلابكم. وما أنسيتم من متاعكم، وأقبل إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ما صنعت؟ فأخبره بخبره حتّى أتى على حديثه، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أرضيتني رضي الله عنك يا عليّ أنت هادي أمّتي، ألا إنّ السعيد كلّ السعيد مَن أحبّك وأخذ بطريقتك، ألا إنّ الشقي كلّ الشقي من خالفك ورغب عن طريقك إلى يوم القيامة. (بحار الأنوار، ج٢١، ص١٤٣، باب٢٧، ذكر الحوادث بعد الفتح).

(١) بحار الأنوار، ج٤٧، ص٥٤.

الكساء الشريف - ولكنّهم يزهدون عنها، ويعيشون في بساطة كسائر الناس العاديين بل أبسط[1]؛ وذلك «كيلا يتبيّغ بالفقير فقره»[2] كما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام). أي لا يتأذّى الفقير بفقره إذا رأى كيف يعيش زعيم القوم وإمام المسلمين وقائدهم ورئيسهم وأمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه[3].

هذه هي حياة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

وهكذا ستكون حياة الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) .. سائراً بسيرة

---

(١) في كتاب الكافي كثير من المطالب حول أحوال الأئمّة وقد جمعها المجلسي في «البحار»؛ منها: أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) قال له: يابن رسول الله إنّ الحكومة والرئاسة بيد أعدائكم وهم منعّمون، فليتها كانت بأيديكم وكنتم أنتم الرؤساء والأمراء. فقال عليه السلام — ما مضمونه -: وإن كنّا نحن الرؤساء فإنه سيبقى لباسنا خشناً ومأكلنا جشباً. لا تظنّوا أنّا لو أصبحنا رؤساء فإنّ أحدكم سيكون في نعمة وترف لقربه منّا. كلاّ.

(٢) الكافي، ج١، ص٤١٠.

(٣) يُنقل أنّ الإمام أمير المؤمنين وعندما كان رئيس أكبر دولة على الكرة الأرضية كان يخطب يوماً على المنبر ويحرّك بيده لباسه الذي يرتديه لكي يجفّ، وذلك لإنّه لم يكن يملك غيره وقد غسله و لم يكن عنده الوقت الكافي لكي ينتظره حتّى يجفّ، فاضطرّ لأن يرتديه ويأتي إلى المسجد ليخطب في الناس في الموعد المقرّر وهو مبتلّ.
يشير لهذا الموضوع الإمام (عليه السلام) بنفسه في نهج البلاغة في رسالته إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة عندما يقول: «ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه» أي بقميص واحد وإزار واحد يرتديهما لا غير، فقد كان لباس الناس في ذلك الوقت يتألّف من قطعتين؛ قميص وإزار. و لم يكن الإمام يملك أكثر منهما، وهذا هو المقصود بقوله (عليه السلام): بطمريه. أي ما يكتفي لملبس واحد فقط.

جدّه أمير المؤمنين. فهو سيدعو نوّابه الخاصّين في عصر الظهور ووكلاءه الثلاثمئة والثلاثة عشر ويأخذ منهم العهود والمواثيق أن لا تكون وسائدهم وثيرة، لكي يواسوا المقترين، وإن ندروا في ذلك الزمان.

أهل البيت (عليهم السلام) كلّهم رحمة

هل تريدون أن تعرفوا عن حكومة المهديّ (عجّل الله فرجه) أكثر؟ إذن انظروا إلى تاريخ الرسول وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما وآلهما). وإليكم بعض الأمثلة:

هرع المشركون لحرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واستبَقوا حتّى مياه بدر، وكان الرسول قد سبقهم، وقد قطع المشركون مسافة بعيدة فقد قدموا من مكّة ولكن لم يستطيعوا الوصول إلى مياه بدر، والماء - كما هو واضح - مسألة حيوية وخاصة للجند والمقاتلين، ولم يكن في تلك النواحي ماء ليستفيدوا منه غير ماء بدر، فقرّروا العودة رغم قطعهم تلك المسافة الشاسعة وتعبئتهم القوّات والناس لقتال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مدّة طويلة وحملهم السلاح وإنفاقهم الأموال و... . إذ كيف سيحاربون ولا ماء عندهم؟!

وهنا ادّعى أبو سفيان أنّه سيحلّ المشكلة.

قيل له: كيف؟

قال: عن طريق الرسول نفسه [وكان يسمّيه باسمه المبارك فقط أي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم].

قالوا: وكيف؟

قال: نطلب منه أن يعطينا الماء.

قالوا: وهل سمعت أنّ أحداً يطلب الماء من عدوّه في ساحة القتال؟ وهل تتوقّع أن يستجيب لك وقد جئت تريد قتاله؟

قال لهم: إنّكم لا تعرفونه كما أعرفه[1].

وهكذا أرسل أبو سفيان مَن يخبر النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بالأمر ويطلب منه الماء.

واستجاب لهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسمح لهم بحمل الماء إلى معسكرهم.

وهذا التصرّف هو عين الواقعية؛ فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مبعوث من قِبَل ربٍّ أبرزُ أسمائه التي تكرّرت في القرآن هما: «الرحمن الرحيم»، كما أنّ نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) نبيّ الرحمة، والهدف من بعثة الأنبياء هداية الناس. فأيّ وسيلة للهداية أفضل وأجمل وأبلغ من النفوذ في قلوب الضالّين؟!

قد لا يكون لهذا التصرّف أثر آني، ولكن أمثال هذه التصرّفات هي التي تجمّعت في فتح مكّة وبعده حتّى بلغ الأمر إلى فتح قلوب الناس أجمعين وصاروا «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً».

هذا المشهد نفسه تكرّر في صفّين مع الإمام عليّ (عليه السلام)، وحصل أيضاً مع الحسين (عليه السلام) في طريق كربلاء إزاء الحُرّ وأصحابه.

وهكذا يعمل الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف.

---

(١) وكما قال الله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ».

ما أعظم أهل البيت وما أحلى العيش في ظلّهم!

إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يبدأ حرباً، بل إنّ العدوّ هو الذي كان يتعرّض للرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهكذا كان حال الإمام عليّ (عليه السلام)، وكذلك الإمام الحسين (عليه السلام)؛ فمع أنّ العدوّ كان قد حاصره يقول عليه السلام: «إنّي أكره أن أبدأهم بقتال»[1].

هذا هو واقع أهل البيت عليهم السلام.

إذا أردتم أن تعرفوا الحجّة (عجّل الله فرجه) فانظروا إلى هذه الوقائع عن حياة الرسول والأئمّة المعصومين من أهل بيته سلام الله عليهم أجمعين، وكيف كانوا يعيشون، وكيف كانت معاشرتهم للناس، وكيف كانوا في الحرب والسلم.

لقد استشهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مدين، وكذلك الإمام عليّ (عليه السلام)، وروي أنّ الإمام الحجّة يستشهد أيضاً، فهل يستشهد وهو غير مدين؟ لا أراه مستثنى من هذه القاعدة.

إنّ الأئمة لا يصبحون مدينين بسبب حاجاتهم الشخصية، بل لأنّهم يعطون ما لديهم، فإذا نفد ما تحت أيديهم استقرضوا للعطاء أيضاً.

وهذا هو حال الأئمّة كلّهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فما أحلى العيش وأطيبه في ظلّهم!

(١) بحار الأنوار، ج٤٥، ص٤.

والإمام المهدي (عجّل الله فرجه) هو مرآة كاملة المظهر للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلّ شيء، ما عدا مقام نبوّته.

وهو (عجّل الله فرجه) مرآة كاملة للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في كلّ شيء ما عدا مقام أفضليته (عليه السلام). فما أحلى العيش وأطيبه آنذاك: في ظلّ الإمام صاحب العصر (عجّل الله فرجه)!

لنطالع الروايات قليلاً ونبحث فيها، ونتأمّل في مضامينها.

حقّاً إنّ التعلّق بالإمام المهديّ وحبّه هو تعلّق وحبّ لشخصه وللحياة الطيّبة التي تكون في ظلّ حكومته أيضاً، صلوات الله وسلامه عليه.

أحوال الناس في زمن الظهور

كانت تلك نبذة عن حال الإمام (عليه السلام) وسيرته في عصر ظهوره. أمّا حال سائر الناس في زمن الظهور فيروى عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنّه قال: «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت بها أحلامهم»[1]. واليد هنا تعني القدرة كما في قوله تعالى: «يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم»[2] أي إنّ قدرة الله فوق قدرة كلّ أحد. وهكذا الإمام (عجّل الله فرجه) فإنّه يضع يد — قدرته - على رؤوس العباد فتكمل عقولهم.

ولهذا الأمر معنى طبيعي وآخر غيبيّ، ولا مانع أن يكونا معاً، أي

---

(١) البحار، ج٥٣، ص٣٣٨.

(٢) الفتح: ١٠.

بعض يشمل بالأوّل وبعض بالثاني، كما في الحيوانات حيث تتآلف ويسود التعايش حتّى بين المتعادية منها. فقد يكون هذا من ضمن «يضع يده» أيضاً وإن كان النصّ يقول: «على رؤوس العباد» لأنّه كما قلنا لا مانع أن يكون لهذا الأمر معنى غيبي أيضاً، يكون هذا من مصاديقه؛ إلى جانب المعنى الطبيعي للجملة (على رؤوس العباد) أي البشر.

وإذا كمل عقل الإنسان فإنّه لا يلهث بعد ذلك وراء حطام الدنيا، لأنّ ضعف العقل هو الذي يسوقه صوب التهافت على الدنيا.

وإذا كمل عقل الإنسان لم يركض خلف أهوائه، فهل سيكون ثمّة ظلم أو فقر أو بؤس؟ كلاّ بالطبع.

وإذا كمل عقل الإنسان كملت عقيدته وكمل إيمانه بل كملت حياته أيضاً. فتكون حياة الناس هانئة طيّبة ومريحة بل أحسن حياة يحياها جيل من الأجيال. وهذا سيكون حال معظم الناس يومذاك وليس حالة استثنائية لبعض الناس. فمعظم الناس سيحيون في راحة وهناءة ورغد وعيش كريم.

٢ لنعرف وظيفتنا بنحو أفضل

أمّا الموضوع الثاني الذي أودّ الإشارة إليه في هذه الليلة المباركة، فهي معرفة وظيفتنا في عصر الغيبة.

إنّ الوظيفة شيء والرغبة شيء آخر، ويحسن الفصل بينهما جيّداً. تأمّلوا في هذا المثال: إذا مرض شخص ما أصبحت بعض الأغذية مضرّة بالنسبة إليه، وهذا لا يعنى أنّ هذه الأغذية مضرّة بذاتها بل هي حسنة

ولكنّها لا تصلح لهذا الشخص بسبب مزاحمة الأهمّ في حقّه. فتناول هذه الأغذية تشكّل رغبة لهذا الشخص، ولكنّها ليست وظيفته. فكذلك الحال بالنسبة لنا تجاه صاحب الزمان (عليه السلام وعجّل الله تعالى فرجه الشريف).

إنّ لنا في لقاء صاحب الزمان رغبة، ولنا إزاءه وظيفة. فإذا كان هذان الأمران قابلين للجمع فما أحسن ذلك! أمّا إذا لم يمكن الجمع بينهما فهل على الفرد أن يسعى لتحقيق الرغبة أم العمل بالوظيفة؟ لا شكّ أنّ الواجب هو السعي للغمل بالوظيفة.

إنّ علقتنا الشديدة - جميعاً - بوليّ العصر (صلوات الله وسلامه عليه) هو الذي يدفعنا لأن نهتمّ ونعمل ونجدّ ونجتهد لسلوك الطريق الذي ينتهي بنا إلى توفيقنا لزيارة حضرته في عصر الغيبة، وهو مطلب مهمّ بالطبع ورغبة عظيمة؛ ومن وُفّق لها فقد نال مقاماً شامخاً وشرفاً رفيعاً، ولكنّها ليست الوظيفة.

إنّه شرف كبير وكرامة عظيمة أن يلتقي الإنسان بإمامه عن قرب ويقبّل يده، لا شكّ في ذلك ولا شبهة، ولكن السؤال هل هو ما يريده الإمام منّا؟ وهل هذه هي وظيفتنا؟

الوظيفة تعلّم الإسلام والعمل به وتعليمه

إنّ الوظيفة هي تعلّم الإسلام والعمل به وتعليمه سيّان كان الشخص رجلاً أو امرأة، زوجاً أم زوجة، أولاداً أو آباءً وأمّهات، أساتذة أم تلاميذ، وباعة أو مشترين، ومؤجّرين أم مستأجرين، وجيراناً أو أرحاماً،

وفي كلّ الظروف والأحوال.

على كلّ فرد منّا أن ينظر ما هي وظيفته تجاه نفسه وتجاه الآخرين؛ ما هي الواجبات المترتّبة عليه، وما هي التروك والمحرّمات التي ينبغي له الانتهاء عنها.

إنّ على كلّ فرد منّا أن يعرف ما هي الواجبات بحقّه وما هي المحرّمات عليه. فعلى الزوج أن يعرف واجباته تجاه نفسه وتجاه عائلته، وتجاه الآخرين، وكذا المرأة عليها أن تسعى لمعرفة ما يجب عليها تجاه زوجها وأولادها والمجتمع. وهكذا الأولاد تجاه والديهم والوالدين تجاه الأبناء، وكذا الإخوة فيما بينهم، وهكذا الجيران والأرحام والمتعاملون بعضهم مع بعض.

إنّ الوظيفة أن يعرف الإنسان أحكامه - ولا أقلّ من الواجبات والمحرّمات - ثم يلتزم بها. وعلى رأس الواجبات معرفة المولى صاحب العصر والزمان أرواحنا فداه وعجّل الله فرجه الشريف. وهذا واجب الجميع فإنّه «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». ولكي لا يموت أحدنا بحكم الكافر، ولا يكون حال الموت بحكم المشرك، عليه أن يعرف ما هي واجباته وما هي المحرّمات عليه، فيما يخصّ العقائد والعمل، لنفسه وللآخرين.

يقول الفقهاء إنّ على كلّ شخص أن يسعى للحصول على ملَكة العدالة في نفسه، وهذا من المسلّمات، وهو على حدّ تعبيرنا - نحن الطلبة - مقدّمة وجود الواجب المطلق.

إذن على كلّ فرد منّا سواء كان رجلاً أو امرأة، شاباً أم شيخاً، أهل

علم أو كان كاسباً أن يحصل على ملَكة تحصّنه من ارتكاب المحرّمات أو التخلّف عن الواجبات. ثمّ عليه بتعليم الآخرين حسب مقدرته ومعرفته.

أمّا ما لا يعرفه ويستطيع أن يتعلّمه فيلتعلّمه، ثمّ يعلّمه للآخرين فإنّ نسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى العلم هي نسبة الواجب المطلق، وليس المشروط، ولكنّه واجب كفائي، فإذا لم يكن مَن فيه الكفاية صار واجباً عينياً أيضاً. أي أنّ على كلّ شخص مكلّف أن يتعلّم ويعرف ما هي الواجبات والمحرّمات عليه وعلى الآخرين للعمل بها وتعليمها والأمر بها حتّى الوصول إلى حدّ تتحقّق فيه الكفاية. فهذه هي الوظيفة، وهذا ما يسرّ الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه) ويجعله يرضى عنّا. فإنّ مَن أدّى وظيفته بصورة صحيحة كان مرضيّاً عند الإمام، أمّا مَن لم يؤدِّ وظيفته فليس بمرضيّ عنده.

الوظيفة مقدّمة على الرغبة

صحيح أنّ الذين وفّقوا أو سيوفّقون أو هم موفّقون لنيل هذا الشرف العظيم بلقاء الإمام الحجّة وزيارته في الغيبة الكبرى، هم - في الغالب وحسب القاعدة – ممّن يعرفون الوظيفة ويعملون بها، وإلاّ لما حصلوا على هذا الشرف، ولكن هذا (أي الطموح للقائه عجّل الله فرجه) ليس هو الوظيفة، فلو أمكن الجمع فما أحسن ذلك! وإلاّ فإنّ الوظيفة مقدّمة على الرغبة، والوظيفة هي معرفة الواجبات والعمل بها وتشخيص المحرّمات والاجتناب عنها، تجاه النفس والآخرين، وبتعليم الجاهلين كلّ حسب قدرته ومعرفته، والسعي لكسب المزيد من المعرفة على هذا الطريق.

الشيخ المفيد نال أوسمة من الحجّة لم ينل مثلها أحد

أنقل لكم هنا القضيّة التالية وفكّروا أنتم في معناها:

انظروا في كلّ ما وصلنا من عبارات المدح والتقريظ من الإمام الحجّة (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين) بشأن كلّ الأفراد، ونوّابه الأربعة الخاصّين، والسفراء الآخرين ووكلائه[1]...

.. هل تجدون في كلّ كلمات المديح والتقريظ التي تفضّل بها الإمام بحقّ الأشخاص من نوّاب خاصّين وسفراء وغيرهم ما يرتقي لمستوى ما قاله (عليه السلام) بحق الشيخ المفيد؟ لا أظنّ ذلك.

ينقل العلاّمة المجلسي رسالتين عنه (عليه السلام) في البحار إلى الشيخ المفيد[2], والبحار كتاب موجود ومتداول، فراجعوه ولاحظوا هاتين الرسالتين، تجدون أنّ الإمام يذكر فيهما بعض المطالب، ويرد في موارد منها مدح للشيخ المفيد، لا تجدون له نظيراً حتّى في حقّ الحسين بن روح أو السمري أو العمريّين، وهم نوّابه الخاصّون.

أقول: من خلال هاتين الرسالتين والعبائر الأخرى التي نُقلت عنه (سلام الله عليه) بحقّ المفيد نلمس تقريظاً قد لا نلمسه – من حيث المجموع – بحقّ أيّ شخصية أخرى على الإطلاق، ممّن تشرّفوا بلقاء الحجّة

---

(١) فإنّ السفراء هم غير النوّاب الأربعة، فقد أطلق تعبير السفير على غير هؤلاء الأربعة، وإن أُطلق عليهم أيضاً، فهم السفراء المطلقون، وكان هناك للإمام سفراء محدّدون كمَن كاتبوا الإمام (عليه السلام) وأجابهم، وثمّة بعض الكتب التي كتبها الإمام ابتداءً لبعض أصحاب أبيه وجدّه عليهم السلام.

(٢) قال المجلسي وآخرون أنّ هذه الرسائل كانت ثلاثاً ضاعت واحدة منها و لم تصلنا.

(عليه السلام).

فمما ورد في إحدى الرسالتين الموجّهة للشيخ المفيد رحمه الله قوله (عجل الله فرجه الشريف):

للأخ السديد والولي الرشيد الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان أدام الله إعزازه

من مستودع العهد المأخوذ على العباد:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: سلام عليك أيها المولى المخلص في الدين، المخصوص فينا باليقين، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونسأله الصلاة على سيدنا ومولانا نبينا محمد وآله الطاهرين، ونعلمك أدام الله توفيقك لنصرة الحق، وأجزل مثوبتك على نطقك عنا بالصدق، أنه قد أُذن لنا في تشريفك بالمكاتبة، وتكليفك ما تؤديه عنا إلى موالينا قبلك أعزهم الله بطاعته، وكفاهم المهمّ برعايته لهم وحراسته. فقف أمدّك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه على ما نذكره، واعمل في تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إن شاء الله نحن، وإن كنا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أراناه الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإنا يحيط علمنا بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ومعرفتنا بالزلل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً و نبذوا العهد المأخوذ منهم وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، إنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء، فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم يهلك

فيها من حمّ أجله و يحمى عليه من أدرك أمله و هي أمارة لأزوف حركتنا و مباءتكم بأمرنا و نهينا و الله متمّ نوره و لو كره المشركون ... و الله يلهمك الرشد و يلطف لكم بالتوفيق برحمته...

هذا كتابنا عليك أيها الأخ الولي والمخلص في ودنا، الصفي والناصر لنا، الوفي. حرسك الله بعينه التي لا تنام، فاحتفظ به ولا تظهر على خطنا الذي سطرناه بما له ضمناه أحداً، وأدّ ما فيه إلى من تسكن إليه، وأوص جماعتهم بالعمل عليه إن شاء الله، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين[1].

أعود وأقول: إنّه لشرف كبير ومصدر فخر واعتزاز أن يمثل الشخص بين يدي الإمام ويكون في حضرته؛ يزوره عياناً ويتشرّف برؤيته وتقبيل يده. فهنيئاً - وآلاف المرّات هنيئاً - لأمثال الحاجّ عليّ البغدادي والسيّد بحر العلوم وغيرهما ممّن نالوا هذا الشرف الكبير وهذا المجد الرفيع وهذه الكرامة. ولكن - اعلموا أيّها الإخوان - إنّ هذه ليست هي الوظيفة فإنّه لم يبلغنا عن الشيخ المفيد أنّه التقى بالحجّة — لا يُعرف ما هو السبب، وربما التقاه ولم يصلنا - ولكنّه مع ذلك نال هذه الأوسمة منه عليه السلام.

بمقدار ما نعمل بوظائفنا يرضى عنّا الحجّة

على كلّ حال إنّ وظيفتنا هي التي يرضى بها الإمام عنّا إن نحن عملنا بها، وإذا أردنا أن نعرف نسبة رضاه عنّا - وكم هي في المئة مثلاً - فلنفكّر مع أنفسنا مدى معرفتنا للوظيفة وعملنا بها - تجاه أنفسنا

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٤، باب ٣١ (ما خرج من توقيعاته عليه السلام).

والآخرين، أقرباء وأرحاماً وسواهم - هذه أهم مسألة وواجب علينا ودور لنا في عصر الغيبة، وإنّ الدرجات التي تُمنح في الآخرة ستكون على هذا الأساس أيضاً.

نسأل الله أن نبقى أحياء حتّى ندرك ظهور الحجة (عجل الله تعالى فرجه) ونكون في خدمته وفي ركابه، ولكن اعلموا أنّه حتّى درجات ذلك اليوم تعطى على أساس دورنا وعملنا وإنجاز وظيفتنا اليوم.

أويس القرني أفضل من كثير من الصحابة!

ولتكن لنا في أويس القرني قدوة وعبرة، فإنّ هذا العبد الصالح لم يوفّق لأن يدرك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أنّه كان في عصره، فقد كان يعيش في اليمن، وعندما توجّه منها إلى المدينة لرؤية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وزيارته لم يدركه أيضاً، فقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد استشهد. وتأثّر أويس لذلك كثيراً. ولكن هل تعلمون أنّ أويساً هذا مقدّم على كثير ممّن صحبوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

إذا أردتم التحقّق من ذلك فانظروا إلى سيرته:

يُنقل أنّه كان أحد الأشخاص يسبّ أويساً كلّما مرّ به أو التقاه. وفي إحدى المرّات رآه أويس يقبل من بعيد فغيّر طريقه. هل تدرون لماذا؟

ربّما كثير من الناس يتجنّب المواجهة مع مَن يريد سبّه، لأنّه قد تتوتّر أعصابه أو يراق ماء وجهه بين الناس. ولكن أويساً لم يغيّر طريقه لهذه الأسباب. فعندما سألوه عن السبب في تغيير مسيره أجاب: لئلاّ يقع (أي

ذلك الشخص) في المعصية[1].

هل صحيح هذا؟ أجل ولِمَ لا!

إذن فلنكن مثله إن شاء الله.

ختاماً: ونحن في عصر الغيبة إن أردنا أن نكسب رضا وليّ العصر وصاحب الزمان، فإنّ هذا الأمر يرتبط ارتباطاً وثيقاً وأكيداً بمدى معرفتنا للوظيفة والواجب الملقى علينا والعمل بهما.

أرجو من الله تعالى ببركة هذه الأيام، وببركة ميلاد الإمام ووجوده المقدّس وآبائه الطاهرين عليه وعليهم السلام، أن يزيد في توفيق مَن كانت عنده هذه الخصلة (أي معرفة الوظيفة في عصر الغيبة) وأن يمنحها لِمَن ليست عنده بعد.

والحمد لله ربّ العالمين

وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

ليلة النصف من شعبان / ١٤٢٣هـ

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق، ج٩، ص٤٢١.

المحاضرة ٥ العلم! العلم! العلم!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

نوم مع علم خير من صلاة مع جهل

هناك حديث نقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، صغير العبارة، كبير المحتوى والمعنى؛ فلقد روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل»[(١)].

إنّ الهدف من خلق الإنسان هو العبادة؛ يقول الله تعالى: «وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ ليعبدونِ»[(٢)].

والصلاة رأس كلّ العبادات وأهمها، بل هي العبادة التي «إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواها» من الطاعات والعبادات، كما في الحديث الشريف[(٣)].

ومع ذلك نرى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل»! فكيف يكون ذلك؟

إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي يعرّف لنا العبادة، ويعرّفنا بالصلاة وشأنها، ومنطقه منطق القرآن والإسلام والواقع، وها هو يخبرنا بنفسه أنّ

---

(١) بحار الأنوار ج١، ص١٨٥.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) فلاح السائل، ص١٢٧.

نوم العالِم خير من الصلاة (وهي أهمّ الطاعات والعبادات) إن كانت مع جهل.

حقّاً لو أنّ هذا التعبير - عن تفضيل العلم على الصلاة هكذا - لم يرد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى لسانه، لما أمكن لأيّ عالِم - غير أئمة أهل البيت عليهم السلام - أن يتفوّه بمثله أبداً؛ إذ كيف يكون النوم (مع أنّ النائم لا يعمل شيئاً) خيراً من الصلاة (وهي رأس العبادات وأهمها)؟

نعم، لو كانت الصلاة باطلة، فمن الواضح أنّ عدمها خير من وجودها، والنوم ترك أي عدم، ولكنّ الحديث لم يقيّدها بالبطلان أو عدم القبول وما أشبه، بل فضّل النوم - إن كان مع علم - على مطلق الصلاة - إن كانت مع جهل -.

نوم العالِم حسنة والجهل في كلّ أحواله سيئة

إنّ نوم العالِم ليس مجرد ترك بل هو مقدّمة وجود؛ لأنّ العالِم إذا نام استراح، واستراحته هذه تمثّل مقدّمة للخدمة والهداية وإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجحيم إلى الجنّة. فنوم العالِم حسنة إذاً.

أمّا الصلاة مع جهل فكثيراً ما تكون سيئة، لأنّ الجاهل إذا لم يصلّ الصلاة الواجبة فتلك سيئة، وإذا صلاها باطلة فسيئة أيضاً؛ يستوي في ذلك الجهل عن تقصير أو قصور.

فصحيح أنّ القاصر لا شيء في حقّه، لأنّ من أصول الإسلام العدل، والله سبحانه وتعالى عادل، ومن عدله أن لا يعذّب القاصر، فمن وُلد في مكان أو زمن أو ظرف بحيث كان قاصراً لا يتوجه خطاب ولا عقاب بالنسبة إليه، أي لا يُعذّب ولا يُعاقَب ولا تكتب له سيئة.. ولكن نوم العالِم أفضل من صلاته (أي صلاة الجاهل القاصر) أيضاً.

والجاهل المقصّر كالعالِم العامد، فلننتبه جيداً

أمّا الجاهل المقصّر فقد ادّعى المحقّقون الأعاظم من الفقهاء والأصوليين الإجماع على أنّ حكمه حكم العالِم العامد خطاباً وعقاباً.

فكما أنّ العالِم العامد (أي الذي يعمل عملاً ويعلم أنّه حرام مثلاً)، لا إشكال عقلاً في توجّه الخطاب أو النهي إليه، فكذلك الجاهل المقصّر يتوجّه إليه الخطاب والعقاب دون أن يكون إشكال فيه عقلاً.

ولا يمكن أن يوجد بيننا نحن - طلبة العوم الدينية - جاهل قاصر، ولكن قد يوجد بيننا - مع احترامي لكم - الجاهل المقصّر. فإنّه لا يقصد بالجاهل المقصّر مَن كان مستواه الدراسي أوطأ أو كانت معلوماته أقل، بل مَن يجهل أحكام الله، فيعمل الحرام وهو لا يعلم أنّ عمله هذا حرام.

فيا أيها الأخوة! مادام المؤمن باذلاً عمره في سبيل الله سبحانه وتعالى.. يعطي وقته وساعاته ودقائق حياته في طاعة الله مصلياً أو صائماً أو حاجاً أو معتكفاً أو قارئاً للقرآن... فليخصّص الحظّ الأوفر للعلم، وأعني به العلم بأصول الدين وأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

وعلينا بعلم الأخلاق أيضاً فليست أخلاق الإسلام وآدابه كلّها لا اقتضائيات - حسب الاصطلاح العلمي - أي ليست كلّها مستحبّات ومكروهات فقط بل إنّ فيها الواجبات والمحرّمات أيضاً. فهذا كتاب جامع السعادات - وهو كتاب أخلاقي - وذلك باب الأخلاق في البحار وتلك كتب الأخلاق الأخرى راجعوها تجدوها مليئة بالواجبات والمحرّمات.

إذا عرفتم مكانة العلم وموقعه وأنّ من الأخلاق واجبات ومحرّمات فاعلموا أنّ الأخلاق جزء من العلم المطلوب أيضاً.

ورع الشيخ عبد الكريم الحائري وعلمه

ولكي تدركوا أهمّية العلم وكيف أنّ الـ«نوم مع علم خير من صلاة مع جهل»، أنقل لكم الحكاية التالية.

لا يزال بين ظهرانينا اليوم مئات الأشخاص ممن أدركوا الشيخ عبد الكريم الحائري مؤسس الحوزة العلمية في قم -وهم من الشيوخ الذين تجاوزت أعمارهم السبعين- وينقل بعضهم عنه قصصاً مباشرة أي دون واسطة.

والقصة التي سأرويها لكم سمعتها من أحد العلماء الذين عاصروا الشيخ عبد الكريم الحائري، وربما سمعتها من أكثر من واحد. وهذه القصة وأمثالها تنفعنا نحن، باعتبارنا في طريق العلم، عسى أن تكون نبراساً يضيء لنا الطريق فلا نكون من الجاهلين المقصّرين.

حدّثني العالِم قال: نزل أحد أصدقاء الشيخ (المرحوم عبد الكريم الحائري) ضيفاً عليه في أحد الأيام، ولم يكن معهما ثالث إلاّ الله؛ ولذلك فإنّ ناقل القصة الأوّل لا يعدو أن يكون الضيف أو الشيخ نفسه أو كليهما.

يقول الراوي: مُدّ خوان متواضع وجاء الشيخ بما كان عنده من طعام عادي وبسيط في بيته، وأخذ الضيف يأكل والشيخ عبد الكريم كذلك. ولكن فجأة سحب الشيخ يده للحظات وتأمل، ثم مدّ يده ثانية إلى الطعام واقتطع قطعة من اللحم، وقام ودخل إلى الدار ثم عاد بعد ذلك واعتذر للضيف قائلاً:

لقد انتبهت فجأة أنّ كلّ اللحم الذي اشتريته اليوم قد طهته زوجتي ووضعته أمامنا. (تعلمون أنه لم يكن في تلك الأيام ثلاّجات أو مجمدات ليكون عندهم طعام آخر في البيت).

يقول الشيخ: ولما كانت الزوجة واجبة النفقة عليَّ، فقد أحسست على الفور أنّي قد وقعت في مشكلة، فقلت: أن أعتذر للضيف خير لي من أن أقع في إشكال شرعي؛ كان الخوف الذي تملّكني من الناحية الشرعية، هو أن أترك زوجتي هكذا

من دون طعام، لأنّ هذا العمل خلاف للمروءة، بل لعله ترك واجب. قلت مع نفسي: صحيح أنها هي التي قامت بذلك العمل بنفسها وقدّمت لنا كلّ الطعام، ولكن ينبغي لي أن أكون منصفاً.

والآن انظروا إلى ورع الشيخ وكيف أنقذه علمه! فلو كان غيره لقال: إنّ هذا تصرّف مشين. فمن المخجل والمخزي أن يرفع أحدنا الطعام من أمام ضيفه ليذهب به إلى أهله.

كلّ مستحبّ محدود بعدم ترك واجب أو ارتكاب محرّم

أقول: أجل، إنّ الكرم خصلة محمودة، وكذا السخاء والإنفاق وإقراء الضيف، فكلّ ذلك عمل مقبول ومحبّذ، ولكن إلى حيث لا يؤدي إلى ترك واجب أو ارتكاب محرّم. ولعلّ كثيراً منا لا يعلم أنّ مثل التصرّف الذي قام به الشيخ قد يكون واجباً. فها هنا يأتي دور العلم لينفع صاحبه ويقول له: إنّ إقراء الضيف محدود بعدم ترك الواجب، ولو أنّ أحداً حلّ به ضيف ثم قام بجلب طعام مَن تجب نفقته عليه وقدّمه بين يدي الضيف من دون رضا واجب النفقة ووجود طعام بديل له، فإنّ إقراءه هذا غير جائز، وهذا ما يقوله كلّ مراجع التقليد. سلوا أيّ مرجع شئتم لو أنّ المرء قدّم طعام واجب نفقته الذي لا يملك غيره ومن دون رضاه للضيف فهل يعدّ عمله هذا جائزاً، سيخبركم أنه غير جائز قطعاً.

والآن هل رأيتم كيف أنّ علم الشيخ الحائري نفعه. فهذا هو الذي نومه خير من صلاة مع جهل، لأنّ الإنسان الذي عنده علم لا يعمل الحرام في سبيل ترك مكروه، ولا يترك واجباً من أجل الإتيان بعمل مستحبّ. وهو يتحمّل ما يُخجل ولا يعمل الحرام. ولاشكّ أنّ الشيخ عبد الكريم قد خجل وشعر بالحرج ومن المؤكد أنّ الأمر لم يكن عليه يسيراً، ولكنه مع ذلك لم يبال بهذه الأمور، لأنّ ما هو أخطر منها في نظره أن يقع في معصية مولاه عز وجل. وكان لعلمه الأثر المهم في

ذلك، وإلاّ فلو كان جاهلاً بالقضية لما تصرّف هكذا.

فصدق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول: «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل».

معنى «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: «..... وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»[1].

صحيح أنّ صدر الآية وردت في الظالمين، ولكن ثمة تفاسير تقول: إنها في فريق من الناس أيضاً، يظنون أعمالهم في الدنيا حسنات لكنها تبدو لهم في الآخرة سيئات. ومن الأمثلة على ذلك إقراء الضيف بطعام واجب النفقة من دون رضاه أو وجود البديل. أرأيتم إلى الإقراء - المظنون أنه حسنة -كيف عاد سيئة؟!.

وكان ذلك مثالاً واحداً تبرز فيه أهمية العلم وتفضيل نوم صاحبه على الصلاة مع جهل، وإلاّ فإنّ أكثر أعمال الجاهل سيئات. فلو أخذنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب المثال أيضاً، لرأينا الشيء نفسه؛ لأنّ الجاهل إذا لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر - وكان واجباً عليه - فقد ارتكب سيئة، وإن أَمَر ونهى فلا يبعد أن يكون أمره ونهيه سيئة، لأنه لا يعلم الكيفية والوقت والأسلوب اللازم للأمر والنهي الواجبين عليه. بل قد يقول عن المكروه إنه حرام، أو عن المستحب إنه واجب، فيصدر منه - والعياذ بالله - الحكم بما لم ينزّل الله.

لقد شاهدت أحد الأشخاص يعظ في محضر أحد مراجع التقليد، فذكر مكروهاً من المكروهات وقال عنه إنه حرام اعتماداً على رواية طالعها. فكان من بين الحضور رجل كبير السن يعرف شيئاً من المسائل الشرعية انتابه الشك، فذهب

---

(١) الزمر: ٤٧.

إلى المرجع وسأله عن الموضوع، فقال له المرجع: كلاّ إنّ هذا الأمر مكروه وليس حراماً. فجاء الرجل إلى المتكلّم الذي كان يرشد الناس وقال له: لقد سألت المرجع وأخبرني أنّ ما حدّثت عنه أنه حرام ليس حراماً بل مكروه.

فتأثر ذلك الواعظ وجاء إلى المرجع وعاتبه بأنّ كرامته ذهبت أمام ذلك الشخص لإخباره بخلاف حديثه.

عند ذلك قال المرجع: لقد فكّرت في كلامك ورأيت أنه خلاف الإجماع أي أنّ المسألة لم تكن خلافية بأن يقول أحد العلماء بكراهيتها ويقول آخر بحرمتها بل لم يقل أحد إنه حرام على الإطلاق.

وهنا أجاب الشخص: لكنّي وجدت رواية تنهى عن ذلك.

فقال له المرجع: ليست كلّ رواية فيها نهي، فهي دالّة على الحرمة. إنّ العلماء والمجتهدين يتعبون أنفسهم عشرات السنين لكي يعرفوا هل النهي الفلاني يدلّ على الحرمة أم لا، وهل الأمر الفلاني دالّ على الاستحباب أم الوجوب.

وكان هذا مثالاً لمن يتصوّر أنه محسن مع أنّ عمله عين الإساءة، ونحن نرجو أن يكون ذلك الواعظ - وقد توفّي رحمه الله - من القاصرين.

أما نحن فلا أتصور أن يوجد بيننا جاهل قاصر بعد كلّ هذا، وإذا وُجد فهو مقصّر لا قاصر، والجاهل المقصّر - حسب أعاظم الفقهاء والأصوليين والمحقّقين - كالعالِم العامد خطاباً وعقاباً. فإن لم يأت بالواجب فتلك سيئة، وإن أتى به ولكن مع المنافيات - غير عالم بها حتى وافاه الأجل دون أن يتعلّمها - فتلك سيئة أيضاً.

ومن هنا يتّضح لنا بعض الشيء قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «نوم مع علم خير من صلاة مع جهل».

صالح بن سهل وما أخذه من الإمام حياءً

تأمّل في هذا الحديث الصحيح الأعلائي - على حد تعبير بعض العلماء - .

فإنّ الكليني يروي هذا الحديث عن علي بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن هاشم. فالسلسلة هؤلاء الثلاثة فقط: الكليني، وعلي بن إبراهيم، وأبوه إبراهيم الذي ينقل القصّة التي شهدها بنفسه في مجلس الإمام الجواد (عليه السلام)، يقول:

«... صالح بن محمد بن سهل وكان يتولى له الوقف بقم، فقال: يا سيدي اجعلني من عشرة آلاف في حل فإنّي أنفقتها. فقال له: أنت في حل، فلمّا خرج صالح قال أبو جعفر عليه السلام: أحدهم يثب على أموال حقّ آل محمد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم فيأخذه ثم يجيء فيقول: اجعلني في حل، أتراه ظن أنّي أقول لا أفعل، والله ليسألنّهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً»[1].

انظر كيف أنّ الإمام المعصوم (عليه السلام) يقول له -في رواية صحيحة-: «أنت في حلّ» ثم يخبر أصحابه أنه لا فائدة من ذلك. لماذا؟ الجواب: لأنّ الرجل لا يخلو إما أن يكون عالماً أو جاهلاً مقصّراً، ولا يمكن أن يكون غير ذلك. وما أخذه من الإمام إنّما أخذه حياءً (أتراه ظن أنّي أقول لا أفعل).

المهم أنّ المطلوب هو العلم. فإن الإنسان لا يدري بماذا سيُبتلى وكيف ينبغي له أن يتصرّف وكيف يتحدّث لئلاّ يكون من الذين «بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»[2]، فينفق ويتصوّر إنفاقه حسنة، أو يكتب أو يخطب ويتصوّرهما حسنة ثمّ ينكشف له بعد ذلك أنّ أعماله كلها كانت سيئات. ونحن أهل العلم أَولى بالالتفات والانتباه إلى هذا الأمر الخطير.

---

(١) الكافي ج١، ص٥٤٨.

(٢) الزمر: ٤٧.

الحسين بن روح وخوفه من الجواب دون علم

لقد كان الحسين بن روح (رضوان الله تعالى عليه) من نوّاب الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف. سأله بعض الشيعة عن الشلمغاني وكان عالِماً أيضاً، ولكنه ورد النهي عن المعصوم (عليه السلام) في اتّباعه، بل ورد عن الإمام الحجّة (عليه السلام) التحذير منه في قصّة لا يعنينا ذكرها الآن.

سئل الحسين بن روح عن كتب الشلمغاني بعدما ذُمّ وخرجت فيه اللعنة فقيل له: فكيف نعمل بكتب ابن أبي العزاقر وبيوتنا منها مليء؟ فقال (الحسين بن روح): «أقول فيها ما قاله أبو محمد الحسن بن علي- يعني الإمام العسكري- صلوات الله عليهما وقد سئل عن كتب بني فضال فقالوا: كيف نعمل بكتبهم وبيوتنا منها مليء؟ فقال عليه السلام: خذوا بما رووا وذروا ما رأوا»[1]. {أي إذا رأيتم روايات رووها عنّا فاعملوا بها، أما آراؤهم وفتاواهم فذروها}.

بعد ذلك - وهنا محل الشاهد - سأل السائل الحسين بن روح وقال: هذا منك أو من الإمام عليه السلام؟

وهنا أطلق (رضوان الله عليه) في الجواب عبارة عظيمة جداً تناسب مقامه الرفيع، وقال: «لئن أخر من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الريح من مكان سحيق أحب إلي من أن أقول في دين الله برأيي و من عند نفسي بل ذلك من الأصل و مسموع من الحجة صلوات الله و سلامه عليه»[2].

أقول: فهل يُعذر بعد ذلك مَن يقول بجهل مقصّراً؟ كلاّ إنه ليس بمعذور.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٥٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٧٣.

إننا بحاجة إلى تعبئة في أصول الدين

إنّ كثيراً من المطالب المهمّة في أصول الدين قد تغيب على كثير منا.

نقل لي أحدهم - ولا أرى من المناسب أن أذكر درجته العلمية، وهو الآخر قد توفّي رحمه الله - قال: سألني أحد الناس في مكان ما يوما وقال: ما هو الدليل على وجود الله سبحانه وتعالى؟ يقول: فكّرت قليلاً ثم رأيت أنه لا ينبغي أن أتحدث هكذا من دون علم ثم يظهر للشخص أنني لم أكن أعرف شيئاً، فخلّصت نفسي منذ البداية وقلت: إنّ هذا ليس من اختصاصي!

والآن هل هذا يليق برجل العلم؟ أليس من واجباته الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل؟ أم ليس وجود الله تعالى أساس كلّ الدين وأصل أصوله؟

ثقوا أنّ كثيراً من مطالب أصول الدين نحتاج إلى تعلّمها سواء بالدراسة أو المطالعة أو المباحثة، وكذا الحال بالنسبة لكثير من الأحكام الشرعية.

إننا اليوم بأمسّ الحاجة إلى تعبئة علمية حتى لمعرفة كثير من الأحكام الشرعية التي هي محلّ ابتلائنا أيضاً، سواء في عملنا الشخصي أو في مقام الهداية والإرشاد وتعليم الأحكام، بله مسائل هداية الضلاّل وأصحاب الديانات والمذاهب الباطلة والأفكار المنحرفة.. فهذا كلّه من الواجبات العينية.

أطلبوا العلم ولو بالصين

لقد ورد في الحديث المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتب الفريقين، وهو موجود في البحار وغيره، قوله صلّى الله عليه وآله: «أطلب العلم ولو بالصين»[1].

وتعلمون المسافة بين الحجاز والصين، وصعوبة قطعها خاصة في مثل تلك

---

(١) بحار الأنوار ج١، ص٧٧، وج١٠٥، ١٥.

الأيام؛ بل ينقل إنه حتى ما قبل بضع مئة سنة كان على المسلم الذي يريد الحج من الصين أن يخصص مدة سنتين تستغرقها سفرته إلى بيت الله الحرام. هذا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمئات السنين فكيف بزمانه صلّى الله عليه وآله؟

هذا ولا يكفي أحدنا - لكي يصدق عليه أنه يطلب العلم - أن يقتصر على الدرس أو التدريس قليلاً، وإن كان هذا لا بأس فيه، بل على المرء أن يتعلّم إلى جنب دروسه، الحلال والحرام وأصول الدين والأخلاق والآداب الإسلامية.

كتب الأخلاق مشحونة بالفرائض

والأخلاق الإسلامية ليست لاقتضائية حسب الاصطلاح العلمي. فكثير مما يعبّر عنه اصطلاحاً بالأخلاق هو من المحرّمات فإنّ التكبّر والعُجب مثلاً ليسا من المكروهات، بل هما من المحرّمات، وكذلك الرياء والمراء، وهو الجدال بالباطل.

فمثلاً لو قال أحدنا كلمة وكانت حقاً مئة في المئة وكان يعلم أنها كذلك ثم عارضه أحد فنوى ردّه، فإن كان ردّه لإثبات أنّ قوله هو الصحيح، فهذا هو المراء الباطل الذي أفتى جمهرة من أعاظم العلماء بحرمته، وهكذا يكون إثبات الحقّ حراماً إن كان بهذه النية، إلاّ أن يكون الردّ بهدف إثبات الحقّ نفسه، فلا خلاف في صحّته بل قد يكون واجباً عينياً.

وهنا يتبيّن أهمية العلم وكيف أنّ النوم مع علم خير من صلاة على جهل. فهذه هي من المسائل الأخلاقية. ولذا لا ينبغي أن نضع درس الأخلاق جانباً بذريعة أنه يتناول المستحبّات والمكروهات.

لقد ذكرت لأحدهم مرة، عن كتب الأخلاق، فقال لي: أنا مشغول بالفرائض. فقلت له: وكتب الأخلاق مشحونة بالفرائض.

لنزيد من أوقاتنا ولننتهز كلّ فرصة في سبيل العلم

فلنخصّص من أوقاتنا وراحتنا ومن أعمالنا الأخرى وبأقصى ما نستطيع لتعبئة أكثر في هذا المجال، و موسم الدرس مناسبة جيدة، والتسهيل من الله تعالى.

لننتهز كلّ فرصة ولا نضيّع حتى دقيقة واحدة من حياتنا؛ كأن نحمل معنا الرسالة العملية التي قرأناها في أيام شبابنا من أولها إلى آخرها. فمن الممكن أن لا نذكر كثيراً منها أو ثمّة أمور غير ملتفتين ولا منتبهين إليها. ليحمل أحدنا الرسالة العملية معه حتى إذا أُتيحت له فرصة ولو بمقدار خمس دقائق، قرأ ولو صفحة واحدة من الرسالة. حتى إذا تكرّرت معه الحالة مرات تأكّد لديه أنه كان عنده جهل مركّب في بعض المسائل، حيث كان يتصوّر أنه يعرفها مع أنه لم يكن يعرفها على الوجه الصحيح.

قصّة فيها عِبرة

نقل لي أحدهم - وقد توفّي أيضاً رحمه الله - قال: كنت ذاهباً إلى حجّ بيت الله الحرام وكان الناس يسألونني مسائل فأجيب عليها.

ثم قال: تصوّرت أنّ إجابتي لبعض المسائل صحيحة، لكنّني لم أكن مطمئناً فيها واستحييت أن لا أجيب، فأجبت ثم كتبت الإجابات على ورقة لكي أراجعها إذا رجعت من الحجّ.

يقول:عندما راجعت المسائل لاحظت أني أخطأت في اثنتي عشرة مسألة؛ كانت خلاف الإجماع، أي أنني قمت بتعليم الناس خطأً.

الوقت ضيّق

أنا وأنتم سنكون غدا - واليوم - في معرض هذه الأمور والحالات. فلنهتمّ بمسألة العلم أكثر.

إنّ عندكم الاهتمام بالعلم بحمد الله، ولكن ليزدد اهتمامكم، واعلموا أنّ العلم يعني أصول الدين وأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه وهداية الضلاّل.

فإنّ الزمان قليل حقّاً لو لاحظنا هذه الأمور. فلو أنّ أحدنا يعمّر مئة سنة فهي قليل تجاه ما يجب عليه. فكيف وأعمارنا أقصر من ذلك؟!

نسأل الله سبحانه ببركة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صاحب هذا الكلام وببركة أهل بيته الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أن يبصّرنا في هذا المجال أكثر من ذي قبل. وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين

المحاضرة ٦

العلم نور

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

ورد في الحديث الشريف: «**ليس العلم بكثرة التعلّم وإنّما هو نور يقذفه الله في قلب مَن يريد الله أن يهديه**»[1].

يتناسب حظ الإنسان في الأمور المادية مع ما يبذله من جهد غالباً؛ فالساعي وراء المال يحصل على كمية مضاعفة لو ضاعف من ساعات عمله، وهكذا مَن ينشد الزعامة أو الرئاسة فإنّ نصيبه يكون أكبر كلما أُتعب نفسه في ذلك السبيل أكثر.

أما الأمور المعنوية فالكيف فيها أهم من الكمّ، فلو أراد شخص ما أن يكون محبوباً لدى شخص آخر كعالمٍ مثلاً، وصار يطيل الجلوس عنده طمعاً في لفت انتباهه والتقرب إليه، فإنه قد يثقل بتصرفه هذا عليه، ويثير تنفّره، ويزداد بذلك بعداً عنه وهو يريد التقرب إليه؛ وما أدراك لو أنّه جلس مدة أقصر لكان أفضل.

وهذا يعني أنّ الأمور المعنوية لا تقاس بالتعب وبالكم، بل الكيفية هي المقياس فيها.

لا شكّ أنّ على طلاب العلوم الدينية أن يجدّوا ويجتهدوا ويتعبوا أنفسهم ويفرغوا طاقاتهم في سبيل العلم، حتى قيل إنّ لسان حال العلم لطالب العلم هو: «أعطني كلّك أُعطك بعضي».

بيد أنّ المطلوب هو العلم النافع، وهو العلم الذي ينتفع منه طالبه كما ينتفع

---

(١) منية المريد، ص١٦٧.

منه غيره، في الدنيا والآخرة. وهذا العلم لا يقاس بالتعب وكثرة التعليم وإن كانا مطلوبين فيه أيضاً.

■ الاعتبار من قصص العلماء

• لقد كان الشيخ محمد الملقّب بشريف العلماء أحد علمائنا الأجلاّء، عاش قبل قرن ونصف، وقيل إنّه هو أوّل مَن أسّس درس "بحث الخارج" في الحوزات العلمية الشيعية بالنحو الذي نعهده اليوم، حيث يطالع الأستاذ المجتهد القرآن الكريم والتفاسير وكتب الأحاديث والدراية والرجال وغيرها وأقوال الفقهاء المختلفة ثم يلقي استنتاجاته الشخصية - حصيلة مراجعة هذه النصوص والكتب والمعلومات - على الطلاب الذين يحضرون درسه.

ومما يزيد في إكبارنا لهذا الرجل أنّه بلغ مرتبة عالية من العلم وهو في عمر الشباب فلم يعمّر أكثر من خمس وثلاثين سنة، في حين أنّه كان يحضر درسه ألف مجتهد، وتخرّج عليه تلاميذ فطاحل يكفي أن نعرف أنّ من بينهم الشيخ مرتضى الأنصاري الذي ما زالت الدراسات الحوزوية في الفقه والأصول تدور على كتبه (رضوان الله عليهم).

وكان من تلاميذه أيضاً عالِم آخر زميل للشيخ الأنصاري وبمستواه العلمي - إن لم نقل أعلى - لا أريد أن أذكر اسمه لأنّه هو الذي يجب أن نعتبر به في هذه القصة! رغم أنّه بلغ في العلم والتحقيق درجة بحيث استخرج من رواية واحدة سبعمئة قاعدة في الفقه والأصول.

قد يُتعِب العلماء أنفسهم ويأتون بطائفة من الأحاديث والروايات وأقوال الفقهاء واستدلال بعض الآيات القرآنية حتى يستخرجوا قاعدة واحدة من القواعد الفقهية أو الأصولية الموجودة عندنا كقاعدة الاستصحاب، أو أصل الصحة، أو قاعدة التجاوز أو قاعدة الفراغ، أو البراءة أو غير ذلك؛ في حين أنّ هذا الرجل استنبط من رواية واحدة - حسب ما جاء في سيرته - سبعمئة قاعدة - وليس

مسألة - فقهية، فإنّه قد تُبنى على قاعدة واحدة المئات وربما الألوف من المسائل أحياناً.

أما الرواية التي استنبط منها سبعمئة قاعدة فهي: «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله نخامة في المسجد فمشى إليها بعرجون من عراجين ابن طاب فحكّها ثم رجع القهقرى فبنى على صلاته»[1].

وابن طاب: نوع من تمر المدينة، والعرجون عذق النخلة اليابس.

ولقد نظم السيد بحر العلوم (قدس سره) الرواية هذه في بيت من الشعر قال فيه:

ومشيُ خير الخلق بابنِ طاب   يُفتح منه أكثر الأبواب

أي أنّه يمكن الاستفادة من هذه الرواية عدة أمور؛ منها - مثلاً - أنّه يجوز للمصلي أن يمشي وهو في حال الصلاة، ومنها أنّه يجوز له أن ينحني لا بقصد الركوع لحمل شيء أو وضع شيء وتبقى صلاته صحيحة، وهكذا.

فالسيد بحر العلوم هو أستاذ الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي تلمّذ عليه شريف العلماء أستاذ الشيخ الأنصاري وزميله الذي تعنينا قصته، وهو الذي أخذ هذا المعنى من السيد بحر العلوم وتوسّع فيه وتعمّق زماناً حتى استخرج منه - على ما ذُكر - سبعمئة قاعدة في الفقه والأصول، فهل يُشكّ في علميته بعد ذلك؟!

إنّنا لم نسمع مثل هذا التعمّق حتى عن الشيخ الأنصاري وقد قرأنا الكثير عنه مع أنّهما كانا زميلين يحضران درس أستاذ واحد في وقت واحد ويجلسان معاً تحت منبر واحد. ولكن العجيب أنّ هذا العالِم وإن كان اسمه باقياً لكن علمه فُقد ولم نعرف له وجوداً بينما علوم الشيخ الأنصاري ملأت الحوزات العلمية يتلقاها الطلاب جيلاً بعد جيل!

---

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص١٩١.

وهنا مكمن العبرة. فأين التعب الذي تعبه ذلك العالِم؟ ولماذا لم يعد له عين ولا أثر. أنا شخصياً عندما قرأت ذلك في سيرة حياته بحثت كثيراً لعلّي أعثر على كتابه أو إفاداته ولكن دون جدوى.

أما الشيخ الأنصاري فحتى الكراس الصغير الذي كتبه في العدالة قد لا تجد فقيهاً لا يشير إليه عند بحثه في باب العدالة رغم صغر حجمه ومرور أكثر من مئة سنة عليه؛ مع أنّ ما كتبه في هذا المجال لم يكن كله منه، ولكن بقي مع ذلك مصدراً يشار إليه، بينما ذهب علم ذلك العالِم بذهابه هو! مع أنّه كان عبقرياً في فكره، وما أصعب أن يستنبط من الحديث المذكور آنفاً سبعمئة مسألة فكيف بسبعمئة قاعدة، و لم يبلغنا أنّ أحداً من العلماء الكبار الذين نقلوا هذا الحديث إلينا منذ ألف سنة - كالشيخ المفيد والشيخ الكليني والشيخ الطوسي والعلاّمة الحلي والمحقق الحلي والعلاّمة المجلسي (رضوان الله عليهم أجمعين) - استنبط منه سبعمئة قاعدة!

فلماذا إذن لم يبق هذا العلم وذهبت أتعاب ذلك العالِم دون أن تصل إلينا؟ إذا أردتم أن تعرفوا الجواب فسأذكر لكم قصة أخرى عنه ذُكرت في سيرته أيضاً.

● لقد كان شريف العلماء يسكن في مدينة كربلاء المقدسة - وكانت كربلاء في ذلك العصر على ما روى الشيخ المظفر (رحمه الله) تحتضن أكبر حوزة علمية للشيعة على وجه الأرض - وبعد وفاة شريف العلماء انتقلت الحوزة إلى مدينة النجف الأشرف، وكان الشيخ الأنصاري ممن هاجر إليها.

ومما يروى في حالات شريف العلماء (رضوان الله عليه) أنّه كان يستغل حتى أوقات السفر في مجال العلم، فلم تكن سفراته ترفيهية محضة بل كان إذا أراد السفر أخبر تلاميذه ليرافقه جماعة منهم يستثمرون الزمن الذي يقطعونه في السفر بالبحث والنقاش العلمي المثمر.

وكانت إحدى سفراته لزيارة الإمامين العسكريين (عليهما السلام) ومقام

الحجة المنتظر (عجل الله فرجه) في سامراء المشرفة مروراً بالإمامين الكاظمين (عليهما السلام) في بغداد. فاكترى تلاميذه الدواب والخيام استعداداً للسفر وأخذوا معهم الغذاء ثم تحركوا في مجمع علمي ومدرسة متنقلة من كربلاء المقدسة إلى الكاظمية ومنها إلى سامراء المشرفتين. وكانوا كلما نصبوا في الطريق خيامهم للاستراحة وتناول الغذاء مثلاً، طرح شريف العلماء بحثاً للمناقشة. - ففي مثل هذه الأجواء والاهتمامات نشأ الشيخ الأنصاري وأمثاله، و لم يبزغوا من فراغ - .

يقول الراوي: وعندما خيّموا في منطقة ما على طريق سامراء، وكانت الخيام متعددة وربما بلغت العشرات، وكل جماعة في خيمة، يستفيدون من وقت استراحتهم في النقاش العلمي. وبينما هم كذلك إذ احتدم النقاش بين صاحب السبعمئة استنباط من رواية واحدة وبين تلميذ آخر من تلاميذ شريف العلماء، ولكن النقاش خرج عن الطور العلمي وتحول إلى صراخ فسباب فعراك، وفرّ محاوره من خيمته وجاء ليلوذ بخيمة أستاذهم شريف العلماء، لكن صاحبنا (العالِم!) حمل عليه بالسكين وهو هناك مما حدا بالأستاذ لأن ينهره ويردعه، وعند ذلك استحيى وانسحب!

وربما لهذه الأسباب لم تعد قواعده وعلومه موجودة، أما آثار الشيخ الأنصاري فقد بقيت متلألئة وغير بالية؟!

■ أدب الشيخ الأنصاري يكشف عن إخلاصه

إذا أردتم أن تزدادوا معرفة بالأسباب التي ميزت الشيخ الأنصاري عن غيره، فانظروا إلى عباراته في ردوده على مَن لا يتّفق معه في الرأي - كما تظهر في كتبه كالمكاسب والرسائل وغيرهما - وقارنوها بعبارات الردود الأخرى التي تلاحظونها عند غيره، سواء في ذلك علماء العربية أو الفقه والأصول أو سائر العلوم.

إن الشيخ (رضوان الله عليه) يردّ بأدب بالغ وتواضع جم. فتراه رغم قناعته

التامة بصواب رأيه وخطأ الرأي المقابل، لا يستخدم ألفاظاً من قبيل: «خطأ» أو «اشتباه» أو «سوء فهم» أو «قبيح» أو ما أشبه بل يستعمل عبارات من قبيل: «هذا ما أفهمه»، أو «يرِد عليه كذا». أي يردّ على الرأي ولا يمسّ صاحبه.

• حدّثني أحد العلماء المعاصرين، قال: كنت في شبابي أحضر درس الأستاذ الفلاني - وسمّاه - لكنّي استشكلت بعد مدة وانقطعت عن الحضور. ثم إنّ الأستاذ لقيني بعد مدة وسألني عن سبب تغـيّبي، فقلت: شبهة حصلت عندي. قال: وما هي؟ قلت: لأنّكم عندما تناقشون الرأي المخالف لرأيكم تناقشونه بأسلوب يترك لدى السامع انطباعاً أنّ صاحب ذلك الرأي رجل عادي وليس عالِماً أصلاً، أي يخلق عنده تشكيكاً بعلميته؛ حتى لو كان الشيخ الطوسي أو الشيخ المفيد أو العلاّمة الحلي أو الشيخ الأنصاري رحمهم الله. فخشيت أن يتزلزل اعتقادي بعلم كل العلماء ولذلك انسحبت وتخلّيت عن الحضور في مجلس درسك.

ثم أضاف ذلك العالم الذي حدثني بهذه القضية: كنا نحضر درس آية الله البروجردي (رضوان الله عليه)، فكان إذا أراد أن يرد علَماً قال: لا أدري هل هذا ما يقصده الشيخ الفلاني - مثلاً - من عبارته، أو: لعلّ عبارة الشيخ قاصرة عن إفادة مطلبه، أو: لعلّي غير ملتفت لأبعاد رأيه.. وهكذا. فكان يعظّمه في نظرنا أوّلاً ثم يبين لنا رأيه المخالف بعبارات من قبيل: يبدو لي كذا أو أرى أنّ الصحيح كذا والعلم عند الله.

فكنّا ننفضّ من مجلس آية الله البروجردي معتنقين بأنّ رأيه هو الصحيح، دون أن تتزعزع مكانة العلماء الآخرين العلمية في أنظارنا.

فما أكثر القصص في هذا المجال! وما أكثر العِبَر! ولكن المهم أن نعتبر ولو بقصة واحدة.

تبلور مما تقدم: أنّ على طالب العلم أن يتعب نفسه قدر الإمكان في سبيل الدراسة والعلم، ولا يكون كسولاً أو خاملاً بل يعبّئ كل طاقاته، ولكن يجب عليه

-مع ذلك - أن لا يغفل أنّ الذي يعطي قيمة لهذه الأتعاب وللعلم هو أن ينظر الله إليه بعين رعايته، فمن دون هذه النظرة لا فائدة من كثرة التعلّم. ولا نعني بهذا ترك الدراسة، بل نعني أنّ الدراسة وحدها غير كافية بل هي إحدى الأعمدة لعلم الإنسان، أما العمود الآخر فهو نظرة الله إلينا.

■ قبس من سيرة العلمين الأنصاري والشوشتري

• كان السيد على الشوشتري - من تلاميذ الشيخ الأنصاري - وكان يلقي محاضرة أخلاقية أسبوعياً، فكان الشيخ الأنصاري يحضر درسه الأخلاقي! فما أعظم تواضع الشيخ الأنصاري! ابحثوا في كل التاريخ هل تجدون مثل هذا الأدب ومثل هذا النكران للذات؟ ولو وُجدت حالة مشابهة فتظل مع ذلك من الحالات النادرة؛ ذلك أنّ الشيخ الأنصاري كان مرجعاً عاماً للشيعة ومع ذلك كان يحضر درس الأخلاق لدى تلميذه السيد الشوشتري. وذلك يدلّ على أنّه وضع «الأنا» جانباً، ونفهم من خلاله أنّ الشيخ الأنصاري لم يصبح على ما هو حتى عُرف بالشيخ الأعظم، اعتباطاً ولا صار كذلك بعلمه فقط، بل بالتسديد الذي كان يأتيه من الملأ الأعلى.

وينقل التاريخ أنه حلّ وباء (الكوليرا) يوماً بمدينة النجف الأشرف، وكان مَن يُبتلى به يموت عادة. وبعد أن أنهى الشيخ الأنصاري درسه في أحد الأيام قيل له إن السيد علي الشوشتري قد ابتلي بالوباء، فعزم مع بعض تلاميذه على زيارته وعيادته. وعندما استقرّ بهم المقام عند السيد الشوشتري - وكان أستاذاً أخلاقياً ألزم الشيخ الأنصاري نفسه بحضور درسه مع أنّه كان أستاذه في الفقه ومرجع عصره كما أسلفنا - التفت السيد الشوشتري للشيخ الأنصاري وقال له: إنّي ميّت اليوم أو غداً ولي عندك رجاء وطلب وهو أن تتولى أنت الصلاة على جنازتي إذا أنا متُّ.

حاول الشيخ أن يطمْئن السيد ويطيّب خاطره فقال له: لا تقل ذلك سيدنا، ستشفى إن شاء الله وتعود للدرس فنحضر درسك ثانية.

ولكن السيد عاد إلى طلبه وقال للشيخ: لا تبتعد عن الموضوع، إنّ هذه وصيتي لك وأطلب منك تنفيذها.

(توجد مسألة في باب الوصية تجدونها في كتب الفقه مثل كتاب ((شرائع الإسلام)) و((شرح اللمعة)) وغيرهما.. وهي أنّه لو أوصى شخص لآخر بوصية و لم يردّها في حياته فهو ملزم بتنفيذها - على المشهور - . وهذا من لطف الله تعالى بالأموات).

لم يقبل الشيخ الأنصاري بالوصية وظل يراوح يميناً وشمالاً، لا يقول نعم ولا يقول: لا، بل يؤمّله ويدعو له ويقول ملاطفاً: ليس كل مَن يُبتلى بالكوليرا يموت حتماً.. ولكن السيد الشوشتري كان يصرّ على الشيخ و لم يتخلّ عن طلبه.

حقاً عندما ينظر المرء إلى هذين العظيمين ثم ينظر إلى نفسه، يدرك لماذا لم يفض الله عليه مثل ما أفاض عليهما.

لقد كان الشيخ الأنصاري يصلّي - في العادة - على الأموات، فما الذي يمنعه من استجابة طلب السيد الشوشتري رحمه الله؟

عندما أصرّ السيد الشوشتري قال الشيخ الأنصاري (رحمه الله) في جوابه: سيدنا! لقد سألتُ الله تعالى أن تكون أنت الذي تصلّي على جنازتي، واستجاب الله دعائي.

لا غرابة في دعاء الشيخ الأنصاري وأن يسأل من الله تعالى ما سأل، فهذا أمر مفهوم بالنسبة لنا، ولكن المثير للتأمل هو قوله: «واستجاب الله دعائي»؛ فكيف عرف (رحمه الله) بذلك؟!

ومن الواضح أنّ هذا لا يحصل بالتعب وصرف مزيد من الوقت، ولا يأتي نتيجة الدراسة وحدها مهما بلغت! بل يحتاج إلى قلع كلمة «أنا» من النفس وأن

يحاول الإنسان أن يصلح نيّته، وأن لا يكون باعثُه - حقاً - من العمل والسعي أن ينشر اسمه يوماً ما في الصحف أو يتناقل على الألسن، أو تُجبى إليه الأموال أو تُقبَّل يداه ويقوم له الناس إذا حلّ وارتحل. فإن خطر إلى ذهنه شيء من ذلك القبيل أنّب نفسه وعاد إلى ربه.

■ إنّ الناقد بصير بصير

قد ننجح في غشّ من لا يعرف نوايانا وما يدور في أذهاننا، ولكن هيهات أن نغشَّ الله تعالى.

وإذا كنّا نتعامل فيما بيننا حسب قناعتنا الشخصية فلا نساوي بين مَن يخلص إلينا ومَن يغشّنا، فلماذا نستكثر على الله تعالى أن يعاملنا كذلك؟!

فمثلاً: لو أقسمتُ لك ألف يمين على أنّي مخلص لك ولكنّك لم تكن مقتنعاً بصدقي لما ترى من سلوكي أو ما تخبره من نواياي، أفتعاملني معاملة مَن تعتقد إخلاصه؟ كلاّ أبداً! قد تتظاهر معي وتجاملني وتعاملني بالمثل، ولكنّك في المنعطفات والمواقع الحساسة تعاملني حسب قناعتك، فإن كنت شاكّاً بي، فإنّك لا تودعني أسرارك. ولو سألتك عن السبب فستحوّل مجرى الكلام بل قد تنفي وجود سرّ عندك، بينما الحقيقة هي أنّك لا تثق بي.

فإذا كانت هذه موازيننا في تعامل بعضنا مع بعض ونرى أنّها حق، فلماذا لا نعطي الله الحق نفسه فنتوقع أن يعاملنا معاملة المخلصين ونحن لم نخلص له في نوايانا؟! لا شكّ أنّ الله لا يساوي بين الخائن والمخلص، فهل يستوي مَن يعمل وهدفه منافع دنيوية -أعم من أن تكون مالاً أو شهرة وسمعة أو شيئاً آخر- ومَن يكون عمله خالصاً لله وحده، ولا يفكّر في ذاته وذاتياته؟

وإذا كان العلم نوراً - كما ورد في الحديث - فلماذا لا يقذفه الله في قلوب العباد كافة، مع أنّ الله سبحانه وتعالى لا تُنقصه النفقة ليكون بخيلاً حاشاه؟! إنّ آياً

منا إذا أنفق، نقص منه شيء لا محالة، حتى لو أنّه بذل نصف ساعة من الوقت في تدريس أو محاضرة فإنّ ذلك يعني نقصان نصف ساعة من عمره، وكذا لو أعطى مالاً مهما صغرت قيمته فإنّه يعني نقصان أمواله بذلك القدر، أما الله سبحانه وتعالى فلا ينقص من ملكه شيء مهما أعطى. إذن لماذا لا يقذف نور العلم في قلوب كل عباده؟ نقول في الجواب: لأنّ «الناقد (أي الذي يتولى النقد) بصير» أي يميّز بين المخلص وغيره، فيعطي مَن يخلص له ما لا يعطي غيره. و«البصير» صيغة مبالغة لأنّه على وزن «فعيل» - كما في ألفية ابن مالك:

فعال أو مفعال أو فعول ... في كثرة عن فاعل بديل

فيستحق ما له من عمل ... وفي فعيل قل ذا وفعل

ومع ذلك وردت الكلمة مكررة زيادة في التوكيد والمبالغة. فكيف نغفل عن هذه الحقائق ونتصوّر أنّا نخدع الله عندما نتظاهر بأنّ أعمالنا لله، وما هي لله، مع أنّنا نخدع أنفسنا في الواقع؟!

ومن هنا نفهم لماذا انتشرت كتب الشيخ الأنصاري وخلد اسمه بها، ولماذا قال للسيد الشوشتري: إنّ الله استجاب دعائي، ولا نفهم الطريقة التي أدرك بواسطتها الشيخ الأنصاري أنّ الله استجاب دعاءه.

وكان ما قاله الشيخ الأنصاري حقاً وصدقاً، فقد شفى الله السيد الشوشتري وتحسنت حالته وعاد إلى الدرس والتدريس فحضر الشيخ الأنصاري محاضراته الأخلاقية، ودرس هو عند الشيخ الأنصاري الذي توفي بعد مدة وصلى السيد على جنازته كما أخبر — قدس سره -.

فهل لله تعالى صداقة تربطه مع بعض عباده كالشيخ الأنصاري ليميّزه هكذا اعتباطاً؟ أم أنّ الشيخ الأنصاري - وهذا هو الصحيح - أخلص لله تعالى فكافأه الله كذلك؟ وبتعبير آخر: إنّ الشيخ الأنصاري عرف الطريق المؤدّي إلى الله تعالى

وسلكه، وذلك هو طريق الإخلاص، المقترن بنكران الذات والتخلي عن الأنا والأنانية. وكل مَن أراد أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ الأنصاري فعليه أن يسلك الطريق نفسه. كما أنّ مَن يريد كسب المال ينظر إلى الناجحين في هذا المضمار فيذهب إلى السوق ويبيع ويشتري ويتعب نفسه في هذا الطريق يصل إلى مقصوده، أو مَن يريد أن يكون مدرّساً ناجحاً أو طبيباً حاذقاً أو خطيباً مفوّهاً وهكذا في كلّ شؤون الحياة يقتفي أثر الناجحين في ذلك المضمار ويسلك طريقهم يصل إلى ما وصلوا إليه.

وهكذا مَن أراد أن يكون مستجاب الدعوة ويعرف ذلك من نفسه فليحذ حذو من هو كالشيخ الأنصاري فيقرأ سيرته ويطبّقه على نفسه، فهو أنموذج ناجح في هذا المجال.

■ بندان في حياة الشيخ الأنصاري

وحياة الشيخ الأنصاري - كما تظهر لمن تتبعها - فيها بندان؛ البند الأوّل: العلم، والبند الثاني الصدق مع الله، المتمثّل بصدق الفطرة وصدق الوجدان وصدق القلب وصدق النية.

فما أدرانا - والله تعالى أعلم - بعدد الدعوات التي دعا بها الشيخ الأنصاري وعلِمَ من الله استجابتها، ولكن الشيخ الأنصاري لم يصرّح بها، بل لولا اضطراره في المورد المذكور آنفاً لما ذكر ذلك أيضاً، ولكن إصرار السيد الشوشتري وهو في حالة خاصة ألجأت الشيخ الأنصاري للتصريح بهذه الحقيقة.

أما لماذا لم يخبر الله عامة الناس في حال استجابته دعوهم كما أخبر الشيخ الأنصاري؟ فلعله لو أنّ شخصاً من أمثالنا كان يعلم بحادثة - وعن طريق الغيب - ستقع في المستقبل لما استطاع الكتمان بل من المرجّح أنّه كان سيجعل من الأمر سوقاً رائجة لنفسه، فلا يدع أحداً إلاّ وأخبره، طمعاً في اشتهاره بين الناس، بينما

لا يكترث مثل الشيخ الأنصاري إن عرفه الناس أم لم يعرفوه، فلا تزيده معرفة مَن عرفه شيئاً ولا ينقصه جهل مَن جهله.

هذا البند - الثاني- في حياة الشيخ الأنصاري هو الذي كان مفقوداً في حياة زميله ذي السبعمئة قاعدة؛ فضاع تعبه وأثره وبقيت آثار الشيخ الأنصاري بحيث لا تجد كتاباً في الفقه والأصول إلاّ وفيه ذكر للشيخ الأنصاري، ولا تحضر درس خارج في الفقه والأصول لدى أيّ أستاذ إلاّ وتسمع فيه اسم الشيخ الأنصاري يُذكر مقروناً بالعظمة والتقدير.

وهذا البند (الثاني) لا يدرس في كتاب خاص، فإنّ للفقه والأصول والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والفلسفة كتباً خاصة، أما هذا البند فلا حاجة فيه إلى الكتب وإنّما يتلخص في شيء واحد وهو التخلص من هذه الأحرف الثلاثة المتمثلة بـــ«أنا» وهذا أمر لا يخلو من صعوبة ولكنه في الوقت نفسه ممكن التطبيق، ولا يعني ذلك أن تذلّ نفسك كأن تستعطي في حياتك أو تريق ماء وجهك عند هذا وذاك، فالشيخ الأنصاري لم يكن كذلك، بل المطلوب أن تشعر قلبك أنّك محتاج إلى الله دوماً وأنّ الآخرين غير قادرين على أن ينفعوك بشيء لم يرده الله، ولا أن يضرّوك إلاّ بإذن الله، فتقطع أملك عما سوى الله، وبعدها لا تعود تفكّر في نيل الحظوة عند الناس، وأن تحذر من الشيطان دوماً فإنّك قد تريد الخلاص من هاوية فيرديك في هاوية أخرى، فمثلاً تريد أن تتواضع وتتخلى عن الكبر فإذا به يوقعك في الذل والهوان.

كلاّ ليس المقصود من التخلي عن «الأنا» التذلل للناس، كما ليس المقصود التكبّر عليهم، بل أن لا يكون عملك لذاتك وإنّما يكون لله وحده. فلو أصبحت مدرّساً أو خطيباً أو إمام جماعة في يوم من الأيام، تضع «الأنا» جانباً حقاً، لا أن تتظاهر بذلك وقلبك ممتلئ تكبّراً ويغمرك حب الظهور من أم رأسك إلى أخمص قدمك!

■ نموذج آخر

يحكى أنّ أحد العلماء الزهاد سافر إلى بلد ما، وكان معروفاً فطلب منه أهل ذلك البلد أن يؤمّهم في الجماعة طيلة المدة التي يقيم عندهم، فلبى طلبهم وذهب ليصلي في المكان المقرر، وكان المصلّى بعيداً عن بيته وكان الناس يركبون الدواب في تلك الأيام فاستقل دابته واتّجه لأداء الصلاة، ولكن الدابة عثرت به وسط الطريق فسقط وشجّ رأسه. فعادوا به إلى البيت، وجبّروا رأسه وضمّدوه ومكث في البيت مدة لا يستطيع الخروج فيؤم المصلين.

وبلغه خلال هذه المدة أنّ المنافسين والحساد الذين كانوا مترعجين وضائقين أن يكون هو الإمام أشاعوا بين الناس أنّ الشيخ قد جُنّ على أثر الضربة التي أصابت رأسه عندما عثرت به الدابة!

وكان هذا الخبر مؤلماً بالنسبه إليه. وكيف لا يكون كذلك؟ فلعل بعضنا لا يتألم عند سماع قصة إنسان آخر، ولكن هذه البلية لو حلّت به فربما تألّم أكثر من ذلك الرجل العالم. تصوّر نفسك بعد خمسين سنة من التعب والدراسة وعناء الاستقامة ثم يقال عنك إنّك مجنون وتنطلي التهمة على كثير من الناس لأنّ بعض الحدث صحيح كالسقوط وشجّ الرأس ثم عدم الحضور للصلاة، يضاف إليه ميل الناس للتصديق بكل ما هو مريب. فإن سكتّ قالوا: هذا دليل جنونه وإن تكلّمت قالوا: ألا ترى أنّه يتكلم كثيراً، فهذا من علامات الجنون.

وتماثل الشيخ للشفاء فعاده بعض أصدقائه وعرضوا عليه أن يعود ويلبّي طلبهم في إمامة الصلاة وطمأنوه أنّ الإشاعة لم تؤثّر في الناس، واستجاب الشيخ وركب دابته متّجهاً إلى المقصد فرأى الناس مجتمعين بأعداد غفيرة على جانبي الطريق لاستقباله. فتوقف عن المسير قليلاً ثم طلب من مرافقيه أن يسمحوا له بالعودة إلى بيته لأنّه انصرف عن عزمه في إمامة المصلّين. ولم تنفع معه توسلات

المتوسلين ودعواهم من أنّ الناس ينتظرونه ولا يصحّ منه التراجع، واكتفى بالقول إنّ حاله ليس على ما يرام وإنّه لا يستطيع الاستجابة.

وبعد أن عاد إلى البيت جاءه بعض أصدقائه المقرّبين وطلبوا منه معرفة السبب الذي دعاه للانصراف عن الذهاب لإمامة الجماعة، وأصرّوا عليه في ذلك إلى أن قال في جوابهم: عندما خرجت من البيت متجهاً للصلاة ورأيت الألوف من الناس بانتظاري قلت مع نفسي (أي خطر لي هذا الخاطر): أين أولئك الذين أشاعوا أنّني صرت مجنوناً فليأتوا ويروا بأمّ أعينهم كيف أنّ الجماهير لم تصدّق بأكاذيبهم و لم تؤثّر فيها إشاعاتهم وها هي تستقبلني بالألوف.

يقول الشيخ: وانتبهتُ فجأة وخاطبتُ نفسي قائلاً: يا شيخ! هل أنت تصلّي لله أم للناس؟! وقرّرت أن لا أحضر تلك الصلاة.

إنّ ما نعنيه من نكران الذات والإخلاص لله هو الانتباه لمثل هذه الحالات، فإنّ هذا الشيخ رفض أن يؤمّ المصلّين الذين كانوا بانتظاره لمجرّد أنّ خاطراً خطر إلى ذهنه وكان هذا الخاطر شيطانياً، فحاربه لأنّه كان يدرك أنّ هذا هو الذي يهدم كل ما بناه.

■ علم لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلاّ بعداً

ومن هنا نفهم قول الإمام السجاد (عليه السلام): «إنّ العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلاّ بعداً»[1]. فإن كان العلم موجوداً - وهو نتيجة أتعاب خمسين سنة أو أكثر - ولكنّه كان من دون عمل فإنّ هذا العلم يكون وبالاً على صاحبه. ولا نعني بالعمل أداء المستحبات -فضلاً عن الواجبات- كصلاة الليل وزيارة المعصوم (عليه السلام) وإن كانت مطلوبة أيضاً، وإنّما المقصود اتّخاذ الموقف

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٣١٩.

الصحيح المستند إلى العلم، كما في المثال المذكور آنفاً [وإلاّ لو خلينا والفهم السطحي للحديث فإنّ ذلك الشيخ يكون تاركاً للعمل المستحب وهو إمامة صلاة الجماعة، ولكن الحقيقة إنه كان يعرف أنّ في عدم الذهاب محاربة لنفسه وعدم الاستجابة لخواطرها الشيطانية.. وهذا هو المقصود بالعمل في قول الإمام عليه السلام: العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه من الله إلاّ بعداً]. فكن أنت الحكم على نفسك - وكل إنسان على نفسه بصيرة - وفكّر بعقلك واستنبط الموقف الصحيح وحاول أن تطبّقه على نفسك، على قدر تشخيصك ووسعك «لا يكلّف الله نفساً إلاّ ما آتاها»[1]. فإنّ الله لم يرد من الشيخ الأنصاري مثلاً إلاّ بالمقدار الذي كان يشعر به الشيخ الأنصاري ويتوصل إليه، وكذلك لا يريد منك إلاّ بالمقدار الذي تتوصل إليه، إنما المهم أن تطبقه على نفسك متحرياً الإخلاص في كل حال وأن لا يكون همك الناس وكل ما سوى الله، وأن تعلم بعد ذلك «أنّ الله يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالِم ذنباً واحداً»[2]. ولا يقصد بالعالِم أن يكون مرجعاً للتقليد بل كل منّا مشمول بهذا الحديث على قدره.

■ الخلاصة

فيا أيها الإخوة لقد ترك كل منكم وراءه العشرات بل المئات من القضايا والاحتياجات المالية والعائلية والاجتماعية وغيرها، وغض النظر عن أمور مختلفة.. كل ذلك في سبيل العلم. ونِعم ما تفعلون! وأبارك لكم هذا التوفيق، وحقاً إنّه لتوفيق عظيم. فما أكثر الناس المحرومين من هذا التوفيق الذي وفّقكم الله له.. ولكن حاولوا أن تستفيدوا من هذا العناء وهذه التضحيات واعلموا أنّ ذلك لا

---

(١) سورة التحريم: ٧.

(٢) سعد السعود، علي بن طاووس الحلي، ص٧٨.

يتأتّى عن طريق العلم وحده، فليس بالعلم الاكتسابي فقط تنال الدرجات، بل العلم الحقيقي هو ذلك النور الذي يقذفه الله في قلب من أراد الله أن يهديه.

المطلوب أن لا تستعظم نفسك إذا ازددت علماً، بل تكون أنت أنت في اليوم الذي تدرس فيه كتاب السيوطي أو جامع المقدمات، وتكون أنت أنت في اليوم الذي تصبح فيه مرجعاً للتقليد أو مدرّساً كبيراً في الحوزة.

قد نكون أذكياء ولا ندع أحداً من الناس يعلم أنّنا متكبّرون في نفوسنا، مع أنّا نعلم ذلك من أنفسنا لو كان، والله أعلم بما في نفوسنا، وكما ورد في الحديث "إنّ الناقد بصير بصير" وإنّه سيكافئ كلاً منّا على قدر إخلاصه كما يثبت عند الله وليس كما يدّعيه الشخص، ولذلك أعطى الله للشيخ الأنصاري ما اضطرّ إلى التصريح ببعضه مرّة - في قصة السيد علي الشوشتري كما تقدّم - فهل نكون كذلك أم يُخشى أن نصاب بالغرور ولا نعود نتذكر الله تعالى لو أُعطينا بعض ما أُعطي الشيخ الأنصاري، فلا ندرس ولا ندرّس ولا نمشي مع الناس ونتصوّر أنّنا ينبغي أن نكون أعلى من سائر الناس، والعياذ بالله!

نسأل الله السداد.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

المحاضرة ٧

كيف نذلل المشكلات في طريق طلب العلم

«نصائح لطلاب العلوم الدينية»

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[1].

▪ مقدمة

قيل: «لكل شيء آفة وللعلم آفات» وهذا القول يؤيده الاعتبار ، أي أنّه صحيح خارجاً. فإنّنا نلاحظ في الواقع الخارجي أنّ أكثر من ٦٠٪ ممّن بدأوا طريق العلم والدراسة بإصرار وصدق وإيمان لم يواصلوا الشوط حتى نهايته، وإنّ أقل من ٤٠٪ هم الذين استطاعوا التغلّب على المشكلات الكثيرة الموجودة في طريق طلب العلم.

لقد كانت المشكلات في هذا الطريق كثيرة، ولا تزال كذلك، بل إنّها اليوم أكثر مما مضى. فأكبر مشكلة في السابق كانت تتلخّص بعدم وجود الكتاب، وكون الكتب مخطوطة. فكان طالب العلم الذي يريد أن يقتني كتاباً كالشرائع مثلاً، أمام أحد خيارات؛ إما أن يستعير نسخة خطية أو مستنسخة ثم يقوم بنسخها من أوّل الكتاب إلى آخره؛ أو أن يدفع ثمناً باهضاً لشراء نسخة من الكتاب، وهذا لم يكن ميسوراً لأكثر الطلاّب ، فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ تسعين بالمئة منهم لم يكونوا قادرين على توفير هذا الثمن؛ أو أن يجد مَن يتبرع له بثمن الكتاب، وهذا أصعب الخيارات وأندرها تحققاً.

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

أما اليوم فبإمكان كل طلبة العلوم الدينية اقتناء نسخة من الكتاب الذي يرغبون وبأثمان يستطيع أغلبهم دفعها. إذن يمكن القول: إنّ مشكلة صعوبة الحصول على الكتاب لم تعد اليوم موجودة.

ومن المشاكل التي كانت موجودة في السابق وقد قلّت اليوم إلى درجة كبيرة هو الحصول على مدرّس. أما اليوم فقد زالت هذه الصعوبة إلى حدٍّ كبير وخاصة في الحواضر العلمية التي نعيش فيها.

أجل هناك مشكلات استجدّت و لم تكن في السابق؛ ومنها مثلاً كثرة العطل. فلم تكن بهذه الكثرة، و لم تتجاوز - على ما أتذكر - الحالات الثلاث الآتية: شهر رمضان كله، وثلاثة عشر يوماً الأولى من شهر محرم، ووفيات ومواليد المعصومين عليهم الصلاة والسلام [والعيدين]. و لم تكن عندنا عطلة صيفية ولا عطلة أخرى غيرها. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ بعض وفيات ومواليد المعصومين كانت تقع في أيام الجمع ما عدا تلك التي تقع في أيام شهر رمضان فإنّ مجموع الأيام التي كنا نعطّل فيها الدرس لم تزد على الشهرين في السنة. مع أنّنا كنا نستغلّ حتى أيام العطل في تلقي دروسٍ خارج المنهج الحوزوي المقرر كدروس الأخلاق والتفسير ونهج البلاغة والعقائد والرياضيات و الهيئة والخطابة والكتابة، و لم تكن حتى ليالي الجمع وأيامها مستثناة من ذلك.

وبتعبير آخر: لقد عبّأنا كل طاقاتنا و لم يصل أغلبنا إلى الغاية المرجوة، فكيف بالوضع اليوم، حيث قد نقل لي أحد المدرّسين أنّه أحصى كل الأيام التي درّس فيها خلال إحدى السنوات الأخيرة فوجدها لا تزيد على التسعين!

فإذا كانت المشكلات في طريق طالب العلم كثيرة، وكان طالب العلم لا يريد صرف عمره هكذا عبثاً ثم يكتشف بعد مرور ثلاثين سنة أو ربما خمسين سنة أنّه لم يصل إلى شيء و لم يحصل على نتيجة، فما هو الحل العملي للتغلب على هذه الصعاب؟

الحل الجذري يتمثّل بالآية الكريمة: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب». والمقصود بذكر الله تعالى في الآية - كما قال المفسّرون - الذكر اللساني والقلبي معاً. والمقصود بالذكر القلبي التوجّه إلى الله تعالى، فإنّ الممارسات العبادية التي نؤديها لله تعالى لا ينبغي أن تكون طقوساً جامدة لا روح فيها بل علينا أن نتفاعل معها، ونشعر من خلالها أنّنا نقف بين يدي الله تعالى ونتعامل معه.

صحيح أنّ الواجب يسقط بالامتثال وفق الشروط المذكورة في كتب الفقهاء، حتى مع عدم حضور الذهن والتفاعل القلبي، وأنّه لا تجب الإعادة على الشخص الذي أدّى صلاته - وهكذا سائر عباداته كالصيام مثلاً - بصورة صحيحة من حيث الأحكام، وإن كان مشغول الفكر عنها من أوّلها إلى آخرها؛ تخفيفاً من الله عزّ وجلّ على عباده، ولكن النتيجة المطلوبة من العبادة لا تحصل، ولهذا فهي لا تسجّل له صلاة - وكذا سائر العبادات، كما في مستفيض الأحاديث -.

أي إنّ مَن اكتفى بأداء العبادة كطقس وعادة دون توجّه القلب لله، لا يحصل على نتيجة لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل قد يصبح عمله هذا وبالاً عليه كما ورد في بعض الأحاديث.

▪ التغيير ممكن

كان الشيخ علي القمي أحد العلماء المعروفين في العراق، يمر اليوم على وفاته زهاء نصف قرن ولا يزال أولاده موجودين بعضهم في قم وبعض في شمال إيران، ولقد رأيت شخصياً بعضهم.

نُقل أنّ الشيخ على القمي (رحمه الله) عندما أراد الزواج يوم كان شاباً طلب نوعاً من القماش الفاخر الذي كان الشباب المتأنق في تلك الأيام يخيطون منه بدلة الزواج، [ولنقل: إنّه كان قماش الموضة أو الموسم] وكان هذا القماش يستورد من الشام. و حيث إنّ طلبة العلوم الدينية كانوا أكثر تواضعاً ووقاراً في زيهم وملبسهم

من سائر الشباب، إذ ينبغي أن يكونوا قدوة للآخرين، حاول بعض زملاء الشيخ أن يثنوه عن هذا المطلب. ولكنّه كان مصرّاً لدرجة أنّه أجّل زواجه عدة أشهر لأنّ ذلك القماش كان مفقوداً آنذاك في الأسواق.

وما يثير العجب أكثر أنّ هذا لم يكن حال كل الشباب آنذاك فما كان يهتم بمثل هذه المظاهر إلاّ المنهمك في الدنيا. ولا نقول: إنّه كان حراماً ولكنّه كان يعبّر عن اهتمام زائد بالدنيا، وربما كان لماعاً أو ما أشبه مما لا يناسب طالب العلم الديني (الروحاني)، ولذلك كان زملاؤه يحاولون ثنيه، ولكنه كان يجيبهم بالقول: مادام غير محرّم فهو زينة والله يقول: «قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده»[1]. وصار يوصي المسافرين إلى المدن الأخرى في العراق ككربلاء والحلة وبغداد بالبحث في أسواقها ولكن بحثهم كان دون جدوى، حتىّ اتّفق أنّ بعض أصدقائه نوى السفر إلى الشام وبعد عودته جلب له من ذلك القماش، ثم تزوّج بعد ذلك!

لقد ذكرت لكم هذه القصة لتعرفوا أنّ التغيير ممكن. فإنّ هذا الشيخ نفسه الذي كان هذا مستوى اهتمامه في شبابه، تحوّل تحوّلاً عجيباً حتى صار مضرب المثل في الزهد والتقوى في عامة العراق وإيران رغم وجود العشرات بل المئات من الزهاد والمتقين في ذلك الزمان! فلقد سمعت قصصاً عن الشيخ علي القمي (رحمه الله) أكتفي هنا بنقل اثنتين منها:

يقول والدي (رحمه الله): إنّه كان في النجف الأشرف يومذاك تسعون رسالة عملية، وهذا يعني أنّ المجتهدين كانوا بالمئات، لأنّ الذين عندهم رسائل عملية لا يشكّلون في العادة عشرة بالمئة من كل المجتهدين. فهكذا كان وضع النجف وحوزتها، غير قم وكربلاء وخراسان!

ولا أعلم اليوم بوجود تسعين رسالة عملية على وجه الكرة الأرضية كلها!

---

(١) سورة الأعراف: ٣٢.

يقول الوالد: إنّه بالرغم من وجود العشرات من المراجع في النجف الأشرف في ذلك اليوم، وبالرغم من وجود المئات من أئمة الجماعة من المتّقين والزهاد، كان أغلب الناس - والعلماء أيضاً - لا يطمئنون إلاّ بالصلاة خلف الشيخ علي القمي، لأنّه كان مسلّم العدالة عند الكل.

وبتعبير أدق: لو كان بعض الناس يصلّون خلف فلان من العلماء ولكنّهم يستشكلون بالصلاة خلف عالِم آخر، وكانت فئة أخرى تصلّي خلف الثاني وتستشكل بالصلاة خلف الأوّل، فإنّهم جميعاً كانوا يتّفقون على عدالة الشيخ علي القمي ويطمئنون بالائتمام به. فما أعظم التحوّل الذي حدث في حياة الشيخ علي القمي حتى بلغ هذه الدرجة، بعد أن كان على ما سمعتم في شبابه!

أما القصة الأخرى من القصص التي تروى عن الشيخ علي القمي (رحمه الله)، فهي أنّه أُصيب في أخريات عمره بمرض حصر البول، وهو مرض مؤلم جداً وقد لازمه هذا المرض - كما ذكر لي بعض أبنائه - زهاء عشر سنوات حتى توفي (رحمه الله). يقول ولده: طيلة المدة التي كنت معه لم أسمع منه كلمة آه، كان إذا اشتدّ به الألم قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، أي أنّه كان ينفّس عن نفسه بذكر الله. كان يأسى أن يصرف هذه الثواني من عمره في قول كلمة آه، بل كان بدلاً من ذلك يُصدر تألمه بقول لا إله إلاّ الله، سبحان الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

إنّ الإنسان إذا تألّم لا يمكنه إلاّ أن يقول: آه، ولكن إذا ربّى نفسه تمكّن أن لا يقولها بل يقول بدلاً منها: لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

لا شكّ أنّ التأوّه بنفسه ليس مذموماً بل لقد ورد في الأحاديث أنّ المريض إذا تأوّه كتب له الثواب، ولكن لا شكّ أيضاً أنّ قول: لا إله إلاّ الله أكثر ثواباً! إذن لا ينبغي أن ننهى مريضاً من التأوّه، ولكن المطلوب منا أن نربّي أنفسنا بحيث نقدس الله ونحمده ونسبّحه ونكبّره بدلاً من ذلك.

وما نخلص إليه من حالات الشيخ علي القمي (رحمه الله) أنّه استطاع أن يغيّر نفسه حتى تحوّل ذلك التحوّل الذي جعل منه قدوة لنا في عدالته وفي ذكره لله عزّ وجلّ.

▪ الخطوات العملية

١. تقوية الرابطة مع الله

فلنحاول من الآن إذاً أن ننفخ بعض الروح في ممارساتنا العبادية شيئاً فشيئاً، وذلك بأن نلتفت إلى معاني عباداتنا، فمثلاً إذا وقفتَ بين يدي الله في الصلاة، وشرعت بقراءة سورة الفاتحة، فكّر في معاني مفردات السورة واستحضر مفهوماتها، ولا تدع فكرك يهرب هنا وهناك، ولو حصل ذلك عُد به سريعاً ولا تدعه يسرح، ولا تيأس حتى لو شرد ذهنك خمسين مرة، بل أرجعه حتى يصبح حضور الذهن مَلَكة عندك، فتعرف ما تقول وتلقّن نفسك معانيه، فإذا قلت: "إياك نعبد" استحضرت في ذهنك أنّ العبادة لله وحده وأنّك في حال أدائها، وإذا قلت: "وإياك نستعين" جدّدت استعانتك به في كل أمورك وبخاصة في عبادتك.

ولا شكّ أنّ العربي يفهم معاني هذه الكلمات أفضل من غيره، فهي بلغته وعنده انطباع عنها، فكيف إذا كان من طلاّب العلوم الدينية وقد قرأ الألفية وشروحها وجامع المقدمات؟!

فهذا هو الأساس «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، والتوفيق من الله تعالى. وأنتم بحمد الله تعلمون أنّ العلم ليس بكثرة التعلّم بل نور يقذفه الله في قلب مَن يشاء - كما في النبوي الشريف -. فبمقدار ما تقوّي الرابطة بينك وبين الله تعالى يأتيك التوفيق بنفس النسبة.

٢. أصلِح ما بينك وبين الناس

تناولنا في النقطة الأولى تقوية الرابطة مع الله وذكر الله على كل حال، أما في هذه النقطة فالمطلوب تقوية العلاقة مع المجتمع؛ وذلك عن طريق الالتزام بالأخلاق

الإسلامية كالتواضع والوقار والبِشر والكرم والعفو والرحمة وصلة الرحم.

هذه الأخلاق تعرفونها لأنّكم أهل علم وهي موجودة فيكم - والحمد لله - بنسب متفاوتة، ولكن المطلوب تعميقها وترسيخها والاستزادة منها. فمثلاً حاوِل أن تخالف هواك في كل الأمور، فإن كنت لا ترغب في أمر رغم اعتقادك بصوابه، حاوِل أن تخضع له بكل رحابة صدر، وإن كنت مختانماً مع صديقك وواجداً عليه، حاول أن تصله بزيارته أو بإلقاء التحية عليه كلما لقيته. هب أنّه قد لا يردّ جوابك ولكن أدِّ أنت ما عليك فإنّك إذا كنت تريد أن تصبح عالِماً ومرشداً ينبغي أن تكون قدوة في الخُلق والحلم وكظم الغيظ، لا أن تثور بسرعة أو تتوتر أعصابك لأتفه الأسباب.

تصرّف أنت بالنحو الصحيح واستفد من حياتك بصورة صحيحة ولا يهمّ بعد ذلك إن كان قد استفاد الآخرون منك ومن تعاملك معهم أو لا؛ فإنّ الله تعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم مَن ضلّ إذا اهتديتم»[1]. ولا توجد عبارة أكثر صراحة من هذه الآية في لزوم ضبط النفس وكظم الغيظ. فإنّ كلمة «عليكم» اسم فعل بمعنى «الزموا»، فإن بدأت نفسك فربما اهتدى العشرات بأسلوبك.

٣. الاهتمام بالكيف أكثر من الكمّ

رأيت أحداً يقول: لديّ اثنا عشر درساً في اليوم. ومثل هذا لا هو يستفيد ولا بإمكان غيره أن يستفيد منه وإن كانت دروسه تبلغ الخمسين إلاّ أن يكون عبقرياً أي استثناءً من الناس.

ونقل والدي أنّ أحد الطلبة كان يقول: لماذا أنتم معاشر الطلبة تدرسون كل يوم من الصبح إلى الظهر ثم من العصر حتى الليل، وأنتم في حركة ودوي

---

(١) سورة المائدة: ١٠٥.

مستمرين، إنّ الأمر لا يتطلّب كل هذا، بل يكفي أن يكون لطالب العلم درس واحد أو درسان في اليوم ولا يلزم أكثر من يومين أو ثلاثة في الأسبوع.

وهذا أيضاً لا يمكن أن يصل إلى نتيجة، فأيّ كاسب يكتفي بالذهاب إلى السوق ساعة أو ساعتين في يوم أو يومين من الأسبوع فقط، ثم يكون تاجراً ويحصل على المال الوفير؟ إلاّ أن يكون تاجراً قد بلغ مرحلة يعتمد في عمله على عوامل وخطوط، وهذا أيضاً لم يأت من فراغ بل لابدّ أنّه عمل في أوّل حياته ست عشرة أو ثماني عشرة ساعة في اليوم وستة أيام في الأسبوع على الأقل!

على طالب العلم أن يبذل الوقت المناسب، ولكن الأمر المهم هو الكيف وليس الكم، وأعني بالكيف الإتقان. فلو درستم تاريخ حياة العظماء من العلماء - كالشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي والمحقق الحلي والعلاّمة الحلي والسيد بحر العلوم والشيخ الأنصاري رحمهم الله - لرأيتم أنّ اهتمامهم بالكيف ونوعية الدراسة وإتقانها كان أكثر من اهتمامهم بالكمّ.

فلو أنّك خصصت وقتاً لدراسة كتابين فقط في الفقه ولكن بإتقان، ستستفيد أكثر مما لو بذلته في دراسة عشرة كتب دون إتقان. بل يمكن لَمن يتقن كتابين تخصّصيين في الفقه أن يصبح حاملاً لفقه آل محمد (صلى الله عليه وآله)، أما لو شتّتّ ذهنك ووقتك في عشرة كتب فربما لا تتذكر شيئاً منها.

نستنتج مما تقدم أنّه يجب الاهتمام بكيفية الدرس، ولا نعني بذلك أن يكتفي الطالب بدروس قليلة ويترك سائر أوقاته هكذا هملاً وبلا استثمار، بل المقصود الإتقان والتقدّم، وبذلك يستفيد الطالب كما يستفيد المجتمع منه أكثر.

▪ والتكرار ينفع

هناك أبيات شعرية باللغة الفارسية في قواعد علم النحو، مسطورة في حاشية كتاب جامع المقدمات تسمّى العوامل المنظومة.. حفظتها عندما درست

الكتاب وكنت أطبّق الكتاب مع الأبيات التي كنت أترنّم بها وأنا أمشي، وربما أخطأت وصحح لي والدي (رحمه الله). ولكن حيث إنّ حفظي لها كان حفظاً جيداً تراني اليوم مازلت أتذكرها رغم مرور أكثر من خمسين سنة!

يوصي الشهيد الثاني (رحمه الله) في كتاب «منية المريد» طلاّب العلوم الدينية أن يكرّروا الدرس سبع مرات. ولو أوصيتكم بتكرار دروسكم سبع مرات لما قبِل ذلك مني أحد، ولكني أقول لكم: كرّروا كل درس أربع مرات على الأقل، وعلى النحو التالي

- ✓ مرة بمطالعته والتحضير له قبل طرحه من قِبل الأستاذ، ولو مطالعة إجمالية بحيث يعلق في الذهن خمسون بالمئة منه، فإنّ ذلك كفيل بإعطاء الفكر حرية أثناء الدرس لكي ينصب على الخمسين بالمئة الأخرى، بدلاً من أن يتوزّع خلال مدة الدرس المقررة على كل المادة. فما فُهم أثناء التحضير يتكرر في قاعة المحاضرة، وما لم يفهم يتم ثمة فهمه بشكل جيد.
- ✓ أما المرة الثانية فهو الحضور في الدرس، وقد أُشير إليه ضمن النقطة الأولى.
- ✓ ثم تتحقق المرة الثالثة بمراجعة الدرس الذي تلقاه بعد ذلك.
- ✓ لتأتي المرة الرابعة من خلال مباحثة مع زميل حول مادة الدرس.

وهكذا يتحقق تكرّر الدرس أربع مرات.

▪ السيد محمد كاظم اليزدي مثالاً

يروي حفيد السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (صاحب العروة الوثقى) أنّ جدّه راجع كتاب «الجواهر» من أوّله إلى آخره ستّ مرات، وذلك أنّه كان يباحث الكتاب مع زميل له مرتين في اليوم، فكانا يتباحثان صباحاً مثلاً ثم يبحثان الصفحة أو الصفحات نفسها مرة ثانية عصر ذلك اليوم. فهاتان مرتان.

وكان السيد يطالع المادة نفسها مرة قبل المباحثة الأولى، ومرة بين المباحثتين، ومرة بعد المباحثة الأخيرة فالمجموع خمسة، ولو أضفنا محاضرة الدرس التي كان يلقيها أصبحت بمجموعها ستّ مرات.

أتعلمون ماذا أثمرت هذه المطالعة السداسية للجواهر من قِبل السيد اليزدي (رحمه الله)؟ لقد أثمرت كتاب «العروة الوثقى» الذي صدرت بعده مئات الرسائل العملية من مئات المراجع، ومازالت (العروة الوثقى) الرسالة العملية الحائزة على هذا الكمّ الهائل من شروح وتعليقات الفقهاء، حتى أنّك قد لا تجد فقيهاً له رسالة عملية دون أن يكون له إلى جانبها تعليق على العروة. هذا مع أنّ "العروة" ليس دورة كاملة في الفقه، بل لا نبالغ إذا قلنا: إنّه لا يحتوي على أكثر من ربع مادة الفقه، ففيه كتاب الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والخمس وحوالي عشرة بالمئة من كتاب الحج، ثم كتاب المضاربة، وشذرات من الكتب الأخرى فكتاب النكاح لا يوجد منه سوى زهاء عشرة بالمئة، أما كتاب البيع فلم يتطرق إليه، كما أنّ كتب المعاملات أغلبها غير موجودة وكذا الديات والقضاء، وربما ثلاثة أرباع الفقه غير موجود فيه، ومع ذلك لا ترى مرجعاً لم يعلّق ويهمّش عليه حتى اليوم، وما ذلك إلاّ لإتقانه.

وهكذا نلاحظ أنّ كل مرجع يموت تموت رسالته معه وكذلك تعليقته على العروة الوثقى فيما العروة الوثقى باقية يعلّق عليها العلماء رغم مرور هذه المدة الزمنية على وفاة صاحبها، متميزة بذلك على سائر الرسائل العملية!

هذه هي نتيجة دراسة الجواهر بتلك الكيفية المتقنة. أما القراءة العابرة ومجرد الطنين فلم تكن لتنتج شيئاً من هذا القبيل.

قد يتعب الطالب نفسه أربع سنوات في المباحثة في كتاب الجواهر ولكنها لا تشكّل له سوى خلفية فقهية، أما تلك الاستفادة التي حصل عليها السيد اليزدي فلا يمكن تحقيقها إلاّ بذلك الإتقان.

٤. الاهتمام بالخطابة والكتابة

على طلاّب العلوم الدينية أن يعنوا بهذين البعدين في شخصيتهم باكراً؛ لأنّهما من لوازم الشخصية العلمية والقيادية الناجحة، فكل الأنبياء والقادة والمصلحين يتمتعون بموهبة الخطابة، كما أنّك قلّما تجد عالماً مبرزاً لم يعنَ بالكتابة منذ شبابه. فالإنسان في شبابه أكثر قدرة على التركيز والمجال مفتوح أمامه أكثر والمشكلات التي يعاني منها أقل – في الغالب –، فغير المتزوج مشكلاته أقل من المتزوج، والمتزوج أقل مشكلات ممن ليس عنده أولاد، وذو الولد الواحد مسؤوليته أقل من ذي الولدين، وهكذا كلّما تقدم بالإنسان الحياة تقل الفرص أمامه وتكون مسؤولياته أكثر. ولهذا ينبغي المبادرة إلى تنمية هذين البعدين – الخطابة والكتابة – قبل فوات الأوان. وهاهنا ثلاث نقاط جديرة بالاهتمام:

أ. تقبّل النقد البنّاء

والناس في طريق رقيهم العلمي – ومنها الخطابة والكتابة – على طوائف: فبعض الأشخاص يستاء لو وجّهتَ نقداً لعمله وإنتاجه كما لو نبهته على وجود أخطاء في كتابه أو أمور غير سائغة في خطابته، وبعض يتقبل النقد ، وهناك طائفة ثالثة تطالب الآخرين بالنقد وترحب به من أجل تطوير عملها.

روي أنّ صاحب الجواهر كان يطلب من تلاميذه أن يذكروا له كل نقد يأتي إلى أذهانهم على المادة التي يلقيها عليهم في درس الخارج يومياً، ولهذا كانت دروسه (رحمه الله) تتميز بالفاعلية والنشاط، فهذا (الطالب) يناقش أستاذه في سند الرواية التي ذكرها، وذاك يستفسر عن صحة اللفظ وثالث يعترض على مداليله، وآخر يشكك في الإجماع المدّعى مثلاً، وهكذا كان الشيخ يجمع علوم الناس إلى علمه.

وفي أحد الأيام لاحظ الشيخ (رحمه الله) أنّ أحداً من طلابه لم ينتقد الدرس الذي ألقاه، فتعجب وتوجه إليهم بالقول: لم أسمع اليوم مَن يوجه نقداً فهل كان ما

ذكرناه اليوم وحياً منزلاً أم ماذا؟! فأجابه الطلاب: كلا أيها الأستاذ، ولكنا لم نطالع الدرس ونحضّر له أمس بسبب كثرة الحشرات وحرارة الجو، فدعنا نراجع المادة اليوم لنرى إن كان كل ما قلته صحيحاً أم لا.

ونحن لا نقول: إنّ كل النقد الذي كان يوجّه للشيخ كان صحيحاً، ولكن لو افترضنا أنّ نسبة منه - مهما قلّت - كانت صحيحة، فإنّ الشيخ كان يستفيد منها. إذن لندع الآخرين ينقدوننا ونشجّعهم ثم نطوّر قابلياتنا بالاستفادة من وجهات النظر الصحيحة من بينها.

ب. البحث عن مدرّسين أو دورات للخطابة والكتابة

إنّ الاعتماد على الأستاذ والاستفادة من خبرته وإرشاداته والكتب التي يرشّحها، والتدرّب لديه، يعني الوصول إلى الهدف بصورة أفضل وأسرع. ولا ينبغي اليأس بسرعة من الحصول على أستاذ، لأنّ ذلك يتطلّب بحثاً و(مَن جدّ وجد)، ومَن عجز عن الحصول على أستاذ وهو في هذه الحوزة التي هي مجمع الحوزات كلها اليوم، فإنّه سيكون في غيرها أعجز. إنّ المسألة تتطلّب المتابعة والمثابرة وعدم اليأس.

ج. تخصيص جزء من الوقت لحفظ النصوص

وهذه المسألة تنفع في الدروس الأساسية أيضاً - فضلاً عن الخطابة والتأليف - فإنّك حتى لو درست المادة الفقهية كالشرائع ودرسته عشرات المرات، قد تنسى قسماً كبيراً منه بعد مرور عشرين سنة، أما إذا حفظت منظومة فقهية إلى جانب ذلك، فإنّ ما يبقى عالقاً في الذهن سيبقى هو الأكثر، وهكذا الحال مع المواد الأخرى كألفية ابن مالك في النحو، وغيرها في غيره، ولا داعي لأن تثقل كاهلك بل يكفي أن تحفظ كل يوم عدة أبيات ستبقى معك في المستقبل.

إنني أعرف شخصياً مرجعاً مبرزاً، لو قسمنا الناس في الذكاء إلى عباقرة ومتوسطي الذكاء وأغبياء، ثم قسمنا متوسطي الذكاء إلى درجات، لا يُعد ضمن

الدرجات المتقدمة في متوسطي الذكاء - بنظري - ولكنّه مع ذلك مرجع تقليد معترف به بلا إشكال، وقد بلغ هذه المرتبة بفضل حفظه المتقن للمسائل الشرعية، فهو مثلاً يحفظ متون الإرث وطبقاتها والمقادير والنسب التي يخص كلاً منها، وعدد الحاجبين ومَن هم، رغم أنّها متشعّبة كثيراً.. وهكذا الحال مع كل الفروع الفقهية حتى ذات الفروع والتشعبات الكثيرة كالزكاة والحج وغيرهما.

فلو استطعت أن تحفظ أمهات المسائل والأصول والخطوط العامة حفظاً جيداً بحيث يمكنك استحضارها متى شئت، فإنّك يمكن أن تبني عليها وتصل إلى نتائج جيدة. فإنّ ما ذكرنا من أمور متقدمة إذا عمل بها طالب العلم، استطاع - رغم كل المشكلات المعيقة - أن يحصل على نتائج في الدنيا والآخرة، وعلى رأس تلك الأمور ذكر الله تعالى باللسان والقلب، أعني التوجه الدائم إلى الله سبحانه وتعالى، «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

أسأل الله تعالى أن يوفّقني وإياكم لذلك.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

في ذكرى ميلاد الحجة المنتظر عجل الله فرجه الشريف

المحاضرة ٨ علماء الدين مسئوليتهم مضاعفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

في هذه الأيام المباركة المنتسبة لولي الله الأعظم صاحب العصر والزمان الإمام الحجّة المنتظر (صلوات الله وسلامه عليه) من المناسب أن نذكر كلمات نعرب فيها عن حبّنا له وتكون تذكيراً لنا جميعاً إن شاء الله.

أعرض لموضوعين على نحو الاختصار؛ الأول يتعلّق بالإمام نفسه، والثاني بنا. أمّا الموضوع الأول فقد روي في رواية متواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «مَن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[1] أي مات على الكفر.

معرفة الله والنبي متوقفة على معرفة الإمام

فكما أن معرفة الله هي شرط الإيمان ولكنها لا تكفي ما لم تقترن بمعرفة النبي، فكذلك معرفة النبي لا تفكي وحدها من دون معرفة الإمام. أي أنّ معرفة الله والنبي لا تنفع من دون معرفة الإمام، بل ليسا بمعرفة من دونها بالمعنى الدقّي.

(١) بحار الأنوار ج٣٢، ص٣٣١.

كلّ قوى الكون تحت تصرّف الإمام

لقد جعل الله تبارك وتعالى كل قوى الكون تحت تصرّف الإمام، وهذا الأمر مستدلّ عليه من كلمات المعصومين (عليهم السلام) أنفسهم. هناك زيارة لسيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) مروية عن الإمام الصادق عليه السلام، وهي رواية صحيحة رواها الشيخ الصدوق في «من لا يحضره الفقيه» وقال: «وقد أخرجت في كتاب الزيارات وفي كتاب مقتل الحسين (عليه السلام) أنواعاً من الزيارات واخترت هذه لهذا الكتاب لأنها أصح الزيارات عندي من طريق الرواية وفيها بلاغ وكفاية»[1]. وفيها يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من أراد الله بدأ بكم».

وفي الزيارة التي رواها الشيخ الكليني في الكافي وابن قولويه في كامل الزيارات ولها أسانيد متعددة وهي رواية صحيحة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إرادة الربّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم، والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد...»[2].

إنّ أهل العلم الأفاضل يعلمون جيداً أنّ الجمع المضاف يفيد العموم، أي له ظهور في العموم. وكلمة «الأمور» جمع وقد أُضيفت إلى ضمير مرجعه «الرب» (إرادة الربّ في مقادير أموره...).

ما هي أمور الله؟ هل يوجد شيء في الكون ليس من أموره عزّ وجلّ؟ إنّ كلّ ما سوى الله هو مصداق لأمور الله. فخلق الإنسان والحيوان والأفلاك والملائكة والجنّ والحور والجنّة والنار... كلّها من مصاديق «أموره».

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٣، ص٥٩٨.
كما رواها الشيخ الكليني في الكافي وابن قولويه في كامل الزيارات، ولها أسناد متعدّدة.
(٢) الكافي ج٤، ص٥٧٦.

أمّا المقادير فهي مصدر ميمي وهي جمع مقدار. فيكون معناها إعطاء كلّ شيء قدره. مثلاً: مَن يأتي إلى الدنيا ومتى؟ ما هي الأمور التي تجري عليه؟ وما مصيره؟ متى يموت، ومَن ذرّيته، وإلامَ ستستمرّ؟ وهكذا تقديرات غير الإنسان كالحيوانات والصحاري والبحار والملائكة وجبرئيل وميكائيل وحملة العرش وعزرائيل والجنّ والجنّة والنار ووقت ظهور الإمام نفسه (سلام الله عليه) و... هذه كلّها مصاديق لمقادير أموره.

ولو كانت العبارة هكذا: (إرادة الربّ في مقادير أمور عباده) لم يكن لها هذه العمومية، لأنّها كانت في إطار أمور العباد، ولكن العبارة «في مقادير أموره» أي أمور الربّ. أمّا لماذا لم يقل إرادة الله، فتلك قضية دقيقة ولكن لندع الآن البحث الأدبي، ولنعد إلى القضية المهمّة وهي أنّ إرادة الله تعالى في كلّ ما هو مصداق لأموره، أي كلّ الأمور التي تصدر عنه (سبحانه) تهبط إلى الأئمة وتصدر من بيوتهم. وهذا معناه: إنّ كلّ ما يريده الله تعالى بالنسبة إلى أموره - التكوينية والتشريعية - لم يجعل له إلاّ طريقاً واحداً وهو طريق أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّ أمور الله تشمل التكوينيات والتشريعيات. ولو قلنا إنّ الجملة الأولى تتحدّث عن التكوينيات ظاهراً بقرينة ما بعدها، فإنّ الجملة التالية ستشمل التشريعيات أيضاً، يقول الإمام عليه السلام: «والصادر عمّا فُصِّل من أحكام العباد...». وهذه هي التشريعيات، فيكون معنى الجملتين: إنّ كلّ ما يرتبط بالله تعالى من التكوين والتشريع - ولا وجود لتكوين أو تشريع (صحيح) واحد لا يرتبط بالله وليس من أمره - لم يجعل الله له إلاّ طريقاً واحداً وهم المعصومون الأربعة عشر، وفي عصرنا الإمام الحجّة بقيّة الله المنتظر صلوات الله وسلامه عليه.

إذن كل ما يتعلّق بمقدّراتنا - فرداً فرداً - وتبدّلها أو نقصانها وزيادتها فيما يخصّ العائلة والمجتمع والإقليميات والقوميات وكلّ ما يتعلّق بنا يشكّل صغرى من صغريات هذا الحديث الصحيح الشريف. ويتبيّن مما مرّ أنّ كلّ

شؤون الكون وقواه جعلها الله تعالى بيد الإمام المعصوم سواء فيما يتعلّق بالأشخاص أو الأشياء بالنسبة إلى الماضي أو المستقبل. وتوجد عندنا روايات متواترة على هذا الأمر، والرواية التي عرضنا لها آنفاً إحدى تلك الروايات الصحيحة.

المعصومون أعرف منا بفضلهم ولا ينقص منهم شيء مهما أعطوا

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إنّ المعصومين (عليهم السلام) هم أعرف منّا بفضلهم وأنّه لا يقلّ من شأنهم مهما أعطوا . إذا كان أحدنا يملك مليون دينار وأعطى منه ديناراً واحداً فإن المليون سينقص بمقدار الواحد، ولا يعود مليوناً بتمامه. ولو كان يملك ملياراً وأعطى واحداً نقص المليار وكسر بذلك المقدار، وهكذا حتى لو كان المبلغ ألف مليار فإنّه ينقص بالعطاء، بل حتى المحيطات والبحار لو أدخلت فيها إبرة - بل رأس إبرة صغيرة ودقيقة - وأخرجتها فإنّ شيئاً ولو قليلاً من الرطوبة سيعلق بها وينقص ماء البحر بذلك المقدار. صحيح أنّ ذلك لا يصدق بالحمل الشائع عرفا لأنّه لا يظهر ولكنّه نقص حقيقةً. أمّا أهل البيت عليهم السلام - ومنهم بقيّة الله الأعظم صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه - فهم يعلمون أفضل منك أنّك لو سألتهم ألف حاجة كبيرة وأعطوكها فإنّه لا ينقص منهم شيء أبداً، بل لو أنّ كلّ البشر المتجاوز عددهم ستّة مليارات نسمة سألوا الإمام كلٌّ آلاف الحاجات فهو (عليه السلام) قادر على إعطائها دون أن ينقص منه بمقدار الرطوبة العالقة من ماء البحار برأس الإبرة.

المشكلة فينا فليكن طلبنا بالنحو المقتضي

ولكن المشكلة فينا نحن. فكلّ منّا - مع احترامي لكم - فيه ما يمنع المعصوم من أن يفيض عليه، لأنّ الإمام المعصوم حكيم ولا يضع الشيء في غير موضعه. ينبغي أن يكون إدراكنا ونوع حاجاتنا وأسئلتنا وكيفيتها بنحو

بحيث تقتضي الحكمة استجابتها.

هذا مختصر عن الإمام وقطرة من ملايين الملايين ممّا ينبغي الحديث عنه وعن عظمته صلوات الله عليه.

طالب العلم الديني إمّا جندي الإمام أو وكيله

أمّا الموضوع الآخر المتعلّق بنا نحن أهل العلم الذين نعدّ أنفسنا من المنتسبين إلى الإمام ولا نعلم هل انتسابنا مقبول، وهذه هي المسألة المهمّة بالنسبة لنا، والتي تستحقّ أن نبذل الوقت والجهد من أجلها لكي نصل إلى نتيجة، وإلاّ فلسنا على شيء، ومهما يكن عندنا فهو مساوق للعدم إن لم يكن أسوأ من العدم؛ فإنّ علماً لا ينتفع به صاحبه لا يزيده إلاّ بعداً عن الله تعالى؛ «العلم إذا لم يُعمل به لم يزد صاحبه إلاّ كفراً ولم يزدد من الله إلاّ بعداً»[1] والعياذ بالله.

نحن - طلبة العلوم الدينية - على قسمين؛ القسم الأول أولئك الذين لم يبلغوا مقام الاجتهاد والتقوى والعدالة اللازمة، فهؤلاء مازالوا في مرتبة جنود الإمام. أمّا القسم الآخر فهم الذين وُفّقوا لبلوغ مقام العدالة والاجتهاد، وهؤلاء هم الوكلاء العامّون للحجّة عجّل الله فرجه. وتعرفون أنّ الوكيل إذا تصرّف بالنحو اللائق فأهمّيته عند موكّله أكثر من تصرّف الإنسان العادي. وكذا الجندي بالطبع إذا أحسن التصرّف بين يدي قائده ومولاه كان جديراً بالاحترام أكثر من غيره من الأشخاص العاديين.

ولكن عكس الحالة صحيح أيضاً، فلو كان تصرّف الوكيل والجندي غير صحيح والعياذ بالله كان استحقاقهما للعقوبة أشدّ وآكد.

---

(١) الكافي ج١، ص٤٤.

الفضل بن شاذان نموذج للوكيل الجيّد

من بين الأمثلة الكثيرة أذكر لكم نموذجين فقط؛ الأوّل: الفضل بن شاذان رضوان الله تعالى عليه مثالاً للوكيل الجيد، والنموذج الآخر المضادّ: علي بن أبي حمزة البطائني، ومثله الحسين بن منصور الحلاّج ومن على شاكلتهما.

كان الفضل بن شاذان من الوكلاء الجيّدين للأئمة، فقد روي في وسائل الشيعة والكافي وأمثالهما أنّ الفضل بن شاذان أرسل مبعوثاً إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وقال مبعوث الفضل بعد ذلك إنّ الإمام العسكري (عليه السلام) قال له: «أغبطُ أهل خراسان لمكان الفضل بن شاذان بمكانه بين أظهرهم»[1].

إنّكم أهل علم وتعرفون ماذا تعني الغبطة هنا؛ فإنّه ينبغي القول إنّ المقصود بالغبطة هنا معناها المجازي وليس الحقيقي لأنّ الغبطة تقابل الحسد، فالحسد هو تمنّي زوال نعمة الغير وهو من الرذائل، أمّا الغبطة فليس فيها تمنٍّ لزوال نعمة الغير بل هو تمنّي مثلها للنفس. وهي من الفضائل، ولكن حتى الغبطة لا يمكن أن تكون من شأن الإمام المعصوم. فما هو ذلك الشيء الجيّد الذين يتوفّر عليه أحد الناس ولا يوجد أحسن منه عند المعصوم ليكون مثار غبطة المعصوم؟ بل أيّ فضائل المعصومين توجد عند غيرهم من الناس؟!

فلاشكّ إذن أنّ الغبطة هنا غير مقصودة بمعناها الحقيقي بل لابدّ أن تكون بالمعنى المجازي لها، ويُعرف أقرب المجازات عن طريق القرائن الخارجية،

---

(١) تهذيب الأحكام ج١٠، ص٤٩، جامع الرواة ج٢، ص٥.
وكان الفضل بن شاذان آنذاك في نيسابور ومزاره اليوم هناك، وقد وفّقت لزيارته مراراً، ونيسابور تقع على طريق مشهد وحريّ بالذاهبين إلى مشهد لزيارة الإمام الرضا (عليه السلام) أن يعرّجوا على نيسابور لزيارة الفضل، بل إنّه حتى لو لم يكن في طريق مشهد كان يستحقّ أن تُشدّ الرحال لزيارته.

فهنا – مثلاً – يكون معنى قول الإمام عليه السلام (أغبط أهل خراسان): أنّ من شأن مَن لم يكن في خراسان أن يغبط أهلها على نعمة الاستفادة من جوار الفضل بن شاذان – وكانت خراسان يومذاك تعني معظم بلاد إيران اليوم – وهذا يعني أن عمل الوكيل بواجبه جيّداً يوصله إلى هذه الدرجة.

علي بن حمزة البطائني من الوكلاء الذين ساءت عاقبتهم

أمّا إذا كان عمل الوكيل سيّئاً والعياذ بالله فستكون عاقبته كعاقبة علي بن أبي حمزة البطائني؛ فرغم أنّه كان وكيلاً لأكثر من معصوم وكان هو السبب في هداية بعض عمّال بني أميّة، فعندما قدّم أحدهم إلى الإمام الصادق (عليه السلام) للتوبة قال ذلك الشخص للإمام: «جُعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه. فقال أبو عبد الله عليه السلام: لولا أنّ بني أمية وجدوا مَن يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلاّ ما وقع في أيديهم. قال: فقال الفتى: جُعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال: فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم فمَن عرفت منهم رددت عليه ماله ومَن لم تعرف تصدّقت به وأنا أضمن لك على الله الجنة. فأطرق الفتى طويلا ثمّ قال له: قد فعلت جُعلك فداك»[1].

فهذا ممن صار ابن أبي حمزة سبباً في هدايتهم ولكن انظروا إلى عاقبة أمره هو.

يقول الراوي كنت عند الإمام الرضا في خراسان فقال عليه السلام: «مات علي بن أبي حمزة البطائني في هذا اليوم وأُدخل في قبره الساعة ودخلا عليه ملكا القبر فساءلاه مَن ربك؟ فقال: الله. ثم قالا: مَن نبيّك؟ فقال: محمّد.

---

(١) بحار الأنوار ج٤٧, ص٣٨٢.

فقالا: مَن وليّك؟ فقال: علي بن أبي طالب. قالا: ثمّ مَن؟ قال: الحسن. قالا: ثمّ مَن؟ قال: الحسين. قالا: ثم مَن؟ قال علي بن الحسين. قالا: ثمّ مَن؟ قال: محمّد بن علي. قالا: ثم مَن؟ قال: جعفر بن محمّد. قالا: ثمّ مَن؟ قال: موسى بن جعفر. قالا: ثمّ مَن؟ فلجلج فزجراه وقالا: ثمّ مَن؟ فسكت فقالا له: أفموسى بن جعفر أمرك بهذا؟ ثمّ ضرباه بمقعمة من نار فألهبا عليه قبره إلى يوم القيامة»[1]. ونحن في سنة ١٤٢٣هـ مازال علي بن أبي حمزة معذّباً إلى الآن؛ فالإمام قال: «إلى يوم القيامة».

لقد كان وكيلاً للإمام الصادق والكاظم (عليهما السلام) ولكنّه مازال يُضرب بمقمعة من نار، والمقمعة عمود من حديد ولكن قد يكثّف الله تلك النار حتى يكون لها سمك[2]، والله أعلم، فهذه أيضاً من مقادير أموره.

لنكن حذرين جداً

هذا حال وكيل الإمام المعصوم الحاضر، فلنكن يقظين وحذرين جدّاً فإنّ المسألة دقيقة جدّاً وذات حدّين قاطعين. فلو أنّ المرء كان يجد العذر الشرعي لاعتزال هذا الأمر لاختار كلّ مَن يملك العقل أدنى درجة من العقل طريق التخلّي والاعتزال، ولكن كما قلت إنّ الحدّين قاطعين فلا يمكن الاعتزال والتخلّي عن هذا الأمر ولا عذر للمرء في ذلك.

ومن جهة أخرى فإنّ العالم مسؤول وكما في الحديث: «لنحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم»[3]. وليس المراد من العلماء هنا المراجع وحدهم، بل العالِم بالمعنى اللغوي وهو يشمل كلّ مَن يتحمّل مسؤولية هداية الناس.

---

(١) بحارالأنوار ج٤٩، ص٥٨.

(٢) وفي الروايات أنّها مقمعة طويلة ذات ٣٦٠ عقدة في كلّ عقدة ٣٦٠ حلقة من نار.

(٣) بحارالأنوار ج٢، ص٢٢.

الحلاّج مثال آخر للوكيل السيّئ

لقد كان الحلاّج أحد العلماء المهمّين ولكن انظروا عاقبته وماذا يقول عنه الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة، وكذلك النعماني والشيخ المفيد؛ وهؤلاء كانوا معاصرين له أو مقاربين لعصره.

يقول الطوسي عنه: «الحلاّج الحيّال الصوفي المتصنّع».

مسئوليتنا مضاعفة

فنحن أهل العلم إمّا أن نكون ضمن جنود الإمام سلام الله عليه، أو ممن حصل على مقام الوكالة والنيابة العامّة وكما قال الإمام عليه السلام: «انهم حجّتي عليكم»[1]. وكلا المقامين رفيع إذا تصرّف الإنسان فيهما تصرّفاً صحيحاً، وإلاّ فمشكل جدّاً.

قال الإمام الصادق (عليه السلام) لأحد أصحابه: «الحسن من كلّ أحدٍ حسن ومنك أحسن لمكانك منّا، والقبيح من كلّ أحد قبيح لمكانك منّا»[2].

أعمالنا تعرض على الإمام

فلنحسن التصرّف، فإنّ الإمام عالِم بأعمالنا ونيّاتنا. ففي الكافي وغيره أنّه في كلّ يوم تُعرض قائمة أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا على الله تعالى وعلى النبي الأكرم وعلى الإمام المعصوم، أي هناك ثلاثة قوائم أو قائمة واحدة تُعرض على الله فالرسول فالإمام.

ففي بعض الروايات أنّها تُعرض كلّ صباح[3] فلا تسوءوه.

---

(١) غيبة الطوسي، ص٢٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ج١٨، ص٢٠٥.

(٣) انظر: بحار الأنوار ج١٧، ص١٣١.

السقوط من القمّة مهلك

إنّ ارتقاء المدارج العالية يشبه صعود الجبل. فلو أنّ شخصاً سقط من ارتفاع متر جرح جرحاً بسيطاً ولكن كلّما كان صعوده من مكان أعلى كانت إصابته أشدّ ونتائجها أسوأ. فمَن سقط من ارتفاع ٢٠٠م ليس كمن سقط من ارتفاع مترين مثلاً، فكيف بمن يسقط من قمّة الجبل؟!

مَن بلغ إلى قمّة الجبل يشار إليه بالبنان، لكن السقوط منها يقضي على الإنسان تماماً. وكذلك السقوط من المقامات العالية ينتج أمثال الحلاّج والهلالي والشريعي والبطائني وغيرهم ممن خرجت اللعنة عليهم.

فما أسوأ حال من تناله اللعنة من صاحب أرأف قلب في الوجود!

وختاماً

لنحاول في هذه المناسبة تحصيل رضا الإمام فإنّه رضا الله. ورضا الإمام هو في أن نعمل بوظائفنا وعقائدنا. فنحن - ولله الحمد - نعرف وظائفنا ولو سألَنا شخص لأجبناه ولكن علينا بالعمل.

أرجو من الله تعالى ببركة المولى صاحب العصر (عجّل الله فرجه الشريف وصلوات الله وسلامه عليه) أن يزيد في توفيق العاملين، ويوفّق الباقين، وصلّى الله على محمّد وآله.

الفرق بين الأخلاق والعلوم الأخرى

المحاضرة ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لقد ذكرنا في محاضرة سابقة أن هناك فروقاً بين «الأخلاق» والعلوم الأخرى، وأنّ الأخلاق علم وعمل، ونذكر الآن فروقاً أخرى، ومنها:

١. الأخلاق بحاجة إلى مثابرة لبلوغ أعلى المراتب

لا شك أن مَن يتخصص في علم واحد ويستفرغ له كل وسعه وجهده يبلغ أعلى الدرجات فيه ويتفوق على مَن كان ذلك العلم أحد اهتماماته، والأخلاق تحتاج إلى التفرّغ والجد والمثابرة من أجل بلوغ المراتب العالية فيها، وذلك لأسباب منها: أنّ المستوى الذي يبلغه الأخلاقي - وطالب العلم الديني خاصة - يؤثر في أداء دوره في المجتمع وتشجيع الناس نحو الفضائل الأخلاقية والاجتناب عن رذائل الأخلاق. فقول طالب العلم وفعله وسيرته وتاريخه يشجع الناس على الفضيلة إذا كان هو من أهل الفضيلة، ولكن مجرد عدم كونه كذلك يدفع الآخرين نحو الرذيلة.

يقول الشهيد الثاني الشيخ زين الدين العاملي (ت: ٩٦٦هـ) في كتابه «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» وهو كتاب حري بطالب العلم الديني أن يطالعه، لأنّه يؤثر كثيراً في تغيير سلوكه في الحياة إلى درجة كبيرة. يقول (رضوان الله عليه):

«واعلم أنّ المتلبس بالعلم» أي طالب العلم الديني «منظور إليه» أي ينظر إليه الناس «ومتأسىً بفعله وقوله وهيأته» أي يُتخذ أسوة وقدوة «فإذا حسن

سمعته وصلحت أحواله وتواضعت نفسه وأخلص لله تعالى عمله انتقلت أوصافه إلى غيره من الرعية وفشا الخير فيهم وانتظمت أحوالهم. ومتى لم يكن كذلك» أي لم يلتزم بالفضائل بل اكتفى بالواجبات والمحرمات «كان الناس دونه في المرتبة التي هو عليها» أي أنّ الناس لا يلتزمون حينئذٍ حتى بالواجبات والمحرمات، «فكان مع فساد نفسه منشأً لفساد النوع وخلله» خلافاً لعامة الناس. «وناهيك بذلك ذنباً وطرداً عن الحق وبعداً». ثم يقول بعد ذلك:

«إنّ عامة الناس أبداً» أي دائماً «دون المتلبس بالعلم بمرتبة» أي أنّهم أدنى منه بدرجة. «فإذا كان – طالب العلم – ورعاً تقياً صالحاً» أي ملتزماً بالفضائل فوق التزامه بالواجبات والمحرمات «تلبست العامة بالمباحات» أي لا ترتكب المحرمات ولا تترك الواجبات. «وإذا اشتغل بالمباح» أي اكتفى بفعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات «تلبست العامة بالشبهات» فهي كما قلناه دونه بدرجة، وهكذا: «فإن دخل في الشبهات تعلق العامي بالحرام، فإن تناول الحرام كفَر العامي»[1].

أي لا ينبغي لطالب العلم أن يفعل كل مكروه بدعوى أنّ كل مكروه جائز، ولا يترك المستحبات بدعوى أنّ كل مستحب جائز الترك؛ لأنّ ذلك سيكون سبباً في تساهل العامي حتى في الواجبات والمحرمات.

أما إذا عمل طالب العلم بالفضائل أي ترك المكروهات وأتى بالمستحبات ولم يتوقف عند مستوى التقيّد بالواجبات والمحرمات فهذا يعني أنّ العامة سيكونون عدولاً أي ملتزمين بالحدود الشرعية بأجمعها.

لا ينبغي لطالب العلم الديني أن يقول إنّ حسن الخُلق جيد ولكنه ليس بواجب فلماذا ألتزم به؟ أو أنّ سوء الخُلق في حدود منه مكروه، فلماذا ألتزم بتركه؟ والصلاة في أوّل الوقت فضيلة ولكنه ليس بواجب فلا يخلّ بعدالتي لو

---

(١) منية المريد، ص١٦٢، ١٦٣.

تسامحتُ به! وهكذا... ثم يسوّغ ذلك لنفسه بالقول: "إنّ أتقى الناس مَن عمل بالواجبات".

فإنّه لو كان وضع العالِم أو الطالب الديني كذلك فإنّ الوسط الذي يعيش فيه والأشخاص الذين يشهدون سيرته لا يتوقفون عند ذلك الحد، لأنهم دونه درجة، وليست تلك الدرجة هنا إلاّ التورط بالمعاصي وترك الواجبات؛ لأنّ العامي إذا رأى قدوته يصلي صلاة الصبح قبيل طلوع الشمس مثلاً فسيستهين بالواجب نفسه، وإذا رآه يفعل مكروهاً فإنه سيتهاون بالحرام! ولسان حاله يقول: هذا رجل عالِم أو سيّد فاضل وهو يفعل كذا أو يترك كذا، فماذا تنتظر مني؛ أنا الإنسان العادي؟!

أما لو تورط المتلبس بلباس أهل العلم بترك الواجب أو فعل المحرم - والعياذ بالله - كما لو قتل إنساناً ظلماً أو اغتاب أو اتّهم مؤمناً فإنّ عامة الناس سيكفرون حينئذٍ - على حد تعبير الشيخ الشهيد (رحمه الله) -.

إذن على طالب العلم الديني أن يولي الالتزام بالفضائل والأخلاق عناية فائقة بل يجعلها همه الأكبر ويصبّ اهتمامه وتركيزه عليها حتى يتفوق فيها، لأنّه كلما ارتفع مستواه فيها ارتفع مستوى التزام الناس بها بالتبع. وهذا أحد الفروق التي تميّز الأخلاق عن سائر العلوم والفنون كالفقه والأصول والبلاغة والفلسفة والحكمة والخطابة وغيرها.

٢. الرقي في الأخلاق أصعب منه في العلوم الأخرى

الفرق الآخر بين الأخلاق والعلوم الأخرى يكمن في صعوبته قياساً لها، فهو أصعب حتى من الفقه الذي يُعد أصعب العلوم وأوسعها مسائل. وتكمن صعوبة الفقه في أن مسائله أوسع وأكثر عدداً من مسائل العلوم الأخرى كالنحو والأصول. ولذلك ترى الفقيه يتفرغ خمسين سنة للفقه ومع ذلك عندما تسأله

عن بعض المسائل يقول لك يلزم أن أراجع. ونادراً ما تجد فقيهاً مجتهداً بالفعل في جميع مسائل الفقه - أي يملك قوة استنباط فعلية بحيث عندما تعرض عليه أية مسألة يتمكن أن يخرجها حالاً -.

أنا شخصياً رأيت عدة مرات مجتهدين معروفين بالفقه (رحمة الله عليهم) طرحت عليهم مسائل و لم يترددوا في قول لا أدري، مع أنّ بعضهم قضى ثمانين سنة في الفقه، فكيف لا يدري وماذا كان يعمل طيلة هذه المدة؟ الجواب: إنّ الفقه واسع وعميق ولذلك ترى الألوف من طلاب العلوم الدينية يبدأون دراستهم لا لكي يصبحوا وكلاء أو خطباء، بل ليكونوا فقهاء مجتهدين متبحرين، فهم يتطلعون إلى المرجعية.. ولكن كلما يتقدمون في مسيرتهم يجدون صعوبات وصعوبات، فيتناقص العدد المتجه إلى هذا الهدف ويبدأ الآخرون بالتخصص في مجالات أخرى. فلو فرضنا أنّ الذين بدأوا بهذه النية كانوا ألفاً فإنّ مئة منهم سيتركون الاستمرار بعد مرور سنتين، وهكذا يستمر العدد بالتناقص مع مرور السنوات حتى لا يبقى من الألف الذين بدأوا دراستهم بهذه النية سوى عشرين أو ثلاثين شخصاً فقط.

قال لي شخص قضى عشرين سنة من الدراسة: لقد يئست من أن أكون مجتهداً، لأن كل مسألة أواجهها أجد فيها صعوبة بالغة. فقلت له: لا تيأس.

أقول: إنّ الأخلاق أصعب من الفقه ولا ينبغي لنا أن نستسهله، لأنّ الأخلاق تعني صناعة الإنسان، وإنّ فقهاء عظماء قالوا: من السهل أن يصبح المرء مجتهداً ولكن من الصعب أن يصير إنساناً. وبعضهم قال: بل من المستحيل. ولا شكّ أنّ المقصود بالاستحالة هنا ليس الاستحالة العقلية بل كون القضية بالغة الصعوبة.

لقد تقدم منا أنّ الاجتهاد في الفقه من أصعب الأمور، فما الذي جعله كذلك؟ إنّ من جملة ما جعل بلوغ مرتبة الاجتهاد الفقهي صعب المنال كون

النتيجة فيه لا تحصل بسرعة، قياساً للفنون الأخرى. فإنّ الدراسة والتفرغ والتركيز لمدة سنتين قد تكفي لأن يصبح الشخص المستعد خطيباً يرتقي المنبر ويستمع إليه الألوف من الناس، بل يمكنك أن تحفظ آيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث الشريفة وقصيدة وبعض القصص، لترتب مجلساً ثم ترتقي المنبر. المهم أنّ الشخص قد يحصل على ثمرة أتعابه بعد مرور سنتين فقط.

هكذا الحال بالنسبة لوكلاء المراجع. فمَن أراد أن يصير وكيلاً في منطقته ومدينته، يأتي إلى إحدى الحواضر العلمية كقم المشرفة فيدرس خمس سنوات أو عشراً مثلاً يتعلم خلالها الرسالة العملية وشرائع الإسلام والعروة الوثقى وبعض الأخلاقيات ويصبح رجلاً صالحاً ثم يعود إلى بلده بعد أن يعطيه أحد المراجع وكالة عنه، وهكذا يحصل على نتيجة أتعابه بعد عشر سنين.

أما إذا أردت أن تصير فقيهاً فإنّ ذلك يتطلب منك دراسة متواصلة لمدة عشرين وربما ثلاثين سنة، لا لكي تلمس النتائج بل لتواجه المشاكل أوّلاً. وهذا يتطلب - حقاً - شخصاً لا طمع له لأي نفع أبداً، بل يثابر على الدرس ولا ييأس. ومن هنا كان الاجتهاد في الفقه عملاً بالغ الصعوبة.

أقول: إنّ الارتقاء في مراقي الأخلاق والفضائل أصعب من الاجتهاد في الفقه؛ لأنّ ثمرته ونتيجته أبعد منالاً وأعسر حصولاً من الفقه. فلا يلمس المرء نتيجة سعيه إلاّ عندما يصبح ذا قلب سليم وتصبح الأخلاق والفضائل ملكات لديه، عندها يشعر بلذة الأخلاق والوصول إلى مراتبها العالية، وعندها يعرف قيمة ترويض النفس ومخالفة الشهوات. ولا تصبح الأخلاق ملَكة عند الشخص إلاّ بعد أن يحارب نفسه ويخالفها ثم يخالفها ويخالفها حتى تنمو عنده ملَكة حب الخير في كل أبعاده. فإذا حصل على الملَكة شعر باللذة وبدأ يلمس نتيجة أتعابه في مجال الأخلاق والفضائل. فمن يبلغ الهدف الذي كان يسعى إليه يحصل على لذة. سأل أحد العلماء خطيباً بمحضري عن مصدر موضوعٍ له نقله على المنبر،

فقال الخطيب في جوابه: إنّ المنبر كالفرس الجموح لا تستطيع أن تمسك به إذا انطلق بك. وهذا برأيي ناتج من الإحساس باللذة الحاصلة بسبب الوصول إلى نتيجة الأتعاب. فهو نوع من فرح الانتصار. وهذا الأمر لا يحصل في مجال الأخلاق بنحو سريع بل هو شيء بعيد بطيء؛ لذلك أصبح الارتقاء في مدارج الأخلاق صعباً بل أصعب من الاجتهاد. وخير دليل على ذلك الواقع الخارجي فإنّ عدد مَن بلغوا مرتبة الإنسان الكامل أندر من عدد المجتهدين.

ويمكنكم أن تكتشفوا ذلك بأنفسكم، فإنّ عمق المسائل الأخلاقية وعدم الوصول السريع إلى النتيجة يجعل المرء يشعر وكأنه غارق في المجهول.

ومن هنا كانت الأخلاق - كالاجتهاد في الفقه - أمراً صعباً ورواده قليلون. وإلاّ فمَن من الناس لا يحب أن يصبح ذا فضائل، كما أنّ أيّ طالب علم يتمنى أن يصبح فقيهاً ولكن صعوبة الطريق وطوله حتى الوصول إلى النتيجة تصرفهم عن المواصلة لأنّ الإنسان بطبعه يتعجل النتائج.

ولا نقصد بصعوبة الأخلاق صعوبة تلقي دروس في الأخلاق كمطالعة كتاب جامع السعادات أو إلقاء المحاضرات الأخلاقية أو الاستماع إليها.. فهذه تمثّل علم الأخلاق. إنّما المطلوب من الأخلاق هو العمل. وما نعنيه بالفضائل ليس معرفتها بل العمل بها.

كما لا نريد من التصريح بصعوبة الأخلاق صرْف الناس عنها بل لكي يتم الاهتمام بها أكثر، لأنّ الطالب إذا استسهل الأخلاق وتهاون بها لا يواصل الشوط حتى الأخير لما سيواجهه من صعوبات. فإنّنا ننبّه في البداية على الصعوبات وطول الطريق ليأخذ الطالب أهبته ويستعد ويشمر عن ساعد الجد ويحسب للأمر حسابه؛ فإنّ نتيجة الأخلاق لا تُلمس بسرعة، ولذة الإحساس بالسمو الروحي لا تحصل إلاّ بعد عناء وصمود، وهذا من الفوارق التي تميّز الأخلاق عن العلوم والفنون الأخرى.

٣. غياب التشجيع في مجال الأخلاق

من الفوارق الأخرى بين الأخلاق والعلوم الأخرى أنّ الإنسان جُبل على حب التشجيع وبه يتقدم في كل مجال من مجالات الحياة، ولكن مَن يسلك طريق الرقي في الأخلاق عليه أن لا يترقب التشجيع في هذا المجال، بل ليتوقع التثبيط أيضاً. فهذا حال المجتمع في الغالب.

فطالب العلم قد يتوفر على مادة درسه عدة ساعات فيتقنها، ثم يأتي في اليوم القادم ويبدأ بطرح بضعة أسئلة على أستاذه فيعرف الأستاذ من هذا الطريق أنّ هذا الطالب قد طالع درسه بدقة فيشجعه بالقول "أحسنت، استمر على هذا المنوال، وكلما استجد لديك سؤال فاطرحه للمناقشة". وهكذا يستمر الطالب بالتشجيع حتى يتفوق ثم يقوم بتدريس المادة بعد أن بلغ فيها المستوى المطلوب.

أما في الأخلاق والالتزام بالفضائل فالأمر مختلف، لأنّ معظم الناس يثبطون المرء ولا يشجعونه. مثلاً: لو حدث شجار بينك وبين أحد أرحامك، وأردت أن تضغط على نفسه وتصله وقرّرت أن تزوره وتصفح عنه وتسدل الستار على ما حدث بينكما، فإنّ معظم الناس لا يشجعونك ويضعون أمامك الأعذار والعراقيل.

يروى أنّ أحد مراجع التقليد كان مبتلى بشخص يشتمه ويسيء الأدب والكلام معه حتى في المجالس، ويبدو أنّه كان من حاشيته. فاتّفق أن رأى المرجع في يوم ما وحيداً فانتهز الفرصة وشكا له الحاجة إلى المال، ولم يبخل عليه المرجع بل أغدق عليه ولم يردّه خائباً، ولكنّ العجيب أنّ هذا الشخص لم يتراجع عن سبّ ذلك المرجع وانتقاصه، وأخذ يقول: إنّ فلاناً أعطاني المال لقطع لساني وكمّ فمي ولم يكن إعطاؤه لله، وإنّ فمي لا يغلقه المال!

وعندما بلغ الأمر بعض أصحاب ذلك المرجع تأثروا كثيراً وعقدوا اجتماعاً

ثم انتدبوا أجرأهم ليكلّم المرجع. وبالفعل توجه الشخص إلى المرجع وسأله إن كان قد أعطى فلاناً مالاً؟! فقال المرجع: ولِمَ؟ وما الذي حدث؟ عندها قال الشخص: أتعلمون أنّه كان يشتمكم؟ قال: نعم. قال: وتدرون أنّه لا يزال يشتمكم ويدّعي أنّكم لم تعطوه المال من أجل الله بل ثمناً لسكوته أو رياءً؟

وأضاف المعترض: هب أنّا لا نقول إنّك عالِم ديني ومرجع تقليد، ولكنّا نقول إنّك رجل مؤمن؛ أفيصحّ تشجيع مَن يسبّ مؤمناً؟ ألا يشكّل إعطاؤكم المال لذلك الشخص تشجيعاً له؟! أليس في عملك تربية له على إهانة العلماء وتشجيعاً للآخرين فتستمر هذه السنّة حتى بعد وفاتكم؟ و... و...

وهنا رفع المرجع رأسه ولم يزد أن قال: أنا أسألك الآن، هل هذا الرجل أعزب أم متزوج؟

أجاب: متزوج وله أولاد.

قال المرجع: وكيف وضعه المادي؛ فقير أم غني؟

قال: بل فقير، لا يملك داراً، بل هو مستأجر لها.

فقال المرجع: لنفرض أنّه ارتكب حراماً إذ شتمني، ولكن ما ذنب زوجته وأطفاله إذا كان سيعود إليهم في المساء ولا مال عنده يقوتهم به؟!

أرأيت كيف أنّ المرء إذا أراد أن يلتزم بالفضائل كان المثبطون أكثر من المشجعين؟!

ثم مثال آخر من واقع الحياة العامة. هل فكرتم لماذا كان عدد طلاب العلوم الدينية قليلاً جداً إذا ما قيس إلى طلاب العلوم الحديثة؟ هل لأنّ الأمّة لا تحتاج إلى مرشدين أكثر من العدد الموجود؟!

أم لأن السبب هو أنّ التشجيع نحو طلب العلم الديني أقل من التشجيع نحو طلب العلوم الحديثة. فلو أراد أب تسجيل ولده في الحوزة لتلقي العلوم الدينية فإنّ أغلب أفراد العائلة والأقارب سيعارضون أو يبدون عدم ارتياحهم وربما

يجحوا في ثنيه عن قراره. ولكن لو انصرف الابن عن التحصيل في المدارس الحديثة وأراد أن يتعلم إحدى المهن مثلاً، فإنّ جل أفراد العائلة والأقرباء سوف يبدون دهشتهم لدى والديه ويقولون إنّه من الواجب عليهما إرساله إلى المدرسة لكي يتخرّج مهندساً أو طبيباً وما أشبه. وهذا يدل على أن التشجيع نحو المدارس الحديثة موجود خلافاً للمدارس الدينية حيث تنتظر التثبيط أكثر من التشجيع!

وهكذا الحال بالنسبة للأمور الأخلاقية. فلو نوى الإنسان أن يصبر أو يصدق أو يفي بالوعد في الموارد التي تتزاحم مع مصالحه الشخصية فإنّ معظم الناس يحاولون ثنيه. ولذلك يحتاج الالتزام بالأخلاق والفضائل والرقي فيها إلى صبر وصمود وتركيز ومثابرة.

٤. لابد لطالب العلم أن يحذر الشبهات

أما الفرق الآخر بين الأخلاق وغيره –إضافة لما مرّ– فهو مزاحمة الشبهات. فإنّ الناس المثبطين والهوى والشيطان والشهوات تجعل الفضيلة مشتبهة بالرذيلة. فمثلاً الصبر فضيلة ولكن الذل رذيلة. فإذا عزم المرء على الصبر في موقف ما، قال له المحيطون به: إنّ الصبر جميل ولكن هذا ليس موضعه، بل هذا ذل منك ويذكرون له الحديث الشريف: «إنّ الله أوكل إلى المؤمن أموره كلها، ولم يوكل إليه أن يذل نفسه»[1]. وهذا هو الفخ الذي هلك فيه خلق كثير.

مثال آخر: الكرم خلق محمود ويقابله الإسراف فهو مذموم. ولكن ما أكثر الحالات التي يقوم المرء فيها بعمل ينمّ عن الكرم لكن الآخرين يصورونه له من الإسراف والتبذير الممقوت؟!

أنا شخصياً أتذكر أن أحد الإخوان أهدى دورة من كتاب بحار الأنوار إلى

---

(١) الكافي: ج٥، ص٦٣.

مكتبة عامة في كربلاء. ولم تكن الدورة مطبوعة بالكامل يومذاك بل لم تبلغ مجموع الأجزاء الصادرة العشرين، ولم تزد قيمتها على عشرة دنانير، وكان المرتب الشهري للطلبة يومذاك ديناراً واحداً فقط، فكان الأخ يوفر بعض مرتبه لشراء الكتب ومنها اشترى هذه الأجزاء التي أهداها للمكتبة.

وأتذكر أنّ شخصاً آخر من أهل العلم أنّب الشخص المُهدي تأنيباً شديداً وقال: أتزعم أنّك قمت بعمل جيّد؟ وهل هذا مطلوب منك؟ وأضاف: كان يلزم عليك أن تتعلم موضع الكرم أوّلاً! واستمرّ في تقريعه والمسكين ساكت!

وهكذا الحال لو أردت الإيثار أو غيره من الأخلاق الحميدة لا يدعك مَن حولك حتى يشتبه عليك الأمر.

وهذا الفرق يختلف عن السابق حيث كنت تعلم أنّه تثبيط، أما الآن فتمويه أيضاً.

وهذا منشأ لكثير من البدع الموجودة وما نشهده من صراعات بين المؤمنين، فهل تظن أنّ أطراف الصراع من المؤمنين كلهم يعلمون ما يعملون ويعلمون أنّه عصيان؟! كلا، بل كلّ يزيَّن له أسلوبه ويتصوّر أنّه على حق.

قيل إنّ أحد العلماء كان يقول: أنا أغفر لكل من يستغيبني إلاّ الذي يفسّقني ويستغيبني فإني لا أغفر له.

فبعض الناس لو قلت له: لماذا تستغيب؟ يجيبك بالقول: "ماذا نفعل وقد اعتدنا على ذلك"، ثم يستغفر الله تعالى. ولكن بعضاً آخر يدّعي أنّ هذا من مستثنيات الغيبة، مبرراً قوله أن الشخص الذي يغتابه إنما هو رجل فاسق متجاهر بالفسق وأنه من الذين تجب غيبتهم ليحذر الناس منهم. ثم يصوّر لك الرجل الذي يغتابه مبتدعاً ويأتيك بحديث «باهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في

الإسلام، ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم...»[1]، ليزين لك غيبته.

لكن ما هي البدعة؟ ومن هو المبتدع حقيقة؟ هذا ما يموّه أحياناً على كثيرين حتى على العاصي نفسه، كمَن يشرب خمراً دون أن يعلم أنّه خمر، فهو ليس بعاصٍ وإن عمل محرماً، أو كما يقول الفقهاء والأصوليون: إنّ المعصية هنا فعلية وليست فاعلية، وأن المعصية التي إن جهر بها جازت غيبته وجاز تأنيبه هي المعصية الفاعلية. وما أكثر الحالات التي تشتبه فيها الأمور على الإنسان ويموّه عليه.

الخلاصة

هذه بعض الفوارق بين الأخلاق وبين العلوم الأخرى، ولذلك نحتاج معها إلى التوسل بالله تعالى والاستمداد منه. ولولا أن يمدّ إلينا الله تعالى يد قدرته ويحفظنا ويعصمنا لما استطعنا أن نعمل شيئاً ولا أن نصل إلى النتيجة.

هذا وينبغي لنا أن نركّز على الأخلاق حتى نصبح فيه كذي الفن الواحد وحتى نحصل على ملَكة الفضائل والأخلاق، وعلى القلب السليم، فإنّه الاستثناء الوحيد في الآية المباركة: «يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلاّ مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ»[2]. فبهذا القلب السليم نستطيع مكافحة تثبيط الناس وتمويه النفس الأمّارة بالسوء.

فمتى أيقنّا أنّ طريق الأخلاق صعب وشائك وشعرنا في كل آنٍ أنّه بحاجة إلى تفرّغ ومثابرة وصبر (بل واستمداد من الله قبل ذلك كله)، وأنّ علينا أن نحذر الانزلاق دوماً، فلنعلم حينئذٍ أنّنا بدأنا بسلوك الطريق، وأنّنا سوف نصل بالتوكل

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٧٥.

(٢) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

على الله إلى الغاية المتوخاة من بعثة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) حيث قال: «إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»[1].

نسأل الله تعالى التوفيق لي ولكم.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٨٢.

المحاضرة ١٠

أهمية التبليغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

لاشكّ أنّ أشرف مهمة في الدنيا هي مهمة التبليغ؛ لأنها مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يكلّفهم – وهم أشرف المخلوقات – بمهمة أخرى سوى التبليغ. ومن ثم إذا استطاع الإنسان أن يكون مبلّغاً لدين الله، فهذا يعني أنّه وضع أقدامه وخطاه في موضع أقدام الأنبياء (عليهم السلام) وسلك مسلكهم.

■ إلفاتة في القرآن تبيّن أهمية التبليغ

هناك إلفاتة لطيفة في القرآن الكريم تكشف عن أهمية التبليغ أقدّم لها مقدّمة وهي: أنّ الناس – كما نلاحظ عادة – مترتّبون في الأمور العامة وفق سلسلة من المراتب يتم حسبها تبليغ الأوامر من الأعلى وصولاً إلى مرحلة التنفيذ في المراتب الدنيا. أي أنّ الأعلى يأمر الذي هو دونه، وهذا يأمر الأدنى منه، والأدنى فالأدنى، حتى تنتهي سلسلة المراتب عند حلقة التنفيذ.

فنرى في الحكومات مثلاً أنّ هناك الرئيس ثم يأتي الوزراء في المرتبة الثانية، فالمدراء العامون تحت إشرافهم، فمدراء الأقسام حتى ينتهي هذا التسلسل الوظيفي عند مَن يتّصل بعامة الناس مباشرة. فإذا صدّر الحاكم الأعلى أو الرئيس حكماً فإنّه لا يأمر وزيره بأن يبلّغه إلى عامة الناس مباشرة، بل يأمره بتنفيذ الحكم وحسب. فيقوم الوزير بإصدار الأمر إلى مَن هم أدنى منه درجة، وهؤلاء بدورهم لا يترلون

إلى الشارع مباشرة بل يجمعون مَن تحت سلطتهم ويوجّهونهم بالحكم، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى المرتبة الأدنى وهم عامة الناس الذين قد يقعون في المرتبة العاشرة من سلسلة المراتب هذه أو أكثر. وهذا قانون طبيعي في كل حكم عام ودائرة وعلاقات وهو ما نلاحظه ونراه في كل الحكومات والأنظمة القائمة.

أما الإلفاتة الموجودة في القرآن فهي أنّه عندما يتوجّه الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتبليغ، يأمره الله تعالى أن يقوم هو (صلى الله عليه وآله وسلم) به مباشرة وبلا واسطة مع عامة الناس. يقول تعالى مخاطباً نبيّه الكريم: «يا أيّها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين...»[1]، و«قل للذين كفروا إن ينتهوا...»[2]، و«قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون...»[3]، و «قل يا أيها الكافرون»[4], وهكذا؛ وهذا يعني المباشرة في التبليغ.

فمع أنّ الله تعالى هو خالق كل شيء، وإله كل شيء وهو ربّ الأرباب وسيد السادة، ومع أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أشرف المخلوقات وأفضلها وأعلاها، لكنّ الله سبحانه وتعالى يطلب منه أن يقوم بمخاطبة كل الطبقات والمستويات من الناس حتى أدناها مباشرة، للحصول على الفائدة المرجوّة.

■ هدف الحوزات هو التبليغ

وليعلم الإخوة الذين ينطلقون للتبليغ والإرشاد وهداية الناس في القرى والأرياف والمدن والبلاد الأخرى في شهر رمضان وغيره أنّ الهدف المقدّس والغاية

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٢) سورة الأنفال: ٣٨.

(٣) سورة الجاثية : ١٤.

(٤) سورة الكافرون: ١.

الأسمى من دراستهم ومن كل ما تلقّوه من علوم دينية في الحوزات هو التبليغ. وحسب الاصطلاح العلمي إنّ كل ما في الحوزات العلمية مقدّمات، والتبليغ هو ذو المقدّمة.

صحيح أنّ أدوار التبليغ ووسائله قد تختلف باختلاف الحضور وتنوّعه؛ فالخطيب إذا تحدّث إلى جمهور من المثقفين تحدّث بأسلوب يختلف عما إذا كان حديثه إلى أناس أمّيين، لكن يبقى التبليغ يحظى بالأهمية في كل حالاته كما استفدنا من هذه الإلفاتة الرائعة في القرآن الكريم.

■ سيرة النبي وأهل بيته عليهم السلام تكشف عن أهمية التبليغ

هناك نقطة وإلفاتة أخرى تبيّن أهمية التبليغ نكتشفها من خلال سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

فكلّنا يعلم مدى اشتياق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للعبادة والالتذاذ بها. فلقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يشتاق إلى العبادة أكثر من أي إنسان آخر، ويلتذّ بها كما لا يلتذّ بأيّ عمل. فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) أعرف الناس بالله تعالى وأفضل مَن عرف الله عزّ وجل. ليس هذا فحسب بل لاشكّ أيضاً أنّ عبادته (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكره ودعاءه وتوجّهه إلى الله تعالى، تفوق في الفضل عبادة الناس كلهم، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم بذلك أيضاً. ففي عقيدتنا لو أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا إله إلاّ الله» مرّة واحدة فهي تعدل عند الله تعالى مليارات الصلوات والدعوات من سائر الناس.

ولكنّا نرى أنّ هذا الرسول العابد الذي أبلته العبادة حتى خاطبه الله تعالى:

«طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»[1] يرجّح في كثير من الأحيان النزول إلى الشارع أو المسجد أو البيوت للتبليغ ولهداية الناس، على العبادات المستحبة - في حقّه - حتى لقد صرف (صلى الله عليه وآله وسلم) معظم وقته بعد البعثة بالتبليغ. وما أدراك ما تبليغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فلقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يبلّغ في وسط أناس أمّيين عوام بلغت السذاجة ببعضهم لأن يمدّ رجليه ويستلقي بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول له: يا محمد حدّثنا!

انظر كيف كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يصرف أوقاته مع أشخاص كهؤلاء، كما كان يصرفها مع أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين عليهم السلام، ومع أمثال أبي ذر وعمار، الذين تقع على عاتقهم مسؤولية هداية الأمّة، وكان لهم شطر كبير من وقته صلى الله عليه وآله.

إنّ تبليغاً كهذا هو الذي صنع رجالاً عظاماً كأبي ذر وعمار والمقداد وغيرهم من الصحابة الأخيار، فمن هذا الوسط تخرّج خيار الصحابة والمؤمنون الرساليون. وهذا يعني أنّ على المبلّغ ألاّ يقْصِر تبليغه على فئة معيّنة من الناس كالمثقّفين مثلاً دون غيرهم ، بل عليه أن ينزل إلى كل فئات المجتمع وطبقاته.

صحيح أنّ على الإنسان أن يستفيد من حياته ووقته أحسن الاستفادة وبأقصى ما يستطيع، ولكن ما أدراك أن لا يصبح هذا الأمّي الذي تستصغر شأنه اليوم عظيماً من العظماء عند الله في يوم ما؟!

ومَن الذي أعلمك أنّ ذلك المثقّف الذي يبدو مهمّاً في نظرك اليوم من الناحية الاجتماعية أو العلمية وتركّز عليه في تبليغك أكثر من غيره، قد لا ينفع في شيء،

---

(١) سورة طه: ١.

وربما ارتحل من الدنيا دون أن يقدّم شيئاً ما ينفع الآخرين!!

فما دام المبلّغ لا يدري أيّة تربة ستثمر فيها الكلمة الطيبة أكثر، فعليه إذن أن يسعى لبذر الكلمة الطيبة في كل مكان ومع كل إنسان وأن يقتدي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك، فلقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يستغلّ كل الفرص للتبليغ ويدع التفرّغ للعبادات المستحبة إلى الأوقات التي لا فرصة للتبليغ فيها كمنتصف الليل، يخلو فيها مع ربّه يستمدّ منه العون والمزيد، يناجيه ويقول: «إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً». أما في النهار فكان يصرف معظم وقته في التبليغ وهداية الناس وإرشادهم.

■ كيف حوّل التبليغ بلداناً بأكملها!

إنّ للتبليغ أهمية كبرى وتأثيراً عظيماً. فإيران والعراق اللتان تعدّان اليوم مواليتين لأهل البيت - عليهم السلام - بأغلبية ساحقة، لم تكونا كذلك في السابق، بل تحوّلتا إليه بفضل التبليغ الذي نهض به رجال أفذاذ نذروا أنفسهم له وعقدوا العزم عليه.

يروي المرحوم الميرزا النوري (رضوان الله عليه) في خاتمة كتاب مستدرك الوسائل أنّ المرحوم السيد مهدي القزويني (من علماء الطائفة ومراجعها. نزيل الحلة في العراق، وزميل الشيخ مرتضى الأنصاري رحمهما الله، ت: ١٣٠٠هـ) توفّر في أواخر حياته على التبليغ وهدى عشائر كانت برمّتها غير موالية لأهل البيت عليهم السلام؛ إذ كان يذهب إلى إحدى العشائر ويمكث في مضيفها سنة كاملة يخالطهم فيها ويصلّي بهم ويحكي لهم قصصاً حتى يغيّر معظمها ويجعلهم موالين لأهل البيت (عليهم السلام) ثم يغادرهم إلى عشيرة ثانية ويمكث فيهم سنة أو أكثر حتى يهديهم الله إلى الحقّ وإلى أهل البيت (عليهم السلام) وهكذا... حتى اهتدى على يديه مئة ألف إنسان.

فعلى أكتاف أمثال هذا الرجل اهتدت الشعوب وصار العراق وإيران دولتين ذاتي أغلبية شيعية. وإلاّ فإنّ إيران مثلاً كانت سنّية أنجبت زهاء ثمانين في المئة من كبار علماء عامة المسلمين (الذين ليسوا على خط أهل البيت عليهم السلام). ثم تغيّر الوضع بفضل التبليغ حتى آل الأمر إلى أن تنجب إيران الألوف من العلماء المسلمين السائرين على خط أهل البيت عليهم السلام.

نعم، لقد كانت إيران سنّية، وكانت إحدى مدنها متعصّبة لدرجة كبيرة حتى أنّه عندما منع عمر بن عبد العزيز سبّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من على المنابر جاء أهل تلك المدينة إلى واليهم وقالوا له: إننا على استعداد لدفع الضرائب غير المستحقة على أن يسمح لنا بالاستمرار في سبّ علي بن أبي طالب لمدة ستة أشهر أخرى.

فهكذا كانت بعض المدن الإيرانية في يوم من الأيام.. ولكن هل تعلمون أنّ تلك المدينة نفسها تحوّلت تحوّلاً عظيماً بحيث احتضنت في عصر ما أكبر حوزة علمية للشيعة لعشرات السنين. أي انقلبت من مدينة معادية لأهل البيت (عليهم السلام) إلى مدينة منجبة للعلماء السائرين على نهج أهل البيت (عليهم السلام) والملايين من محبّيهم.

■ ما أكثر المؤمنين الذين صنعهم التبليغ!

لو تعمّقت في التاريخ والسير، وبحثت في أنساب كثير من المؤمنين وتسلسلت في أجدادهم لرأيت أنّ كثيراً منم ينحدر من أجداد لم يكونوا في خط أهل البيت (عليهم السلام) ولكنهم تحوّلوا إليه بفضل التبليغ، واستمرّ الخط في أولادهم وأعقابهم إلى يومنا هذا.

أنا شخصياً أعرف أشخاصاً جماعة من أهل العلم والوعاظ وأئمة الجماعة نقل لي أحدهم أن جدّه السادس لم يكن من خط أهل البيت (عليهم السلام)، م كان

من جملة الذين اهتدوا على يد المرحوم السيد مهدي القزويني فصار من الموالين والمؤمنين بأهل البيت (عليهم السلام) وعلى ذلك جرى نسله وذريته. وهكذا نشهد اليوم جماعة من المبلّغين للمذهب من سلالة الذين هداهم الله على يد السيد القزويني رحمه الله!

■ أفضلية التبليغ

من المستحبات الأكيدة الصلاة في أوّل الوقت. فلقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا حل وقت الصلاة انفتل إليها و لم يعبأ بشيء دونه. روي عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا و لم نعرفه»[1].

هب أنّ لك صديقاً عزيزاً على قلبك لم تره منذ سنوات وقيل لك فجأة إنّه ينتظرك الآن على الباب، فكيف ستهبّ للقائه تاركاً كل حديث أو عمل بيدك؛ فهكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا حضرت الصلاة تغيّر فجأة وترك كل شيء متّجهاً للقاء الله تعالى.

إذا عرفت أهمية الصلاة في أوّل الوقت تعال إذاً لنطالع الرواية التالية:

«عن داود الصرمي قال: كنت عند أبي الحسن الثالث (عليه السلام) يوماً فجلس يحدّث حتى غابت الشمس، ثم دعا بشمع وهو جالس يتحدّث. فلما خرجت من البيت نظرت وقد غاب الشفق قبل أن يصلّي المغرب ثم دعا بالماء فتوضأ وصلى»[2]. ويبدو أن الإمام كان يتحدث مع بعض المتأثرين بالخطوط

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٤، ١٧/٤٢٢٨.

(٢) وسائل الشيعة، ج٤، ص١٩٦.

الانحرافية في عصره، فاستمر على عمله التبليغي حتى فات وقت الفضيلة. وهذا يعني أنّ التبليغ مقدّم على سائر المستحبات.

فإذا اتّفقت ليلة القدر أو ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان أو المواسم الأخرى التي تكثر فيها الأدعية والمستحبّات، وزاحمت التبليغ فقدّموا التبليغ.

مثلاً: في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان يستحب قراءة سورة القدر ألف مرة، وصلاة مئة وثلاثين ركعة (من الألف ركعة في كل شهر رمضان) وتستحب أمور أخرى كثيرة، ولكن إذا زاحمت هذه المستحبات التبليغ وأردت الحصول على ثواب أكثر فقدّم التبليغ لأنّ الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) كانوا يعملون كذلك.

ويمكنك القيام بالأمرين معاً، فمثلاً: إذا كان هناك شباب مستعدون للتلقّي والهداية والتوجّه للدعاء - وكانت ليلة القدر - أمكنك أن تشترك معهم في قراءة دعاء كميل ورفع المصاحف ودعاء الجوشن الكبير... فهذا نوع من التبليغ العملي وهو مطلوب أيضاً. ولكن إذا دار الأمر بين أن تنهض بمهمة التبليغ أو تخلو بنفسك وتقرأ سورة القدر ألف مرة أو تصلّي المئة والثلاثين ركعة المستحبة وما أشبه، فالتبليغ لاشكّ أفضل. والعاقل يحاول الأخذ بالأفضل دائماً.

■ التأهّب للتبليغ

إذن على الإخوة الذين يتوجّهون إلى التبليغ أن يعلموا أوّلاً أنّ مهمّتهم هي مهمّة الأنبياء التي كانوا يصرفون عليها معظم وقتهم، وأنّهم يخفّفون بعملهم الواجب الكفائي عمّن لا تتهيّأ له فرصة التبليغ خارج الحوزة.

وعليهم أن يتأهّبوا للأمر ويتهيّأوا للأسئلة المتنوّعة التي قد يواجَهون بها، ولا يبرموا حتى من الأسئلة الساذجة وربما السفيهة التي قد يواجهون بها أحياناً، بل عليهم أن يفتحوا صدورهم للناس، فليسوا كلهم سواء.

جاءني أحد المبلّغين يوماً وقال: لقد سُئلت اليوم أغرب مسألة. قلت: وما هي؟ قال: كل شيء فكّرت فيه إلاّ هذا السؤال. قلت: وما هو؟ قال: جاءني أحد الناس وسألني عن أم عائشة ما اسمها؟ فقلت له: دعني أراجع المصادر، ثم عدت إليه وأجبته.

صحيح أنّ معرفة اسم أمّ عائشة ليس من أصول الدين ولا من الفروع ولا من الأخلاقيات ولا من آداب الإسلام ولا ولا... بيد أنّ المبلّغ ينبغي أن يكون رحيب الصدر حليماً. فلا فائدة من علم دون حلم بل قد يكون وبالاً على صاحبه - لا سمح الله -. ونحن نقول في الدعاء: «اللهمّ إنّك عليم حليم ذو أناة».

لا تردّ أحداً مهما كان سؤاله، بل استقبل الجميع، وأجب كلاًّ على مقدار عقله. ففي الأثر أنّ أحد الأشخاص جاء إلى أحد الأئمة المعصومين (عليهم السلام) وسأله عن السبب في عدم إمكان رؤية الله تعالى. ويبدو من خلال جواب الإمام (عليه السلام) أنّ السائل كان إنساناً بسيطاً فرغم أنّ السؤال عميق وله العديد من الإجابات الفلسفية والحكمية الاستدلالية العميقة، إلاّ أنّ الإمام (عليه السلام) قال له - ما معناه -: إذن لذهبت هيبته.

انظر كيف أنّ الإمام لم يردّ الشخص رغم معرفته أنّه لا يفهم الجواب العلمي لو أجابه به لأنه فوق مستواه، بل أجابه بجواب مناسب لعقله. وهذا يكشف عن الحسّ التبليغي عند الإمام (عليه السلام).

وإذا كان الأصل في أعمالنا الاقتداء بالأئمة المعصومين (عليهم السلام) وأنّ المتقدّم لهم مارق والمتأخّر عنهم زاهق واللازم لهم لاحق - كما نقرأ في أدعيتنا هذه الأيام من شهر شعبان بعد الصلوات - فلنفتح صدورنا إذن لكل الناس ونشجّعهم على طرح ما يختلج في صدورهم وما يدور في أذهانهم، فهكذا كانت سيرة النبي الأعظم والأئمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام.

■ كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم

هذا ولأسلوب المبلّغ وسلوكه أكبر الأثر في التبليغ. فمن الطبيعي أن يتناسب تأثّر الناس بنا مع أعمالنا وتصرّفاتنا وصدقنا ومطابقة عملنا لقولنا.

وليكن تعاملنا حتى مع أضعف الناس إيماناً، بنحو لا يترك لديه انطباعاً عنّا بالتكبّر. هب أنّك لست متكبّراً ولكن هذا وحده لا يكفي، بل ينبغي أن لا تترك انطباعاً يوحي بذلك أيضاً. فإن لطلاقة الوجه والبِشر والتواضع كما لجمال التعبير وحسن الاستماع وهكذا الحلم أثراً كبيراً في نفوس الناس يفوق تأثير الأقوال التي تنطلق من أفواهنا وألسنتنا وكما في الحديث كونوا «دعاة للناس بغير ألسنتكم»[1].

■ ولنراع الاعتدال في تصرّفاتنا

صحيح ينبغي للمبلّغ أن يكون طلق الوجه بشوشاً، ولكن هذا لا يعني أن يكون مفتوح الفم دائماً يضحك ويقهقه لأتفه الأسباب، لأنّه كما ينبغي للمبلّغ أن لا يكون عبوساً، ينبغي له أيضاً أن يكون وقوراً ولا يكون مبتذلاً. فلو أنّ شخصاً عامياً استخدم في عبارته إحدى الأمثال السوقية الهابطة فلا تقطب وجهك أمامه فينفضّ من حولك، ولا تشترك معه وتضحك ضحكة طويلة وعريضة فينقلب مجلسك إلى نادٍ يُتبارى فيه بإطلاق هذا النوع من الأمثال غير اللائقة. بل حاول أن تنسجم مع كلِّ مَن يوجّه إليك سؤالاً، فربّ شخص قد لا يكون له شأن أو ثقافة اليوم يهديه الله على يديك ويأتي يوم ترى مسجداً أو مدرسة دينية فيها حوزة علمية تخرّج منها علماء أسّسها ذلك الشخص الذي كانت هدايته على يديك.

وكما قلت آنفاً فلعلّ كثيراً منّا بل من العلماء والأخيار ينحدرون من أصول

---

(١) الكافي، ج٢، ص٧٧.

غير شيعية وغير مؤمنة ولكن هداهم الله فأصبحوا اليوم نجوماً في سماء العقيدة والإيمان؛ ومن الأمثلة على ذلك أحد علمائنا القدامى الذين يفخر الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه بالتلمّذ على يديه عدة سنوات، قيل إنّ جدّه كان شخصاً غير لائق، ولكن ابنه هداه الله على يد أحد المبلّغين، ورزق بولد صار فيما بعد أحد مراجع الشيعة وعلمائها العظماء فكتابه الفقهي مازال يحظى بأهمية بالغة و لم ينسخه أي كتاب علمي جاء بعده. فقد أُلّفت بعده الكثير من الكتب من قِبل علمائنا كالشيخ الأنصاري والآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.. وبعده جاء صاحب الفصول وكان معاصراً لصاحب القوانين... ومازال كتابه في القمة

فلو جاءك شخص وكان أبوه ضالاً أو طاغوتاً في حياته ثم مات أو قُتل، فلا ترفض استقباله فلعلّه يهتدي على يديك. فإنّه لم يُسمع أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طرد أحداً، أبداً حتى وحشي قاتل حمزة فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يزد على أن قال له «غيّب وجهك عنّي».

■ الخلاصة

حاولوا أن تستفيدوا من التبليغ بالأسلوب والقول جميعاً تحصلوا على نتائج جيّدة. ولا تنسوا الإخلاص منذ الآن؛ فإنّ الشيطان قد يأتي لأحدنا ويقول له: إذا أصبحتَ مبلّغاً جيّداً ونجحت في عملك فسيصبح لك مريدون مخلصون يقبّلون يديك ويرفعون الصلوات التي تزلزل الأرض عند قدومك.

وسيكون ذلك لو نجحت حقاً، ولكن ينبغي لك أن لا تقوم بالتبليغ لذلك السبب وحاول أن لا تستحضر هذا المعنى في ذهنك أبداً لأنّ الشيطان يحاول أن يقحم هذا كهدف في ذهنك فحاول أن تزيحه تربح.

نسأل الله تعالى أن يوفّقني وإياكم جميعاً لما هو المطلوب منّا ولما هو مطابق

لسيرة الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام.

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين

المحاضرة ١١ القيام لله أبلغ الموعظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى:﴿**قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكّروا**﴾[1].

هذه الآية الكريمة من عجائب آيات الذكر الحكيم، فإنّ الله سبحانه وتعالى يأمر نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لعبدة الأصنام والمشركين والنصارى واليهود وغيرهم: «إنّما أعظكم بواحدة» أي لا أطلب منكم سوى الإصغاء إلى موعظة ونصيحة واحدة فقط.

لا شكّ أنّ مواعظ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن كثيرة، بل إنّ القرآن معظمه مواعظ، كما لا شكّ أنّ كل ما أتى به الأنبياء (عليهم السلام) وما نزل عليهم يتلخّص بالقرآن الكريم فهو عصارة الرسالات السماوية كلها، كما أنّ مواعظ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تختزل مواعظ الأنبياء الذين سبقوه كافة، أي مواعظ مئة وثلاثة وعشرين ألفاً وتسعمئة وتسعة وتسعين نبياً، ولكن الله سبحانه يطلب من نبيه أن يلخّص المواعظ كلها بكلمة واحدة؛ يقول تعالى لنبيه الكريم: «قل إنّما أعظكم بواحدة» و«إنّما» - كما هو معلوم - تفيد الحصر، أي بموعظة واحدة وحسب.

فما هي الموعظة التي يأمر الله نبيه أن يقول لمخاطبيه إنّه يعظهم بها وحسب؟ تقول الآية المباركة: «أن تقوموا لله» أي أن يكون قيامكم ونيّتكم وتوجهكم

---

(١) سورة سبأ: ٤٦.

وتفكيركم خالصاً لله. ولا يراد من القيام هنا القيام للصلاة أو أداء العبادات الأخرى، بل المقصود التفكير وإخلاص النية، وبتعبيرنا المعاصر نكران الذات والتجرّد عنها وأن يكون الله تعالى هو الهدف والنية والوجهة، وليس الذات ومصالحها.

■ الإنسان بطبعه ميّال لذاته

كل إنسان يعيش على وجه البسيطة - إلاّ القليل منهم - يوقّر ذاته ويحترمها ويراها أعلى كل شيء، مع إنّ كل البلايا والمصائب وكل ظلم وتجاوز يأتي من حبّ الذات؛ وذلك عندما يحترم كل منّا ذاته في مقابل الحق سبحانه وفي مقابل الأخلاق والمجتمع والفضائل. فأكثر الأشخاص يرى الله ويرى ذاته معاً؛ يرى المجتمع ويرى ذاته معه؛ يرى الأخلاق ويرى ذاته معاً، ولذلك ترى الناس في الغالب يسحقون كل شيء من أجل ذواتهم.

فالذي يفعل الحرام أو يأكل الربا أو يظلم الناس إنّما يفعل ذلك من أجل ذاته.. فهو يريد لها المال.. يريد لها التقدير والظهور والوجاهة والزعامة وتحقيق كل رغباتها. فإذا لم يكن يرى الله وينكر ذاته تراه يسحق أحكام الله ولا يبالي، ويولي ظهره لله ولأنبيائه ويتّخذ نفسه إلهاً من دون الله.

ومن هنا كان نكران الذات وحبّ الله أساس كل فضيلة، وهذه الآية تلخص هذا المعنى. فكما أنّ الإنسان الذي يحب ذاته يرتكب كل رذيلة من أجلها [وكما في النبوي الشريف: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1]]، فكذلك يكون معرفة الله والقيام له ونكران الذات أساس كل فضيلة. فمن ينكر ذاته يترفّع عن الرذائل. وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

---

(١) بحار الأنوار: ج٥١، ص٢٥٨.

الشيخ محمد تقي الشيرازي ونكران الذات

كان المرحوم آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الشيرازي رضوان الله عليه (مفجّر ثورة العشرين في العراق ومحرّره من استعمار الإنجليز وهو في الثمانين من العمر) مرجعاً دينياً كبيراً عُرف بالورع والتقوى، حتى أنّ تلاميذه عندما كانوا يُسألون عن عدالته كانوا يجيبون: سلوا عن عصمته وهل هو معصوم أو لا —ولاشك أنه غير معصوم–. هذا الرجل العالِم الورع كان يفتي بأنّه لا يجوز استئجار غير العادل لقضاء ما فات الميت من صلاة وصيام وإن كان ثقة، بل يشترط فيه العدالة. ولا يخفى أنّ الفقهاء يختلفون في هذه المسألة، فبعض لا يشترط العدالة ويرى أنّ مجرّد الثقة بأنّ الشخص سيؤدّي هذه الصلوات والعبادات يكفي ولا يلزم أن يكون عادلاً، بينما يشترط آخرون – كالشيخ محمد تقي الشيرازي (رحمه الله) مثلاً – العدالة في الشخص الذي يتقاضى أجوراً لقاء قضاء ما فات الميت من صلاة وصيام.

ينقل المرحوم الوالد (رضوان الله عليه) أنّ أحد المؤمنين جاء يوماً إلى الشيخ (الشيرازي) وشكا عنده الفقر والعسر وطلب منه أن يحوّل إليه قضاء صلاة أو صوم عن بعض الأموات – فإنّ الورثة والأوصياء يعطونها في العادة للمرجع لكي يحوّلها إلى مَن يراه صالحاً – ولكن الشيخ محمد تقي الشيرازي (رحمه الله) اتفق أنه لم يكن آنذاك عنده من العبادات الاستيجارية شيء، فاعتذر وقال: لا يوجد عندي الآن. ولما كان السائل قد أضرّ به الفقر وضغط عليه لم يتمالك نفسه فأخذ يسبّ الشيخ (هذا العالِم الورع الذي كان تلامذته يرونه في التقوى تالي تلو المعصوم)!

وبعد بضعة أيام جاءوا للشيخ بصلاة وصيام قضاء عن الميت أي جاء له بعض المؤمنين وأعطاه مالاً لاستئجار مَن يصلّي عن أبيه مثلاً. وهنا بادر الشيخ محمد تقي الشيرازي ووجّه أحد أفراد حاشيته ليذهب بذلك المال إلى ذلك الرجل الذي سبّه لاستئجاره في قضاء هذه الصلوات!

وهنا تعجّب هذا الشخص الذي هو من أصحاب الشيخ وحاشيته وقال: شيخنا، ألستم تشترطون العدالة فيمَن يُستأجر للقضاء عن الميّت؟ قال: بلى، فقال: ولكن هذا الرجل على فرض أنّه كان عادلاً ولكنّه فقد العدالة عندما سبّكم وكلنا نعلم أنّ سبّ المؤمن حرام، وارتكاب الحرام مسقط للعدالة. ولا شكّ أنّه يصدق على الشيخ أنّه مؤمن، فضلاً عن أنّه مرجع تقليد ومضرب المثل في الورع والتقوى.

فتبسّم الشيخ ثم قال: سبّ الفقراء للعلماء غير مسقط للعدالة. اذهب وأعطه المال؛ فإنّه لم يكن ملتفتاً حينما سبّ.

أجل إنّ مَن تملّكه حالة الغضب لا يشعر ما الذي يقول، وخاصة الفقير الذي لا يدري كيف يرجع بلا قوت إلى عائلته، وهو لا يتوقع الرد من العالم..

أجل، كل هذا صحيح، ولكن لو لم يكن نكران الذات عند الشيخ (رضوان الله عليه) لما قال إنّ الرجل لم يكن يشعر حين شتمني! خاصة وأنّه غير مستعد لتحمل مسؤولية قضاء صلاة الأموات وصيامهم من أجل فذلكة خلقية، لكنه شخّص أنّ هذا الرجل غير فاسق، وإلاّ لما أعطاه المال لقضاء الصلوات وهو المشترط للعدالة في هذا الأمر.

أمثلة على حب الذات

هكذا يفعل نكران الذات. تعالوا الآن وانظروا في الطرف المقابل إلى الرؤساء والحكّام في الدنيا. إنّ شتيمة واحدة توجّهها للحاكم كفيلة بأن تطيح برأسك، أو تعرّضك للتعذيب. وربّما تعرِّض أبناءك وإخوتك وعشيرتك وأصدقاءك إلى التحقيق والتعذيب والاستجواب بسببها.

لقد أصدر الحاكم العسكري العام في العراق أيام عبد الكريم قاسم قانوناً بالسجن لمدة عشر سنوات لِمَن يسبّ الزعيم (عبد الكريم قاسم). وأُخذ كثيرون وسجنوا بالظنّة والتهمة أيضاً.

وقد طالعتنا مجلة معروفة أنّ أحد المجرمين الجلاوزة أذاق اثنين من المؤمنين أنواع التعذيب ولمدة شهرين حتى فارقا الحياة، ثم تبيّن له بعد ذلك أنّه كان مشتبهاً بهما وأنّ آخرَين كانا هما المقصودين!

تصوّر كيف تنقلب المعادلة عندما تصبح الذات هي الحاكمة. إنّ الاحتمال وحده يكفي لقتل الناس وظلمهم! لماذا؟ لأنّ نكران الذات غائب. والذات تقول أنا كل شيء. أمّا الذي عنده نكران الذات فيقول: الله أكبر وهو فوق كل شيء.

نكران الذات مصدر كل الفضائل

إنّ نكران الذات مصدر كل الفضائل، ومن ثم لخّص القرآن الحكيم هذا الأمر فقال: «قل إنما أعظكم بواحدة»، أي لا حاجة إلى كلام كثير ومواعظ جمّة بل موعظة واحدة تكفي إن التزمتم بها؛ لأنّها خلاصة المواعظ كلها.

إنّ مَن أنكر ذاته لا يرجّح المال على الله، ولا يرجّح الشهوات ولا البطن ولا الشهرة ولا التجارة على الله. وهذا لا يعني أن يترك الإنسان الدنيا ويتخلّى عنها فإنّ الله خلق الدنيا للمؤمنين وهم أَولى بها من الظالمين وأعداء الله؛ فإنّها خلق الله والمؤمنون أولياء الله، ولكن المقصود أن لا تملكهم الدنيا بل يملكوها ويأخذوا منها ما استطاعوا على أن يكونوا في الوقت نفسه مستعدّين للتخلّي عنها لو دار الأمر بينها وبين الله وأحكامه. ففي الحديث: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً وإنما الزهد أن لا يملكك شيء»

المؤمن يلزم جانب الله دوماً كلّما حدثت معارضة بين الذات وبين الله. قد يجمع المؤمن الملايين من الأموال، ولكنّه بمجرّد أن يشعر أنّ هذا المال قد يؤدي به إلى جهنّم وسخط الله يترفع عنه ويتخلى عنه بكل سهولة ويصرف النظر عنه كله. وهكذا الحال مع الأولاد والنساء وأكل الطيّبات و...

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) في آية أخرى: ﴿قل الله

ثم ذرهم﴾[1]، أي قل للمشركين إنّ الله وحده بيني وبينكم، فنظري وفكري كله منصرف إليه.

وأكرّر القول إنّ هذا لا يعني أن لا تأكل ولا تشرب ولا تملك ولا تلبّي رغبات بدنك.. بل المقصود أن لا تكون هذه الأمور معلّقة بقلبك يتوقف قلبك إن حُرمت منها، وبحيث تضحي بكل شيء من أجلها وتسحق كل خلق وفضيلة في سبيلها.

■ مثنى وفرادى

يقول الله تعالى: وليكن قيامكم لله مثنى وفرادى. أي ليكن توجهكم إلى الله ونكرانكم للذات سواءً حال كون بعضكم مع بعض، أو بصورة انفرادية، كأن يجلس أحدكم وحده، في جوف الليل مثلاً، ويفكّر ولو قليلاً، ويتساءل مع نفسه: مَن أنا؟ أنا لا شيء وليس عندي شيء، وكل ما عندي فهو من الله، لم أكن أملكه يوماً ولم أكن أملك أيّ شيء، ثم ملّكني الله كل ما أملك. وسأعود مع كل ما أملك إلى الله مرّة أخرى (إنّا لله وإنّا إليه راجعون).

■ واقعة فيها عبرة

لقد شهدتُ هذه القصة بنفسي وتركتْ أثرها فيّ حتى لكأنّي أرى الحالة أمامي الآن!

كنّا جالسين على مائدة للغداء أيام كنا في كربلاء، وكان يجلس شخص إلى يساري وآخر إلى يميني.

وضع الشخص الجالس عن يساري لقمة من الطعام في فمه - وكان خبزاً مع الكباب المشوي - وشرع يلوكها ويحضّر لقمته الثانية حيث لفّ مقداراً من

---

(1) سورة الأنعام: ٩١.

الكباب في الخبز وهمّ برفعها إلى فمه عندها لاحظنا يده تسقط تلقائياً إلى الأرض ثم سقط هو أيضاً. عندما هرع الجالسون ليعرفوا ما الذي حدث له، رأوه قد فارق الحياة إثر سكتة قلبية، وكانت اللقمة الأولى مازال قسم منها في فمه، فأخرجها من بين أسنانه بعض الجالسين بصعوبة. وفارقَنا الرجل وفارق الدنيا منذ ذلك اليوم وإلى يوم القيامة.

أنا لا أنسى هذا المشهد ما حييت، وكل مَن كان بمكاني قد لا ينساه أيضاً، ولكن عندما يأتي وقت المعصية ينسى الإنسان كل شيء!

العمل بالآية

الآية الكريمة تدعونا إلى التذكّر والتفكّر دائماً مثنى أي مع بعض، وفرادى أي إذا خلونا بأنفسنا خاصة إذا هدأت العيون. فليفكّر كل منا مع نفسه ويقول: مَن أكون لكي أظلِم أو أوذي الناس أو أفعل المحرّمات؟ ثم إلى ماذا سيكون مصيري؟ وأين أبي وجدّي وأقربائي وأصدقائي الذين عاشرهم ثم مضوا؟ فهل سأبقى أم سأرحل مثلما رحلوا؟ أكُتبَ الموت والحساب لهم دوني أم كلّنا ملاقٍ هذا المصير؟

هذا التفكير هو خلاصة مواعظ القرآن الكريم.

وحقاً إنّ مَن يصبح عنده وجدان كهذا - أي يجد هذا الشيء من نفسه - ويفكّر بهذه الصورة قد يستحيل أن يقدم على المعصية. وهل مصدر المعصية والظلم إلاّ حب الذات، فالذي يتّخذ هواه إلهاً فإنه همّه ذاته قبل كل شيء ولا يكترث إن عصى الله في هذا السبيل، فالمهمّ عنده توقير ذاته و تلبية رغباتها وتحقيق احترامها! أمّا الإنسان المنكر لذاته فهو يرى الله تعالى. يقول الإمام الحسين (عليه السلام) مخاطباً ربه تعالى: «عميت عين لا تراك»[1]، العين التي ترى الله لا تعصي الله أبداً،

---

(١) بحار الأنوار ج٦٤، ص١٤٢، وج٩٥، ص٢٢٦، وهو دعاء الإمام الحسين يوم عرفة.

والمقصود عين البصيرة.

ويقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»[1]. فمع أنّ هذا الأمر – أي سلب النملة– ليس معصية، ولا يقول فقيه إنّه عمل محرّم بحيث إنّ الشخص العادل يفقد عدالته لو ارتكبه، بل هو عمل غير لائق.. ومع ذلك يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إنّه غير مستعدّ لارتكابه حتى لو أُعطي الدنيا كلها!

لقد عرض القوم على الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يقول: «أسير بسيرة الشيخين» على أن يضرب بقوله هذا عرض الجدار بعد استلامه الخلافة، ولكن الإمام (عليه السلام) رفض وفضّل أن تخرج الخلافة من قبضته – لا بل فلتذهب الدنيا كلها ويصبح العالَم كله ضده– ولا يتخلّى عن مبادئه، وهل هذا إلاّ بسبب نكرانه لذاته؟!

■ الخلاصة

إنّ التوجّه لله أهم كل شيء.

النقطة التي تجبرك على أن تتوجّه في صلاتك، وتمنعك عن أكل الحرام، و النظر الحرام والاستماع الحرام والنطق الحرام وظلم الناس وإيذائهم، والتي ركّز عليها القرآن هي «أن تقوموا...» فهذه نقطة أساسية يجب علينا الانتباه إليها أكثر من أيّ عمل مستحبّ أو خلق مستحبّ آخر، لأنّها جامعة لكل الفضائل.

أسأل الله التوفيق لي ولكم.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٤٦.

أهمية أحكام الله تعالى

المحاضرة ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا عنه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين».

لاشك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أفضل الخلق وأعزهم عند الله تعالى، فهو أشرف المخلوقات، بل إنّ الله تعالى ما خلق الخلق إلاّ لأجله صلى الله عليه وآله، وهو الذي قال له يخاطبه ليلة المعراج - كما في الحديث القدسي -: «يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك»[١].

كما لا شك أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينطق عن الهوى - كما عبّر عنه ربه الكريم - ولا يخون رسالة ربه. ولكن الله تعالى أنزل هذه الآيات ردّاً على جماعة من المشركين كذّبوا النبي وكانوا يقولون: إنّ الله لم يوحِ إليه بشيء وأنه يتقوّل على الله، أي ينسب أقوالاً إلى الله لم يقلها الله سبحانه. فلم يردّ الله تعالى في هذه الآيات على هذه المزاعم فحسب بل شدّد في التعبير أكثر من ذلك موضحاً أنّ هذا النبي على عظمته وعلوّ مقامه لو تقوّل علينا بعض الأقاويل - وليس القرآن كله أو النبوة كلها - بل لو أخبر عن أمور بسيطة قال إنّ الله قالها ولم نقلها، فإنّنا سنقطع يمينه وقدرته، ووتينه وهو العرق الكبير في الجسم الذي

---

(١) سورة الحاقة / ٤٤

(٢) بحار الأنوار، ج١٦، ص ٤٠٥ .

بانقطاعه يموت الإنسان، ثم لا يستطيع أن يحول بيننا وبينه أحد!!

حقاً إنّ هذه الآيات من أعجب آيات القرآن وتستدعي التأمل كثيراً، إذ يتحدث الله بهذه الشدة عن أحب الخلق إليه عندما يتعلق الأمر بأحكامه تعالى. وهذا يكشف عن أنّ أحكام الله تعالى وحدوده أحب وأعظم وأكبر عنده من كل شيء، حتى أوليائه المقرّبين ورسله والناس أجمعين.

قد يتساءل: كيف؟ أقول: لقد أخبر الله تعالى في مواطن عديدة من القرآن الكريم أنّه بعث أنبياء إلى الأمم لتبليغ أحكامه ورسالاته، لكن الناس قتلوهم واستهزءوا بهم ونكّلوا بهم. وهذا يعني أنّ الله تعالى كان يقدّم أنبياءه وأولياءه وكذلك الأئمة المعصومين (عليهم السلام) قرابين على طريق أحكامه وضحايا من أجل رسالاته. ولاشكّ أنّ ما يُضحَّى له أغلى مما يُضحَّى به. فلو أنّ أحداً مرض - لا سمح الله - فإنّه سيبذل ماله من أجل استعادة صحته، مما يعني أنّ الصحة أغلى عنده من المال، وأنّ الأقل قيمة يضحّى به في سبيل الأعلى قيمة.

لنتأمل جيداً في الآيات، لا يقول الله تعالى إنّ أحكامه أغلى من حبيبه فحسب بل يستعمل شدة في التعبير توحي إلى السامع أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أشرف الأوّلين والآخرين، يبدو لا شيء إلى جنب أحكام الله تعالى، بحيث لو أراد أن يتلاعب بها أدنى تلاعب أو ينسب إلى أحكام الله ما لم يقله، فإنّه سيأخذه بهذه الكيفية!

إذا لم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليوم فينا - وهو حي عند الله - فإنّ أحكام الله تعالى موجودة بيننا، فكيف سنحافظ عليها؟

وإذا كان الله تعالى يتحدث عن سيد رسله مقابل أحكامه بهذه الكيفية، فما بالك بي وبأمثالي بل وبمراجع التقليد مثلاً، أو غيرهم من سائر الناس؟

إنّ أحكام الله تتمثّل في حلاله وحرامه، في آياته وتشريعاته، في القرآن الكريم والروايات المعتبرة، وفي المسائل الشرعية الموجودة في الرسائل العملية التي أتعب

العلماء أنفسهم في استخراجها من القرآن الكريم وكلمات المعصومين عليهم السلام.

■ تقدير الله للعلم والعلماء

ومن تقدير الله لأحكامه تقديره تعالى للعلم والعلماء، فهم حفظة الأحكام وبالطبع الله تعالى يقدّر حفظة أحكامه والعاملين بها أكثر مما سواهم. فقد قال تعالى في وصف العلماء: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء»[1].

كما ذكر تعالى العلم في القرآن أكثر من أيّ شيء آخر إلاّ اسمه الكريم «الله» تعالى حيث كان له الصدارة في القرآن، ثم يأتي بعده مباشرة كلمة «العلم» وليس الصلاة والصيام والجهاد أو قصص الأنبياء و...

فمما نُقل من تقدير الله للعلماء ما حكي عن بقاء جسد الشيخ الصدوق (رحمه الله) طرياً رغم مرور أكثر من ألف عام على موته.

الشيخ الصدوق (رحمه الله) هو من علماء الطائفة الحقة واسمه محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. يمضي على وفاته اليوم أكثر من ألف سنة، وهو مدفون في إيران عند مزار السيد عبد العظيم الحسني في مدينة ري. أُريدَ تعمير مقبرته في العهود الأخيرة فحصل ثقب أو حفرة في القبر فظهرت على أثره جنازة الشيخ الصدوق غضّة طرية وكأنه مدفون لتوّه رغم مرور كل هذا الزمان على وفاته!

قد يقول قائل: ماذا يستفيد الشيخ الصدوق من بقاء جسده طرياً وهو غير حالٍّ فيه؟

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

لكنّا نقول في الجواب: إنّ هذا نوع من التقدير لما قدّمه من الأعمال، كما نمتثل قائمين مثلاً للمرجع إذا دخل؛ إشعاراً منا بتقديره واحترامه، مع أنّ قيامنا نفسه غير مؤثر بحالنا ولا حال الشخص الذي نقوم له.

للشيخ الصدوق (رحمه الله) كتاب ثمين جداً يسمى «ثواب الأعمال وعقاب الأعمال» جمع فيه جزاء الأعمال الحسنة كالصلاة والصدقة والصبر وغيرها تحت عنوان ثواب الأعمال، وجزاء المحرمات والأعمال السيئة كالغيبة والكذب وغيرهما تحت عنوان عقاب الأعمال.

يروي الشيخ الصدوق في هذا الكتاب أحاديث في ثواب مَن قلّم أظافره في يوم الخميس، ومن قلّمها يوم الجمعة. ثم يقول الشيخ (رحمه الله): من الأفضل للإنسان إذا أراد أن يحصل على الثوابين أن يقلّم أظافره يوم الخميس إلاّ بعضها يتركه ليوم الجمعة.

وعندما رئي جسده بعد أكثر من ألف عام طرياً تحت التراب لوحظ أنّ أصابعه كلها مقلّمة إلاّ إصبعاً واحدة كان قد تركها ليوم الجمعة إلا أن الأجل لم يمهله.

إذا كان يوجد في التراب خاصية لو دفن فيها الحديد لأكلته - كما نعلم - فلماذا بقي ظفر هذا الرجل العالِم مع جسده حياً كل هذه السنين بقدرة الله تعالى؟ إلاّ تقديراً منه تعالى لحفظة أحكامه! فكم سيكون سخطه علينا لو فرّطنا في أحكامه؟ وكم سنكون مقرّبين منه تعالى لو قدّرنا تلك الأحكام؟!

هناك عالِم آخر من علماء الطائفة هو السيد مهدي بحر العلوم (رحمه الله) توفي قبل أكثر من مئتي سنة وهو مدفون في النجف الأشرف - قرب مسجد الطوسي رحمه الله - في شارع الطوسي وهو الشارع الممتد من باب صحن المولى أمير المؤمنين (عليه السلام) والمسمّى بباب الطوسي متجهاً إلى مقبرة وادي السلام.

نقل القصة في وقتها مَن شاهدها عياناً وكان أحد طلبة المدرسة الهندية -

سابقاً - في كربلاء المقدسة يسمّى الشيخ عباس القمي، يقول:

كنت في النجف الأشرف نازلاً في مدرسة قوام - وهي مدرسة للعلوم الدينية بالقرب من قبر السيد بحر العلوم - وكان العمال مشغولين بالحفر عندها جاءوا إلى أحد أحفاد السيد بحر العلوم وهو السيد محمد تقي بحر العلوم وقالوا: لقد لقينا جنازة جديدة.

يقول الشيخ عباس القمي راوي القصة: فجاء السيد وأنا معه، فنَزلت إلى القبر فوجدناها جنازة السيد مهدي طرية بحيث عندما وضعت يدي على الجسد ثم رفعته فوجئت أنّه كان يشبه البدن الحي الذي لو ضغطت عليه فترة ثم رفعت يدك فإنّه يبيض أوّلاً ثم يعود للاحمرار بسبب جريان الدم فيه مجدداً.. وكان حال السيد أشبه بشخص نام من ساعتين!

فهذا من تقدير الله للعلماء الزهاد من حفظة أحكامه.

■ قيمتنا عند الله يحددها دفاعنا عن أحكامه

إنّ أعظم قيمة لنا عند الله تعالى يتحقق بمقدار ما ندافع عن أحكام الله وبمقدار ما نعمل بها ونطبقها على واقع سلوكنا عملياً، وبمقدار ما نحفظ أحكام الله لكي نبلغها إلى الأجيال القادمة.

يقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لسبطه الإمام الحسين (عليه السلام): «وإنّ لك في الجنة درجات لا تنالها إلاّ بالشهادة»[1]. ماذا فعلت شهادة الحسين إلاّ أنها أبقت على الإسلام، أي حفظت أحكام الله من الضياع في زمن يزيد بن معاوية.

وهكذا مجالس الحسين (عليه السلام) فهي استمرار لأحكام الله ودعم لها وللقرآن والسنّة وأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٨٢.

ترانا هل نقيم لأحكام الله وزناً كما يقيم بعضنا للدرهم والدينار؟ إنّ بعض الناس لو سمع بوجود مال وضيع مَرميّ في مكان ما، بحَث عنه وسعى للحصول عليه، ولكن إذا قيل له إنّ الشيء الفلاني حرام أجابك: هل هذا كل ما في الأمر؟ فهو لا يقيم وزناً لأحكام الله حتى بمقدار عشرة دنانير يركض خلفها ويبحث عنها حتى لمجرد احتمال حصوله عليها.

إنّ مَن لا يكرم أحكام الله تعالى فلا كرامة له عند الله، لأنّ الله تعالى أحكامه أعزّ شيء عنده. صحيح أنّ الله تعالى إحسانه عظيم ولطفه عميم فهو يشمل المؤمن والكافر برزقه وعطفه في الحياة الدنيا، لكن هذا لا يعني تكريماً للكافر بل هو يشبه الدعوة العامة لوليمة تدعو إليها، وقد يحضرها مَن لا تحب رؤيته، لكنك لا تمنعه لأنّ الدعوة عامة، ولا يُعد ذلك تكريماً له للسبب نفسه.

إذن لنقرّر من الآن فيما بين أنفسنا وبين ربنا - والله على ما نقول ونسمع ونعقل ونقرّر شهيد - أن ندافع عن أحكام الله، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، في البيت، ومع الأصدقاء، والجيران والغرباء بالمقدار الذي نتمكن. ليس المطلوب منا أن نجرد سيوفنا ونحارب بل ليكن سلاحنا الكلمة الطيبة نقولها، فإن سُمعتْ منا فبها ونعمت، وإلاّ نكون قد أدينا ما علينا وأبرأنا ذمتنا.

كذلك فلنبدأ من الآن فصاعداً بحفظ أحكام الله وتعلّم المسائل الشرعية حتى تلك التي لا يجب علينا تعلّمها، فلنتعلّمها أيضاً. هب أن تعلم أحكام الزكاة والتجارة ليست واجبة عليَّ ولكن ليكن تعلّمي لها من أجل حفظها ونشرها.

ليأخذ أحدنا الرسالة العملية ويقرّر أن يحفظ عدة مسائل منها كل يوم، في مختلف الأبواب، فيعرف حكم الله في التجارة والزراعة والصلاة والأراضي ومعاشرة الإخوان والجيران والأرحام والوالدين والأولاد؛ فإنّ أصحاب الأئمة (عليهم السلام) لم يكونوا كلهم فقهاء متفرغين بل كان فيهم البقال والكاسب والتاجر والطحان والقصاب والتمار، ومع ذلك حفظوا لنا هذه الروايات وحفظوا

لنا الأحكام حتى هذا اليوم.

أنت أيضاً إذا استطعت أن تحفظ بعض الأحاديث ثم تقوم بطبعها ونشرها فاعمل، لعلّ الله يهدي بك بعض الناس ويبقى لك ثوابه.

إذن لنوقّر أحكام الله أوّلاً، ولنطبقها في حياتنا ثانياً، ونسعى في تقليل تخلّفنا عنها، ولنحاول الرجوع إلى الرسائل العملية ونقوم بتعلّم وحفظ عدة مسائل من مسائل الأحكام والحلال والحرام كل يوم، لأنّنا إذا عملنا ذلك كان مقامنا عند الله أعزّ من كل شيء لأنّا نكون قد وقّرنا أحكام الله، وأحكام الله مكانتها عند الله لا يضاهيها شيء أبداً.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.



المحاضرة ١٣

أحكام الله فوق كل شيء
والشعائر الحسينية جائزة شرعاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: «**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين**»[1].

ذكرنا - في المحاضرة السابقة - أنّ بعض المشركين ادّعى أنّ هذا القرآن ليس من عند الله وأنّ النبي جاء به من عند نفسه، فردّ الله تعالى عليهم بهذه الآيات، وقلنا إنّ هذه الآيات من الآيات العجيبة في القرآن، فإنّه كان يمكن أن يكون الجواب بصياغات أخرى كأن يقول الله تعالى - مثلاً -: إنّ هذا الرسول صادق وأمين كما تعرفونه، فكما لا يكذب عليكم لا يكذب على ربه. وكان يمكن أن يطرح القرآن الجواب على هذه التهمة بالقول إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سبيله سبيل سائر الأنبياء، فأيّ نبي كذب على ربه ليكذب هذا النبي الخاتم؟

تفسير مفردات الآية

لاحظوا تفسير مفردات الآية. في اللغة: «قال عن فلان»، أي نقل عنه قولاً له، و «تقول عليه» أي نسب إليه قولاً لم يقله.

إذن يكون تفسير قوله تعالى «**ولو تقوّل علينا**»: لو أنّ هذا النبي نسب إلينا

(١) الحاقة: ٤٤-٤٧.

قولاً لم نقله، وليس شرطاً أن يكون تقوّله كل القرآن، بل لو تقوّل علينا «**بعض الأقاويل**» أي كذب علينا – حاشاه – حتى كذبة واحدة، كأن يضيف آية واحدة مثلاً على آيات القرآن التي تعدادها ستة آلاف وستمئة وستة وستون آية.

«**لأخذنا منه باليمين**»: اليمين في اللغة: اليمن والبركة، واليد اليمنى، وتستعمل بمعنى القوة والقدرة أيضاً؛ وذلك لأنّ أكثر من سبعة وتسعين في المائة من الناس يعتمدون على هذه اليد –كما في بعض التقارير–. ففي هذه اليد إذاً اليمن والبركة أي استمرار الحياة، وفي هذه اليد القوة والنشاط والعمل. والمقصود بالآية اليد اليمنى والقدرة والسيطرة. فيكون المعنى: لو فعل ذلك إذاً نقطع يده اليمنى ونسلب عنه قدرته.

يقول الله تعالى في آيات أخرى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما»[1] –طبعاً بعد توفر الشروط العشرين المذكورة في الكتب الفقهية كشرح اللمعة والتبصرة وتسهيل الأحكام وغيرها – وأوّل ما تقطع يمينه، ولا يكون القطع من الزند، بل تقطع الأصابع الأربعة فقط و يترك له الكف يستعين بها ويسجد عليها، «وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً»[2].

فمَن قطع يد سارق من الزند فهو أعظم جرماً عند الله من السارق نفسه، لأنّ السارق تحدى بصورة فردية حكماً شرعياً واحداً، أما مَن طبّق حكماً من عند نفسه ونسبه إلى الله فقد ارتكب وزراً عظيماً دونه السرقة بكثير.

نعود إلى الآية موضوع المحاضرة، يقول الله تعالى بحق أحبّ الخلق إليه وأشرفهم عنده «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين» أي عاملناه معاملة السرّاق!

---

(١) المائدة: ٢٣.

(٢) الجن: ١٨.

ومن هنا قلنا إنّ هذه الآيات من أعجب ما في القرآن بل لعلها أعجب من كل ما في القرآن، هي وآيات أخرى في مقام آخر في الموضوع نفسه ولكنها تتعلّق بمسائل العقيدة، وهي هنا عامة تشمل الأحكام.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يقول تعالى بعد ذلك:

«**ثم لقطعنا منه الوتين**» أي قطعنا شريان حياته. فإنّ الوتين هو حبل الوريد الذي ورد في آية أخرى في قوله تعالى: «ونحن أقرب إليه» أي إلى الإنسان «من حبل الوريد»[1].

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يقول الله تعالى أيضاً:

«**فما منكم من أحد عنه حاجزين**»: أي لو أننا أردنا أن نفعل ذلك مع أشرف الأنبياء فإنّ أياً منكم - أيها المسلمون، يا أمّة رسول الله ويا مَن تعتزون به - لا يتمكن أن يدافع عنه أو يكون حاجزاً يمنعنا عن إنزال هاتين العقوبتين به. لماذا؟ لأنّ أحكام الله تعالى بهذه المثابة من الأهمية!

التلاعب بأحكام الله من أكبر الكبائر

إذا كان هذا حال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فما حال غيره من الناس ولا يوجد أحد في مستواه. فإنّ أشرف الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الإمام علي (عليه السلام) بإجماع المؤرخين المسلمين وغيرهم - فحتى الذين لا يقولون بعصمته وأنّه الإمام الأوّل بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقولون بأفضليته على سائر الأصحاب – ومع ذلك كله عندما سئل: أفنبيٌّ أنت؟ قال في الجواب: «ويلك إنّما أنا عبد من عبيد محمد»[2].

---

(١) ق: ١٦.

(٢) الكافي: ج١، ص٨٩.

أقول: إذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يستطيع أن يتصرف في أحكام الله تعالى، لا بل يكون مستحقاً لهذه العقوبة الضخمة لو فعل ذلك مع أنّه أشرف المخلوقات، فكيف الحال بغيره؟!

نستنتج من هذا العرض المختصر أنّ أحكام الله هي أهم شيء عند الله تعالى، وأنّ التلاعب بها يعدّ أكبر جريمة عند الله كما عبّر عنها القرآن.. ويهون عندها كل الجرائم والمعاصي! فمن أكبر الكبائر أن يقول شخص: إنّ هذا حلال وهذا حرام كذباً على الله ومن دون علم.

الفقهاء لا يفتون إلا بعد استفراغ الجهد

إنّ مَن يراجع كتب الفقه يدرك هذه الحقيقة بجلاء. فهناك على سبيل المثال أخذ وشد طويل وعريض ونقاش حاد بين فقهاء الإسلام منذ أربعة عشر قرناً وحتى اليوم حيال الإفتاء طبق روايةٍ أحد رواتها مجهول الحال. فمثلاً لو وردت رواية عن المعصوم عبر عشرة رواة كان تسعة منهم ثقات ولكن كان يقع في هذه السلسلة شخص واحد مجهول الحال أي لا نعلم هل هو ثقة أم لا. هنا يتوقف الفقهاء في الإفتاء طبق هذه الرواية، لأنّه لا يجوز القول إنّ حكم الله في مسألة هو كذا أو كذا دون دليل ومستند، فإذا كان الأمر كذلك فهل يحق بعد ذلك لمن ليس اختصاصه الفقه أن يعطي رأياً في أحكام الله فيحلل ما يشاء ويحرّم ما يشاء.

لقد سمعت شخصياً من المرحوم الوالد (رضوان الله عليه) أنّه كانت هناك مسألة من مسائل الحج - لا يهمنا ذكرها الآن - وقعت مداراً للبحث بين مجموعة من المجتهدين، منهم مراجع للتقليد، وهم السيد الوالد (رحمه الله) نفسه والسيد آقا حسين القمي (رحمه الله) والشيخ محمد رضا الإصفهاني (رحمه الله) والسيد زين العابدين الكاشاني (رحمه الله)، واستمر البحث لمدة ثلاثة أسابيع و لم يستطيعوا نهاية المطاف أن يقطعوا فيها بالحرمة فأفتوا فيها بالاحتياط؛ مع أنّهم جمهرة من المجتهدين

قضى كل منهم عشرات السنين من عمره حتى صار خبيراً في الفقه وصار استنباط الأحكام شغله واختصاصه، لكنهم مع ذلك توقفوا عندما أعوزهم الدليل و لم يتعجلوا في إصدار حكم، فإن الجاهل هو الذي يصدر الأحكام هكذا اعتباطاً، أما المتخصص فهو يدرك أهمية الموضوع ولا يستهين بأحكام الله ويطلقها جزافاً لأنّه يعرف عظمتها وأنه سيكون مسؤولاً أمام الله الذي تحدث عن نبيّه بتلك الشدة، فقال: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل...» الآيات، فكيف بغيره من الخلق؟!

الشيخ المفيد مثالاً للخوف من الفتيا

لقد كان الشيخ المفيد (رضوان الله عليه) من كبار علماء الطائفة، عاش قبل أكثر من ألف عام في الغيبة الصغرى للإمام الحجة (عجل الله فرجه)، وكان يحضر حوزة درسه في بغداد العلماء من مختلف الطوائف والملل من السنّة والشيعة والنصارى واليهود والصابئة. ورد في تاريخه أنه سئل يوماً في حكم امرأة حامل ماتت والولد ينبض في رحمها، فقال: يُشق الجانب الأيمن من البطن ويُخرج الولد ثم تدفن الأم. ثم تبيّن أنّه أخطأ في جوابهم، فكان ينبغي أن يقول بشق الجانب الأيسر، فأسف على إفتائه وقرّر أن لا يفتي أحداً بعد ذلك.

فمع أنّه لم يثبت طبياً وجود فرق في شقّ بطن الميت الحامل سواء كان من الجانب الأيمن أم الأيسر لا بالنسبة للميت ولا للجنين، ومع أنّ الشيخ المفيد لم يكن عامداً بل صدرت منه الفتوى بخلاف الحكم الشرعي خطأ وسهواً، وكل الناس معرّضون للخطأ إلاّ المعصومين وهم الأنبياء والأئمة الاثنا عشر وسيّدة النساء فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، إلاّ أنّ الشيخ المفيد تألّم إلى درجة بحيث قرّر ترك الإفتاء خشية الوقوع في الخطأ ثانية والقول بما لم يحكم الله – وإن لم يكن عامداً –.

هذا والشيخ المفيد بلغ درجة مع العلم والفضل بحيث كان مرجعاً ليس للشيعة

وحدهم بل كان يرجع إليه المسلمون وغيرهم وينهلون من علمه. ولقد نُقل في الكتب أنّ الإمام الحجة (عجل الله فرجه) نعاه بنفسه عندما توفي وكتب على قبره:

لا صوت الناعي يفقدك إنّه　　　يوم على آل الرسول عظيم

عالِم بهذه المنْزلة يحذر من تكرّر الخطأ منه فيجلس في بيته ويغلق عليه بابه ويقرّر عدم الإفتاء، دون أن تنفع معه توسلات المراجعين، حتى بعث إليه الإمام صاحب الزمان (عجل الله فرجه) في أحد الأيام شخصاً وقال له: يقول لك الإمام: أفِد يا مفيد، منك الفتيا ومنّا التسديد. وقال له: إن الإمام بعثني خلف الجماعة الذين استفتوك وقلتُ لهم: إنّ الشيخ يقول: "لقد أخطأت"، فشقّوا البطن من الجانب الأيسر. عندها أرسل الشيخ خلف الجماعة ليتأكد من الموضوع، فقال لهم: ماذا عملتم بالمرأة الحامل؟ قالوا: شققنا بطنها من الجانب الأيسر كما أخبرنا هذا الشخص الذي أرسلته خلفنا. بعد ذلك عاد الشيخ المفيد للإفتاء.

العوام والإفتاء في الشعائر الحسينية!!

إذا عرفنا هذا الاحتياط من العلماء في صدور الأحكام فلنلق نظرة إلى واقعنا، وخاصة عندما يحلّ شهر محرم الحرام وذكرى استشهاد أبي الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام)، ترى العجب العجاب، فما أكثر المتصدين للإفتاء من عوام الناس في هذه الأيام. فهذا يقول إنّ لبس السواد حرام، وذاك يقول بحرمة اللطم على أبي عبد الله، وآخر يحرّم التطبير، مع أنّ أحداً من المجتهدين لم يقل بحرمة أيّ من الشعائر الحسينية؛ ذلك أنّ المجتهد لا يصدر الحكم هذا جزافاً وبسرعة بل ربما أتعب ثلة من المجتهدين أنفسهم ثلاثة أسابيع - كما قلنا - دون أن يخرجوا بحكم قاطع واكتفوا بالاحتياط، أمّا الجهلة من الناس فهم الذين يتسرعون في إصدار أحكام ليس من شأنهم ولا من اختصاصهم ولا يبالون!

فكيف يمكن أن يكون اللطم على الإمام الحسين (عليه السلام) حراماً وهذا

هو الشاعر دعبل الخزاعي ينشد أشعاراً في رثاء الإمام المظلوم (الحسين عليه السلام) بمحضر الإمام الرضا (عليه السلام) ويقول فيها:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً ... وقد مات عطشاناً بشط فرات

إذاً للطمت الخد فاطم عنده ... وأجريت دمع العين في الوجنات

والإمام الرضا (عليه السلام) لا يردّه بل يستزيده. فهل يمكن أن ينسب دعبل الخزاعي عملاً محرّماً إلى فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) ويسكت الإمام الرضا (عليه السلام) عنه؟!

ولقد سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن مسائل كهذه، فقال: «وقد لطمن الخدود الفاطميات على الحسين عليه السلام وعلى مثله تُلطم الخدود وتُشق الجيوب»[1]، فهل الفاطميات وزينب الكبرى لا بل الإمام الصادق (عليه السلام) لا يعرفون الحرام، ويعرفه زيد من الناس أو عمرو؟

وهكذا الحال مع لبس السواد على سيد الشهداء (عليه السلام) فلقد لبس السواد، سبعة من المعصومين هم النبي الأعظم والإمام أمير المؤمنين والإمام الحسين والإمام الصادق والإمام الهادي (صلوات الله عليهم أجمعين).

اقرأ التاريخ ثم تكلّم. راجع كتب الفقهاء والرسائل العملية وبعد ذلك قل ما بدا لك.

فها هو كتاب جواهر الكلام ذو الأربعين مجلداً، هذا الكتاب الضخم الذي لا يَذكر صاحبه - وهو بحر من العلم - مسألة إلاّ ويذكر دليلها، وأصحاب الاختصاص يعرفون الجواهر وصاحب الجواهر.. هذا الرجل يستدل على مسألة واحدة في باب من أبواب الفقه عبر عشر صفحات من كتابه ثم يناقش الاستدلال ويرد ثم يقول أخيراً: لا يمكننا أن نفتي والاحتياط سبيل النجاة!

---

(١) التهذيب ج٨، ص٣٢٥.

تأمّل جيّداً: صاحب اختصاص يناقش مسألة في عشر صفحات ولا يقطع أخيراً، ثم يأتي رجل ليس بصاحب اختصاص وليس بمجتهد ويصدر حكماً بسرعة، دون تفكير ودون دليل، ويقول لك إنّ العمل الفلاني حرام.

والعجيب أنّه عندما تأتي مناسبة استشهاد الحسين (عليه السلام) وعزائه يصبح كل شيء حراماً وكل الناس فقهاء!! مع أنّ أحداً من المجتهدين المتخصصين لم يفتِ بحرمة أيّ من شعائر أبي عبد الله (عليه السلام).

هذا والحكم بغير ما أنزل الله من أكبر الكبائر، حتى لقد تحدّث الله عن رسوله وأحبّ الخلق إليه بتلك الصفة عندما تعلّق الأمر بهذا الموضوع!

الفتاوى التي تمنع السماء قطرها

تنازع رجلان في عهد الإمام الصادق (عليه السلام) عند أبي حنيفة في كراء حيث اكترى أحدهما فرساً من الثاني للذهاب إلى مكان للقاء صاحب له ولكنه عندما وصل إلى ذلك المكان لم يلقَ صاحبه لأنّه كان قد ذهب إلى نقطة أبعد منها، فاستمر في مسيره قاصداً إياه حتى بلغه، وهنا طالب صاحب الفرس أجراً أكثر لقاء المسافة الزائدة، لكن المكتري اعترض بأنّ الكراء كان بهدف الوصول إلى الصاحب وإن زادت المسافة، وحكم أبو حنيفة لصالحه استناداً إلى قاعدة فقهية أخطأ في فهمها، وهي «الخراج بالضمان». ولم يرض المكاري وطلب الاحتكام إلى الإمام الصادق (عليه السلام)، ورغم أنّ الخلاف كان في دراهم معدودة وأنّ أبا حنيفة أخطأ في فهم القاعدة وأنّ الإمام الصادق إمام معصوم وحفيد رسول الله فهو عنده علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان أستاذاً لأبي حنيفة، إلاّ أنّ الإمام لم يجب على المسألة أوّلاً بل قال قبل أن يجيب: «مثل هذه الفتوى تمنع السماء قطرها وتحبس الأرض بركاتها».

أي أنّنا لو قلنا عن أمر إنّه حرام مع أنّ الله لم يحرّمه، أو إنّه حلال وهو عند

الله ليس بحلال، وكذا المكروه والمستحب الواجب فإن ذلك القول بغير ما أنزل الله يمنع الأمطار من النـــزول ويحبس بركات الأرض.

هل أنت أفقه أم صاحب الزمان؟

فلو سألك أحد: هل الشيء الفلاني حلال أم حرام؟ فلا تجبه من تلقاء نفسك بل سل مجتهداً وأعطه الجواب، فإنّ الله تعالى لم يجعل أحكامه بيدي أو بيدك، بل جعلها بيد نبيه وقال: «وما ينطق عن الهوى» أي لا يقول شيئاً من عند نفسه «إن هو إلاّ وحي يوحى»[1].

لقد قُتل الأنبياء والأولياء في سبيل أحكام الله. وأخبر الإمام الحسين (عليه السلام) أخاه محمد بن الحنفية لّما أراد منعه من الخروج إلى كربلاء، أنه رأى جدّه في المنام، فقال عليه السلام: «أتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما فارقتك، فقال: يا حسين اخرج فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً». فقال له ابن الحنفية: إنا لله وإنا إليه راجعون! فما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ فقال له: «قد قال لي إنّ الله قد شاء أن يراهنّ سبايا»[2].

لماذا شاء الله ذلك؟ لأنّ أحكام الله فوق الحسين وأسْرِ زينب وأمّ كلثوم.

أمّا مَن يقول إنّ إخراج الدم على الإمام الحسين (عليه السلام) حرام فنقول له: هل أنت أفقه أم صاحب الزمان (عجل الله فرجه) وهو الذي يخاطب جده الحسين (عليه السلام) بقوله في زيارة الناحية المقدسة: «لأندبنّك صباحاً ومساءً ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً»؟ فهل الدم الذي يخرج من العين أخطر أم الدم الذي يخرج من الرأس بالتطبير أو من الظهر بالسلاسل أو من الصدر باللطم؟ أم أنّ الإمام الحجة —حاشاه- لا يعرف أنّ هذا العمل حرام ويعلمه فلان من الناس؟!

---

(١) النجم: ٣ و٤.

(٢) اللهوف، ص٦٥

لقد نطحت زينب (عليها السلام) رأسها بمقدم المحمل حتى سال الدم من تحت قناعها. فهل فعلت زينب حراماً؟ ولماذا لم تندهش من فعلها؟

الناس مسلطون على أنفسهم

هناك حريتان موجودتان في الإسلام؛ حرية الفكر حيث يقول تعالى: «لا إكراه في الدين»، وحرية العمل؛ للقاعدة المسلّمة لدى الفقهاء «الناس مسلّطون على أنفسهم» ولقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أجمع المسلمون على نقله وهو: «الناس مسلّطون على أموالهم»[1] يتصرّفون فيها بما يشاؤون. أمّا الإضرار بالنفس فليس حراماً في الإسلام إلاّ في موضعين واسألوا عن ذلك جميع الفقهاء؟ الموقع الأوّل هو الانتحار فهذا غير جائز في الإسلام، واستدلّ الفقهاء عليه بالآية الكريمة: «ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة»[2]، وإن كانت في سياق آيات الجهاد لكن استدلّ الفقهاء بها؛ لاستدلال الأئمة بها في هذا المعنى. وكذلك لقوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم»[3].

الموقع الثاني المستثنى من جواز الإضرار بالنفس هو أن يتلف الإنسان أحد أعضائه أو إحدى قواه. فلا يجوز للإنسان أن يعمي عينه أو يصمّ أذنه أو يقطع أنملة من أنامله هكذا عبثاً وليس لعملية جراحية أو ضرورة من الضرورات.

كما لا يجوز للإنسان أن يشلّ قوة من قواه كالمرأة تقلع رحمها أو تشرب دواء يمنعها عن الإنجاب نهائياً - أمّا إذا كان شلّ القوة لفترة معيّنة فقال العلماء بجوازها - وكذلك الحال بالنسبة للرجل.

---

(١) بحار الأنوار ج٢، ص٢٧٢، عوالي اللآلئ ج١، ص٢٢٢ وص٢٤٧و ج٢، ص١٣٨، وج ٣، ص٢٠٨ ونهج الحق ص٤٩٤ و٤٩٥ و٥٠٤ و٥٧٢ وغيرها.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) النساء: ٢٩.

أجل إنّ الإضرار بالغير غير جائز حتى لو كان بمقدار عود ثقاب، ولقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «وإن الله سائلكم عن أعمالكم حتى عن مسّ أحدكم ثوب أخيه بين إصبعيه»[1]، فلو أنّ أخاك جلس إلى جانبك ووضعت طرف ثوبه بين إصبعين من أصابعك تريد أن تعرف نوع القماش مثلاً وهو لا يعلم، فإنّ ذلك لا يجوز لك إن كنت تعلم أنّه لا يرضى، ولسوف تُسأل عن ذلك يوم القيامة. بل يقول الفقهاء إنّ الإنسان مسؤول عن مثل هذا التصرف - لو كان غصباً - حتى مع زوجته كما لو كانت تستحي من ذلك ولا ترضى مثلاً؛ فإنّ حق الرجل على الزوجة لا يتعدى أمرين هما: الفراش والخروج من البيت بإذنه، وليس له وراءهما أيّ حق عليها بعد ذلك، ولا يجوز له أن يلحق بها أدنى ضرر.

أمّا الإضرار بالنفس فكما قلنا هو جائز إلاّ في موردين هما قتل النفس أو تلف أحد الأعضاء أو القوى. فهاهم الناس والتجار يسافرون في الحر والبرد وهم يتعرّضون للأخطار وربما قللوا من نومهم أو غذائهم وربما مرضوا وهم في الفُلك، وعلى هذا جرت سنّة الناس و لم يبلغنا أنّ الأئمة منعوا أحداً رغم وجود احتمال للغرق والموت - غير الغالب طبعاً -.

ولا نهى الفقهاء عن الضرر البالغ، فمع أنّ الأطباء مجمعون على أنّ التدخين مضر بصحة الإنسان فهل سمعتم أنّ فقيهاً أفتى بحرمة التدخين؟ كلا بالطبع لأنّه لا دليل لهم على الحرمة بل الأصل «إنّ الناس مسلّطون على ......».

ومثل التدخين إدخال الطعام على الطعام والنوم بعد الأكل مباشرة وأمور كثيرة أخرى من هذا القبيل، واكتفى الشرع بكراهتها و لم يقل بحرمتها لأنّ الناس مسلّطون على أنفسهم إلاّ في الاستثناءين المذكورين آنفاً.

ولو كانت أحكام الله بيد كل أحد يفتي بها حسب أهوائه وتصوراته لانمحى

---

(١) وسائل الشيعة ج٥، ص١١١.

الإسلام الذي بين أيدينا اليوم بعد مرور ألف وأربعمئة عام عليه! ولأصبح شيئاً ثانياً، وإنّ دماء أهل البيت (عليهم السلام) أريقت للإبقاء على أحكام الله تعالى.

إذن لو سئل أحد عن مسألة و لم يكن من أهل الاختصاص فعليه بإحالته إلى المجتهد الجامع للشرائط أو أن يسأله بنفسه وينقل عنه الجواب، ولا يحق حتى لوكيل المجتهد أن يقول من نفسه -إن لم يكن مجتهداً- بل عليه أن ينقل رأي مرجع التقليد فهو الحجة علينا، وقد علمنا كم يبذل المجتهدون من الوقت والجهد للوصول إلى معرفة حكم من أحكام الله، وربما لا يتوصلون إليه فيقولون بالاحتياط ولا يفتون.

لم يفت مجتهد بحرمة أي من الشعائر الحسينية

الأمر الآخر الذي ينبغي أن لا ننساه هو أنّ أياً من الشعائر الحسينية المعهودة لم يفتِ مجتهد بحرمتها بل الفقهاء قاطبة أفتوا بجوازها بل استحبابها؛ فلا يجوز لكل مَن هبّ ودبّ أن يفتي من عند نفسه بحرمة شيء منها، فيقول مثلاً: إنّ اللطم على الحسين أو التطبير أو التشبيه أو ضرب السلاسل حرام لأنّ فيها ممارسة لإيذاء الإنسان نفسه، مع أنّ كل هذه الممارسات لا تصل إلى حدّ خروج الدم من عين الإنسان، والإمام الحجة يمارسه، فلست أنا ولا أنت ولا غيرنا أفقه من صاحب الزمان صلوات الله عليه، وكلام غير المجتهدين ليس حجة ولا يصح الأخذ به ولا يجوز نقله شرعاً إذا كان يوجب إغواء الناس.

نسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى.

وصلى الله على رسوله الأمين

وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

الحرية في الإسلام

المحاضرة ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و صلى الله على محمد و آله الطاهرين ولعنة الله على اعدائهم اجمعين.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: «لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ، فمَن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم»[١].

▪ معنى الطاغوت

الطاغوت من الطغيان، وطغيان كل شيء - في اللغة - زيادته وتجاوزه عن الحدّ [قال تعالى: «إنّا لّما طغى الماء حملناكم في الجارية»[٢]].

ويستعمل الطغيان في الفكر أيضاً، ويراد به عادةً المناهج المنحرفة عن سبيل الله، ويُسمّى مَن كان في قمة الفكر المنحرف طاغوتاً.

▪ العروة الوثقى

يقول تعالى: «فمَن يكفر بالطاغوت» أي بالإفراط الفكري «ويؤمن بالله فقد

---

[١] سورة البقرة: ٢٥٦.

[٢] سورة الحاقة: ١١.

استمسك بالعروة الوثقى» أي المحكمة الشديدة الإحكام، ثم وصفها بأنّها: «لا انفصام لها» أي أنّها ليست ضعيفة فتنقطع بل لا انقطاع لها أبداً، لأنّها عروة حقيقية وصادقة وليست بكاذبة ومزيّفة. فإنّه لا انقطاع وانفصام في الحق والصدق، خلافاً للكذب، فحبله - كما قيل - قصير سرعان ما يقطع بصاحبه.

مثال: فلو أنّك أردت شراء دار وسألت صاحبها عنها، فأخبرك أنّها صالحة وليس فيها عيوب أو مشاكل، وكان صادقاً في إخباره، فإنّك سوف تستمرّ في سكنى هذه الدار دون أن تعترض عليه أو ينقطع تصديقك له. أمّا إذا كاذباً، فإنّك قد تصدّقه حين الشراء، ولكن هذه الحالة ستزول عندما تكتشف - أو أحد أبنائك أو أحفادك - أنّ الأمر لم يكن كذلك. أي سيحدث انفصام وانقطاع في كلامه.

أمّا دين الله تعالى فلا انفصام فيه. فعندما يخبر الله تعالى الإنسان ويعده أنّه سيسعده إذا ما اتّبع سبيله، فإنّ المسلم الحقيقي لاشكّ سينعم بالسعادة ما حيي، خلافاً لبقية المبادئ التي تعِد الناس ولا تفي ثم يظهر كذبها عاجلاً أو آجلاً.

▪ حرية اختيار الدين في الإسلام

من أصول الإسلام المسلّمة والمؤكّدة مسألة حرية اختيار الدين؛ قال تعالى: «لا إكراه في الدين».

ليكن معلوماً - قبل كلّ شيء - أنّ الإسلام وحده هو دين الحرّية. فحتّى المدارس والمبادئ الأخرى التي ظهرت منذ قرون وما زالت ترفع شعار الحرّية لا واقع للحرية فيها وراء الاسم. أمّا الإسلام فهو دين الحريات مبدأً وشعاراً، وواقعاً وعملاً. وهذا موضوع طويل الذيل يتطلّب من الباحث أن يطالع الفقه الإسلامي بتعمّق - من أوّله إلى آخره - لكي يعرف كيف أنّ الإسلام التزم بمبدأ «لا إكراه في الدين»، في مختلف مجالات الحياة.

▪ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القدوة في تطبيق هذا المبدأ

لقد شنّ أهل مكّة حرباً ظالمة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قليلة النظير في التاريخ. فلقد عُرف (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم بالصدق والأمانة حتى لقّبوه بالصادق الأمين، ولكنهم مع ذلك حاربوه - إلاّ قليلاً منهم - بمختلف أنواع الحروب العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية، وبلغ بهم الأمر أنّهم كانوا لا يردّون تحيّته إذا حيّاهم[1].

فكان الشخص منهم - وهو مشرك - يخشى إذا ردّ تحيّته النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يراه الرائي من المشركين فلا يتبايعون معه بعد ذلك ولا يزوّجونه ولا يتزوّجون منه.

وطردوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومَن معه إلى أطراف مكّة وحاصروهم في شعب أبي طالب، فكان لا يحقّ لهم دخول مكّة، وإذا دخلها

---

[1] لاشكّ أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يحيّيهم بتحية الإسلام وهي «السلام عليكم» بل كان يحييهم بأنواع التحية الأخرى؛ لأنّ ههنا مسألة وهي أنّه يجوز للمسلم أن يحيّي الكفّار بمختلف التحيات باستثناء «السلام عليكم» فلا يجوز للمسلم أن يسلّم على كافر أو مشرك قائلاً له «السلام عليكم»بل يجوز له أن يقول له: أنعِم صباحاً أو أنعِم مساءً، أهلاً وسهلاً، تحية طيّبة، وما أشبه، أمّا كلمة «السلام عليكم» فمختصّة بالإسلام والمسلمين، ووردت فيه أحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المعصومين عليهم الصلاة والسلام، فلقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحيّي المشركين بمختلف التحيات إلاّ كلمة «السلام عليكم»، فلقد وُضعت للمسلمين خاصة. فإذا حيّى مسلم مسلماً قال له: «السلام عليكم» والحديث المعروف الذي لابدّ وأنّ كثيراً منكم سمعه وهو «تحية الإسلام السلام» يعني أنّ هذه التحيّة خاصّة بالإسلام.

أحدهم فدمه هدر. واستمرّت الحالة هذه مدّة ثلاث سنين.

وبعدما هاجر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة شنّ المكّيون عليه عشرات الحروب أو دفعوا الكفّار إليها. ودامت الحالة عشرين سنة يحارب أهل مكّة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمختلف أساليب الحروب حتى أذن الله له بالفتح .. وجاء (صلى الله عليه وآله وسلم) مكّة فاتحاً .. وأصبحت مكّة في قبضته وتحت سلطته.

ورغم كل ما فعله المشركون من أهل مكّة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ أنّ التاريخ لم يحدّثنا أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أجبر حتى شخصاً واحداً على الإسلام، ولو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يجبر أهل مكّة على الإسلام لأسلموا كلّهم تحت وطأة السيف، لكنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يفعل ذلك ولم يجبر أحداً على الإسلام. أمّا دعوى إسلام أبي سفيان فكان بتحريض وتخويف من العباس بن عبد المطلب (عمّ النبي) وليس من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه، فالعباس هو الذي طلب من أبي سفيان أن يُسلم حفاظاً على دمه ولئلا يقتله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكلام العباس ليس حجّة ولا تشريعاً، بل كان من عند نفسه. ولو أنّ أبا سفيان لم يسلم لما أجبره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الإسلام. فكثيرون من أمثال أبي سفيان كانوا موجودين في مكّة ولم يقتل النبيّ أحداً منهم بسبب عدم إسلامه، ولا أجبره على الإسلام، بل تركهم على دينهم مع أنّه باطل وخرافي لكيلا يسلبهم حرية الفكر والدين.

حقاً هل رأيتم مثيلاً لسلوك نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) في التاريخ؛ يحاربه قومه مع ما يعرفونه من صدقه وأمانته ونبله وكرم أخلاقه، بمختلف أنواع الحروب القاسية ويطردونه من موطنه ومسقط رأسه، ثم يتركهم أحراراً وما

يختارون من دين وطريقة حياة!

نعم كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يهديهم وينصحهم ويوضّح لهم طريق الرشد ويميّزه عن طريق الغيّ ثم يترك الاختيار لهم «فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر»[1]، «قد تبيّن الرشد من الغيّ فمَن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى»[2]، «وهديناه النجدين»[3]، «إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً»[4]. هذا هو أسلوب الإسلام، لاضغط ولا إكراه فيه.

وهكذا الحال في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع اليهود والنصارى. فلقد ردّ النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرات الحروب والاعتداءات التي شنّها أهل الكتاب دون أن يجبر أحداً منهم على الإسلام. لم يسجّل التاريخ حالة واحدة أجبر فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذمياً على اعتناق الإسلام، والتاريخ حافل بسيرة النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) سجّل وحفظ الدقائق عن حياته. فالعلاّمة المجلسي (رحمه الله) وحده خصّص في موسوعته (بحار الأنوار) عشرة مجلّدات ذات أربعمئة صفحة أي ما مجموعه أربعة آلاف صفحة أو أكثر كلّها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحروبه وأخلاقه وسيرته مع المسلمين ومع المشركين وأهل الكتاب.. لا تجدون فيها موقفاً واحداً أجبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نصرانياً أو يهودياً على الإسلام، بل تجدون أنّه كان له صديق مسيحي أو جار يهودي دون

---

(1) سورة الكهف: ٢٩.

(2) سورة البقرة: ٢٥٦.

(3) سورة البلد: ١٠.

(4) سورة الإنسان: ٣.

أن يجبره على الإسلام مع أنّه كان الحاكم الأعلى في الجزيرة العربية وكان بيده السيف والمال والقوّة الكافية.

▪ أمثلة من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام

ولو انتقلنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أهل بيته (عليهم السلام) لرأينا الحالة نفسها. فها هو الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مبتلىً بأشخاص ذوي نفسيات وضيعة تردّ عليه وتقطع كلامه وتجادله بالباطل بل تتطاول عليه، وهو مع ذلك لا يأمر بقطع رؤوسهم وهو الحاكم الأعلى الذي بايعته الأمّة قاطبة ناهيك عن كونه منصّباً من قِبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبأمر من العلي القدير، بل كان يجيبهم ويترك لهم حرية العقيدة ما لم يتآمروا ويلجأوا إلى استعمال القوة والسيف.

فثم شخص يُسمى ابن الكوا، ملحد زنديق، مشاغب مشعوذ، ذو مشاكل ومتاعب، يردّ على أمير المؤمنين (عليه السلام) ويناقشه كل حين، حتى والإمام على المنبر، ومع ذلك تركه الإمام وشأنه يعيش في المجتمع دون أن يفرض عليه شيئاً.

وهناك جرثومة أخرى باسم «عمرو بن حريث».. من طراز معاوية وأبيه، منافق سافل، مهما تقل فيه فقليل. كان ممّن يحضر المسجد ويستمع إلى خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) ثم يقطع حديثه منتقداً. وإذا أخبر أمير المؤمنين (عليه السلام) عن أمور غير ظاهرة (غيبية) ترك ابن حريث هذا أعماله وجرى خلف ما أخبر به أمير المؤمنين (عليه السلام) يزعم أنّه يريد أن يكشف للناس كذب أبي تراب!! وظلّت هذه الحسرة في نفس ابن حريث تنغّص عليه حياته حتى ذهب إلى القبر دون أن يفلح في كشف كذبة لأبي تراب؛ فليس لأبي تراب كذبة. وعاش هذا المنافق في

ظلّ عليّ (عليه السلام) وبعده، والإمام علي (عليه السلام) لم يصنع معه أيّ شيء، ولم يقل له يوماً تخلّ عمّا أنت عليه وإلاّ ضربت عنقك! لأنّه إمام الإسلام؛ دين حرية الفكر والعقيدة.

أجل، إنّ من عرف الحقّ ولم يترك الباطل فإنّ مصيره يوم القيامة إلى جهنّم وبئس المصير. أمّا في الدنيا ف»لا إكراه في الدين» ليتمّ الامتحان ويُعرف الطالح من الصالح، والخبيث من الطيّب. فإنّ ابن حريث هذا امتدّ به العمر حتى كان من الشهود ضدّ ميثم التمّار (رضوان الله عليه) حينما أراد الطغاة الطغام من بني أمية قتله، فقال في حقّه؛ يدلي بشهادته ضد ميثم أنّه من أصحاب عليّ الحق: «هذا الكذّاب مولى الكذّاب» - يعني علي بن أبي طالب (عليه السلام) مولى الصادقين وإمام المتّقين -.

أرأيت نفسية هذا المنافق الحقيرة؟! إنّ رجلاً مثل هذا عاش مع أمير المؤمنين (عليه السلام) ثلاثين سنة وكان (عليه السلام) رئيساً وحاكماً بيده القوّة، ومع ذلك لم ينل منه! هل رأيتم في تاريخ العالَم رئيس دولة كعلي؟! وهل رأيتم سماحة كسماحة الإسلام؟ وهل رأيتم حرية كقوله تعالى: «لا إكراه في الدين»؟!

عن ابن عباس قال: مرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) بالحسن البصري وهو يتوضأ، فقال: «يا حسن أسبغ الوضوء. فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدوّنا؟ فقال: والله لأصدقنّك يا أمير المؤمنين، لقد خرجت في أوّل يوم فاغتسلتُ وتحنطتُ وصببتُ عليَّ سلاحي، وأنا لا أشك في أنّ التخلّف عن أمّ المؤمنين عائشة هو الكفر، فلمّا انتهيت إلى موضع من الخريبة نادى منادٍ: يا حسن إلى أين؟ ارجع فإنّ القاتل والمقتول في النار، فرجعت ذعراً وجلست

في بيتي فلمّا كان اليوم الثاني لم أشكّ أن التخلف عن أمّ المؤمنين عائشة هو الكفر، فتحنّطتُ وصببتُ عليَّ سلاحي وخرجت إلى القتال حتى انتهيت إلى موضع من الخريبة فناداني منادٍ من خلفي: يا حسن إلى أين؟ مرّة بعد أخرى، فإنّ القاتل والمقتول في النار. قال علي (عليه السلام): صدقتَ أفتدري مَن ذلك المنادي؟ قال: لا. قال (عليه السلام): ذاك أخوك إبليس وصدقك، إنّ القاتل منهم والمقتول في النار. فقال الحسن البصري: الآن عرفتُ يا أمير المؤمنين أنّ القوم هلكى»[1].

▪ مقارنة

حقاً هل يجرؤ أحد من الرعية أن يكلّم رئيساً بهذا الكلام - والإمام مع ذلك يلاطفه ويحاوره- حتى في عصرنا هذا؛ حيث يمضي على صدر الإسلام أربعة عشر قرناً، وتطوّر العالَم حتى صار يسمّى عصرنا بعصر الحرّيات؟!

لقد قتل وشرّد «لينين» وحده في عصر الحرية والتقدّم خمسة ملايين إنسان من أجل تطبيق مادّة قانونية واحدة من قانون المزارع الجماعية في الاتّحاد السوفياتي السابق!!

وفي العراق كان عبد الكريم قاسم يخطب فانبرى أحد المواطنين ليردّ عليه ويناقشه، فقام الجلاوزة باعتقاله وسجنه وتعذيبه وقتله، لأنّه قال كلمة ينتقد فيها رئيساً في القرن العشرين!!

وحدث شبيه لهذه القصة في بلد آخر - كما طالعتنا الصحف في حينه - وكان مصيره مصير صاحب عبد الكريم قاسم!! كل ذلك ونحن في ما يُسمّى بعصر الحريات. فهل هذه هي الحرية أم الحرية في ظلّ الإسلام؟!

لقد أُقصي الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) خمساً وعشرين سنة ثم توجّهت

---

[1] بحار الأنوار، ج٢، ص١٤١.

إليه الأمّة وتزاحمت على بابه للبيعة حتى لقد وطئ الحسنان[1] كما قال (عليه السلام) في خطبته المعروفة بالشقشقية. ومع ذلك ذكر المؤرخون - سنّة وشيعة - أنّ الإمام بعدما بويع، ارتقى المنبر في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان المسجد مكتظّاً بالناس الذين حضروا لاستماع أوّل خطبة لابن عمّ رسول الله ووصيّه وخليفته الحقيقي الذي أُبعد عن قيادة المسلمين خمساً وعشرين سنة، بعد أن آل إليه الحكم الظاهري، ثم أمر جماعة من أصحابه أن يتخلّلوا الصفوف وينظروا هل هناك مَن لا يرضى بخلافته. فقال الناس بأجمعهم: يا أمير المؤمنين سمعاً لك وطاعة، أنت إمامنا[2]. وحتى طلحة والزبير لم يخالفا في هذا المجلس بل نكثا بعد ذلك، فلم يعترض أيّ أحد في هذا المجلس ولو اعترض لما عاقبه الإمام بالقتل ولا السجن ولا الضرب ولا قال له شيئاً يهينه أوينال منه! فهل رأيتم أو سمعتم مثل هذا في عصر الديمقراطيات الحديثة؟!

الديمقراطية تعني حكم الأكثرية، فلو حصل شخص ما على واحد وخمسين في المئة من الأصوات فهذا يخوّله لأن يصبح رئيساً للبلاد - وهذا من أكبر أخطاء الديمقراطية، وبحثه موكول إلى محلّه - أمّا الإمام علي (عليه السلام) فقد بايعته الأكثرية المطلقة من الناس ومع ذلك يصعد المنبر ليبحث إن كان هناك معارض له، وما هو سبب معارضته! هل تجدون لهذا نظيراً في التاريخ؟!

لقد كتب محبّو «صلاح الدين الأيوبي»[3] والذين يشيدون بشخصيته

---

[1] الحسنان - بسكون السين - الإبهامان من القدمين. وقرأ بعضٌ: الحسنان - بفتح السين - أي الحسن والحسين عليهما السلام.

[2] راجع: بحار الأنوار، ج٣٢، ص٢٧.

[3] ولا أقول «فساد الدين» لأنّ الدين لا يفسد، إنما يفسد دنيا الناس وتكثر مشاكلهم

ويعظّمونه أنّه قتل قرابة مليون إنسان ليس إلاّ لأنّهم يختلفون معه في الرأي.

فأين هذا من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي حاربه قومه عشرين سنة وأخرجوه من داره، ولكنّه عندما عاد إليهم ظافراً بنصر الله وعزّته وقدرته لم يجبِر أحداً منهم على اتّباع رأيه ودينه، بل قال: «مَن أغلق بابه فهو آمن، ومَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[1]. ولم يقل مَن أسلم وحسب فهو آمن، أو مَن شهد الشهادتين فهو آمن، مع أنّ مهمّته (صلى الله عليه وآله وسلم) هي تبليغ الشهادتين.. ولكنّ حرية الرأي في نظام الله وقانون الإسلام أكثر تقديساً حتى من الشهادتين. فالإسلام يريد أن يجعل الناس أحراراً. قال تعالى: «يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»[2].

▪ أنت حرّ ما لم تضرّ

يقول لك الإسلام: اعمل ما تشاء، فلك حرية العمل شريطة أن لا تضرّ غيرك؛ فإنّه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، والإسلام يضرب بشدّة على يد الظالم ومَن يريد إلحاق الضرر بالآخرين، فإذا ضمنت ذلك فأنت حرّ في كل أمورك، أيّ عمل تعمل، وأيّ مكان تعمل، وما هو نوع العمل. وأنت حرّ في ذهابك ومجيئك وسفرك وصداقاتك، فلا ضغط ولا جبر ولا إكراه ولا كبت للحرية في الإسلام، ولكن ثمة توجيهات وإرشادات تبيّن لك السلوك الأحسن، تقول: هذا صحيح وهذا مستحبّ وهذا مفضّل وهذا مكروه.

ويُظلمون وتُهضم حقوقهم. أمّا الدين فصالح ومتين أبداً.

(١) بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

فلنقرأ عن الإسلام، ولنقرأ عن غيره أيضاً ثم نقارن بينهما. ففي القرون الوسطى كان العالِم يُقتل لمجرّد إبداء رأيه في قضية وإن كانت علمية محضة لا علاقة لها بالدين وتشريعاته!!!

فقتلوا القائل بكروية الأرض، وكذلك الرجل الذي ترجم الكتاب المسمّى عندهم بالمقدّس؛ فقد كان هذا الكتاب حكراً على رجال الدين فقط ولا يعرف لغته غيرهم.

هكذا كانت حالة أوربا في القرون الوسطى أي بعد مرور أربعمئة سنة على الإسلام. فهل يصحّ مقارنتها مع عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ كلاّ بالطبع؛ إذ كيف يصحّ مقارنة الصفر بالكثير بل لابدّ أن يكون مقابل الكثير عدد لتصحّ المقارنة. ومن هنا قيل: مَن فضّل علياً على معاوية فقد كفر، لأنّ معاوية لا فضل عنده ليكون علي أفضل منه. بل لا يقاس بآل محمد من هذه الأمّة - ولا من غير هذه الأمّة - أحد، فصلوات الله عليهم أجمعين، فلقد كانوا في سيرهم يمثّلون القرآن.

▪ التزم بتوجيهات الإسلام ولا تكن عبد غيرك

هناك تهمة وجّهها بعض المستشرقين إلى الإسلام ويردّدها بعض الشباب الذين لا يعرفون الإسلام. فهم يقولون: إنّ الإسلام كلّه محرّمات وقيود ونواهٍ. ونحن نقول لهم: بالعكس تماماً فإنّ الحرية الموجودة في الإسلام لا يوجد لها نظير في كل مكان!

خذوا أكثر بلدان العالَم اليوم حرية كفرنسا والولايات المتّحدة مثلاً، ترى القيود الكثيرة للسفر منها وإليها. فهذه القيود موجودة في كل دول العالَم وإن كانت في بلداننا أشدّ. أمّا الإسلام فلا يوجد فيه مثل هذا! لا يقول لك الإسلام:

أين تسكن؟ وأين تذهب؟ وكيف تذهب؟ ومتى تذهب؟ بل يقول لك: إنّ الله خلقك وهو الذي أعطاك الفكر والعقل فلا تكن عبد غيرك، ولا يجب أن تخبر الدولة عن خروجك ودخولك، وإقامتك ورحيلك، وما تستورد وما تصدّر - ما لم يكن ممّا حرّمه الله -. لكن الإسلام يضع لك التوجيهات ويقول لك إن التزمت بها تفلح وإلاّ تخسر!

الإسلام يهدي ويرسم الطريق، وبعده لا إكراه في الدين أي كل أنواع الإكراه يرفضها الدين. (والحريات الموجودة في الإسلام لا نظير لها في التاريخ. وكانت تلك نماذج وهناك مئات بل آلاف النماذج في سيرة النبي وأهل بيته عليهم السلام).

فمَن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. ومَن يتمسّك بالطاغوت ويذهب وراء المبادئ الهدّامة والطواغيت البشرية والفكرية فإنّما يتمسّك بعروة لها انفصام، حيث سيكتشف بعد مرور عدّة أيام أو أعوام أنّه كان مخطئاً.

إذن: الحرية التي يمنحها الإسلام في مختلف المجالات ليس لها نظير ولا شيء يقرب منها في تاريخ العالَم حتى في هذا اليوم المسمّى بعصر الحريات.

وصلّى الله على محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

حقوق المرأة في الإسلام

المحاضرة ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: **«ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة والله عزيز حكيم»** [١]

الشرح اللفظي للآية الكريمة

«لهن» أي للنساء، من الحقوق «مثل الذي» يجب «عليهنّ» تجاه الرجال. أي إنّ حقوق النساء على الرجال مماثلة لحقوق الرجال على النساء. وهذا حكم «بالمعروف» وليس منكراً. «وللرجال عليهنّ درجة» فوق النساء «والله عزيز» في ذاته «حكيم» في أحكامه.

في هذه المحاضرة نريد أن نبحث باختصار جانباً من قضية المرأة ومكانتها في الإسلام.

يتألف المجتمع الإنساني من شقين، الذكور والإناث. وهذه الظاهرة سارية في الحياة الحيوانية والنباتية والجمادية أيضاً. فهكذا خلق الله الكون نصفه ذكور ونصفه إناث، «ومن كل شيء خلقنا زوجين»[٢]. ولكن النصف من الذكور أقل عدداً من الإناث، فالأنثى تمثّل النصف الأكبر عدداً في المجتمع. فما هو حكم الإسلام

---

(١) البقرة: ٢٢٩.

(٢) الذاريات: ٤٩.

ونظرته لها؟

"تحرير المرأة" شعار جميل الظاهر خاوي المحتوى

هناك في العالم حقائق وواقعيات، وهناك ظواهر وشكليات. قد ترى شخصاً يكلمك عن موضوع ما كلاماً جميلاً جداً ولكن هذا الكلام لا عمق له في قلبه لأنه لا يلتزم هو به. فمثلاً يدعو الناس إلى ترك شرب الخمر بينما هو رجل سكير، أو يدعو إلى الإسلام وهو أوّل المخالفين له.

وربما ترى الرجل جالساً أمامك بوجه منطلق بشوش ولكن لو شق لك عن قلبه لرأيته مليئاً بالهموم والمشاكل. وهذا يعني وجود ظواهر وشكليات إلى جانب الحقائق والواقعيات المخالفة والمناقضة.

إلاّ أنّ مثقالاً من الواقع والحقيقة يؤثر أكثر من قنطار من الظواهر الخاوية. فلو أنّ بين يديك الآن آلاف بل ملايين من البشر لكنهم موتى بلا أرواح، لما كلّمك واحد منهم حتى حرفاً واحداً، ولكن لو تجلب طفلاً صغيراً عمره شهر واحد فقط لملأ لك البيت ضجيجاً. وما ذلك إلاّ لأن الطفل واقع وحقيقة، أما الموتى فلا أثر لهم وإن حدّثتهم لم تسمع لهم جواباً، لأنّه لا واقع للحياة فيهم.

وهذه الدنيا صبغتها الظواهر. وعندما نأتي إلى قضية المرأة نلاحظ أنّ الشعارات التي تُرفع باسمها ليست سوى ظواهر وضجيج فارغ.

فتحرير المرأة مثلاً كلمة جميلة ولكن عندما تنبش قلب هذه الكلمة لكي تعرف حقيقتها والواقع الذي تعيشه المرأة المعاصرة في ظلها تكتشف أنّ فيها تقييد المرأة وإذلالها وليس حريتها كما يزعمون.

أما قول الله تعالى: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» فكلمة جميلة الظاهر عميقة المحتوى؛ فلو بحثت التاريخ كله لما وجدت كلمة في جمال هذه الآية تجمع بين الواقع وبين المظهر الجميل. إنّها عبارة جميلة وذات مضمون رائع حقاً. إنها

تتألف من أربع كلمات فقط ولكن لو أعطيت لأي عاقل ملتفت لقال إنها أحسن ما قيل في حق المرأة[1].

لو أردنا أن نوجز بتفكير وعمق كل ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات لما وجدنا أجمل ولا أجمع من هذه الكلمة. اعرض هذه الكلمة على عقلاء العالم وحكمائه سيقول لك كل منهم إنها تعبر عن تقسيم عادل.

ولكنا نريد في هذا البحث الإجابة على سؤالين أو شبهتين تثاران اليوم كثيراً يتعلقان بأحكام المرأة في الإسلام، تقول الأولى: لماذا جعل الله حصة المرأة من الإرث نصف حصة الرجل؟ والثانية: لماذا جعل الطلاق في الإسلام بيد الرجل دون المرأة؟

قبل الإجابة على السؤالين لابدّ من مقدمة:

الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر

لاحظوا بدن الإنسان وهيكله تجدونه مديناً في حركته إلى العظام والغضاريف، والغضروف لا هو لحم ولا هو عظم بل حالة فيما بينهما وهو الرابط بين مفاصل العظام. فلو أنّ جسم الإنسان كان كله عظماً لما تمكن أن يدير رأسه ولا أن يرفع يده ولا أن يمشي بل سيكون مضطراً لأن يبقى ممدداً كل الوقت في حالة واحدة، لأنّ الغضروف هو الذي يساعد المفاصل على الحركة والقبض والبسط، وهذا شيء واضح.

كذلك إذا كان بدن الإنسان كله غضاريف ولا عظم في جسمه، فإنّه أيضاً لا

---

(١) لقد سئل الإمام العسكري (عليه السلام): كيف نعرف العاقل؟ فقال: لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه. أي أن العاقل يفكر أولاً ويأخذ تصوراً كاملاً عن الموضوع ثم يتكلم، أي أن الكلام ينطلق من مخزن القلب إلى اللسان، أما الأحمق فبالعكس، أي أنه يتكلم أولاً ثم يفكر في ما قال.

يقوى على الحركة بل سيظل كتلة ملقاة على الأرض لا يتمكن أن يجلس أو يسير لأنّ قوة العظم وشدته هي التي تحمل الإنسان وتجعله يقوى على القيام والقعود وحمل الأشياء و...

ومن ثم كان بدن الإنسان محتاجاً إلى العظم والغضروف معاً ليكمل أحدهما الآخر في مهمة الحركة والقيام بأعباء الحياة.

إنّ مَثل الرجل والمرأة في الحياة مَثل العظم والغضروف في بدن الإنسان، وثم مثل آخر نضربه لتوضيح الموضوع - والأمثال كلها من الطبيعة وكم لها من نظير - وهو أنّ الحياة مزيج من العقل والعاطفة، فإنّ الحياة لا تبنى بالعقل وحده ولا بالعاطفة وحدها. فلو أنّ الحياة سُلب منها العقل عادت فوضى لا نظام فيها، ولا وجدتَ مجلساً منعقداً بعض يتكلم وبعض يستمع، فإنّ العقل هو الذي يحدد العاطفة ويؤطّرها.

كذلك لا تستقيم الحياة لو كانت خلواً من العاطفة وكانت كلها عقلاً. ولا انعقد مجلس كمجلسنا هذا أيضاً، فلا أنا كنت مستعداً لأن أتكلم في مجلس كهذا ولا أنتم كنتم مستعدين للحضور في مثل هذا المجلس والاستماع إليّ. لأنّ كلاً منّا كان يفكر أنّه ينبغي أن يكون رئيساً أعلى لدولة كبيرة أو مرجع تقليد كبير؛ أو على الأقل متحدثاً لجمهور كبير بدل أن يتكلم لمئة شخص مثلاً أو مئتين، فبالعقل المجرد عن العاطفة يبحث كل إنسان عن طريق يسود فيه ويفرض شخصيته على الملايين. لكن الحياة بقيت متوازنة بوجود ا لعقل والعاطفة معاً.

ومَثل المرأة والرجل في الحياة كمثَل العاطفة والعقل، ولكن ذلك لا يعني أنّ المرأة عاطفة بلا عقل، وأنّ الرجل عقل بلا عاطفة، بل بمعنى أنّ المرأة كيان عاطفي تترجّح فيه كفة تأثير العاطفة خلافاً للرجل - في الغالب - فهو كيان يتغلب فيه العقل على العاطفة. فلو قلنا إنّ مجموع العقل والعاطفة مئة فإنّ عاطفة الرجل ٤٠٪ وعقله ٦٠٪ أمّا المرأة فتأثير عقلها ٤٠٪ وعاطفتها ٦٠٪ مثلاً من أجل تسيير

الحياة.

ومن الطبيعي أن تختلف واجبات المرأة عن واجبات الرجل بسبب الاختلاف الموجود في طبيعتهما كما تختلف واجبات الغضروف عن العظم، والعاطفة عن العقل. فاستقامة البدن بالعظم وحركته بالغضروف ولو أردتَ أن تساوي بينهما فمعناه أنّك شللت البدن. وفي الحديث ((لو أن الناس تساووا لهلكوا)).

أو مثَل آخر: لو أردتَ أن تساوي بين المرأة والرجل في كل الأمور تكون كمَن يحمّل أطناناً من الحديد في سيارة صغيرة، ويحمّل الشاحنات الكبيرة بضعة كيلوات من أجهزة دقيقة. فلا السيارة الصغيرة ستكون قادرة على حمل تلك الأطنان، ولا الشاحنات استُفيد منها بالوجه الصحيح.

ومثال آخر -والأمثلة كما قلت كثيرة-: إنك لو ساويت في الأكل الذي تقدمه لببغاء صغير وأسد ضخم، فربما مات الببغاء خنقاً والأسد جوعاً.

ولذلك قال الله تعالى: «ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف» أي بما يتناسب وطبيعة كل منهما. فإذا أردنا أن نُدخِل النساء المعامل الثقيلة أو نُسكن الرجال البيوت للقيام بالمهام المنْزلية، فكلا الفرضين شلل للحياة. والدليل على ذلك ما نلاحظه في الحياة الغربية. فمن أين جاءت هذه المشاكل مع أنّ البشر هم البشر والرجل هو الرجل والمرأة هي المرأة؟ الجواب: لأنّ واجبات المرأة أُخذت منها وخُوّلت بواجبات الرجل، وواجبات الرجل أُخذت منه وأُعطيت للمرأة، لذلك حدث شلل في الحياة الأسرية ومشاكل، وبدأ الرجال يزدادون تنفراً من زوجاهم، والنساء يزددن تنفراً من أزواجهن. وأخذت نسبة الطلاق تتزايد يوماً بعد يوم.

انظر إلى إحصائيات الطلاق في أيّ بلد من البلاد الغربية المتمدنة منذ سنة ١٩٠٠م وإلى الآن (عام ١٩٧٩م) ترى معدّلاها في تصاعد مستمر. فالعلم يتقدم بالبشر إلى الفضاء ولكن مشاكله تتقدم به إلى الطلاق والهدام الأسرة وتفكك العائلة والمشاكل الزوجية، لماذا؟ لأنّ كلاًّ تخلّى عن بعض واجباته وقام بواجبات

الآخر، مع أنّه ليس كفئاً لها، والحياة حياة الأكفّاء، كما هو الحال في الحياة المادية. فالمهندس يدرس أكثر من عشرين سنة لكي يتخصص في مجال ما ويعطيك رأيه في الخصائص التي ينبغي أن يتحلى بها سقف ما - مثلاً - لكي يتحمّل وزناً ما.

فإذا كان جانب صغير من الحياة المادية يحتاج لكل هذه الدراسة والكفاءة، أفيصح بعد ذلك أن يكون حال البشر المؤلّف من المادة والمعنى، ومن الواقع والظاهر، هكذا هملاً ومن دون حساب.

خذ مثلاً آخر على نتائج الابتعاد عن أحكام الله في حياة البشر، من الحضارة الغربية نفسها وهو مستشفيات الأمراض العصبية فهي أكثر عدداً من المستشفيات الأخرى في الغرب، على العكس من بلادنا! ومن الواضح أنّ ٩٠٪ من أمراض الأعصاب تنشأ من المشاكل، فمن أين تأتي المشاكل؟ هل تأتي من الله - سبحانه - يترلها مع أشعة الشمس على البشر؟ أم يفيض بها البحر علينا؟ كلا! بل تأتي من أفكارنا نحن، حينما يضع كل منا نفسه في غير موضعه.

لقد صعدوا بالمرأة من جانب ونزلوا بها من جانب آخر فتولدت المشاكل. إنّ المرأة مثال العاطفة في الحياة، فالأمور التي تحتاج إلى العاطفة مخوّلة للمرأة، بينما الرجل مثال العقل ولذلك أوكلت إليه الأمور التي تحتاج إلى عزم وتصميم، ومن هنا قال الله تعالى: «وللرجال عليهنّ درجة».

قد يثار هنا سؤال هو: هل العقل يسيّر العاطفة أم العاطفة تسيّر العقل؟

نقول في الجواب: إنّ العقل هو الذي يسيّر العاطفة. يقولون: إنّ كل الثورات التي تحدث في العالم تحتاج إلى أمل وألم.. بل كل حركة وراءها أمل وألم. فالألم يحرّك الإنسان والأمل مظهر العقل والعقل يحدد الأبعاد، فمثلاً الإنسان الشبعان الذي لا يعاني من ألم الجوع لا يبالي بترك أيام من العمل. أمّا الإنسان الذي لا يجد غذاء يتناوله ويشبع بطنه إن لم يخرج للعمل، فهو لا يترك حتى يوماً واحداً من العمل وإن كان عمله الجدية والسؤال من الناس، فالألم هو الذي يحرّك الإنسان،

ولكن الأمل هو الذي يضع إطاراً وحدوداً للحركة.

لماذا كان نصيب المرأة من الإرث نصف نصيب الرجل؟

بعد عرض هذه المقدّمات الطويلة نسبياً نأتي إلى ذي المقدمة وهو قضية المرأة والإجابة على السؤالين المتقدمين، وأوّلهما: لماذا جعل الله نصيب الرجل من الإرث ضعف نصيب المرأة؟

لكي يتضح الجواب، لابدّ من مراجعة أحكام الإسلام المالية فيما يخص الرجل والمرأة، فإنّ الإسلام جعل نفقات المرأة على الرجل سواءً كانت بنتاً أم زوجة أم أمّاً. فحتى أدوات التجميل يحق لها تقاضي ثمنها من الزوج بما يتناسب وشأنها طبعاً، ناهيك عن الغذاء والمسكن واللباس والدواء والترفيه وحتى كفن الزوجة إذا ماتت وماء غسلها وثمن الأرض التي تُدفن فيها وأجور الدفن و... ، كل ذلك على الزوج حتى إذا كانت الزوجة ثرية تملك الملايين والزوج معسراً، ولكن في حدود المعروف، كما قيَّدت الآية.

إذن لو مات أب وخلّف أولاداً ذكوراً وإناثاً فالإناث ليس عليهن مصارف لأنّ مصارفهن كلها على الرجال، أما الرجال فيتحملون مصارف أنفسهم ومصارف النساء التي تعود نفقتهن عليهم كالزوجة وهكذا البنت والأم المعسرين!

حقاً لولا لطف الإسلام ورفقه بالمرأة لاقتضى أن يجعل الإرث كله للرجال كما كان الأمر في الجاهلية - قبل الإسلام - وكما هو موجود في بعض الجاهليات الحديثة. ولو تركنا نحن وعقولنا و لم نستضئ بهدي الإسلام لبدا اختصاص الرجل بالإرث كله معقولاً، فلماذا نعطي المال للمرأة والرجل يصرف عليها كل ما تحتاجه. ولكن الإسلام لم يغفل أنّ المرأة قد تحتاج ولا تطلب من الرجل حياءً ولا يريد الإسلام للمرأة أن تستعطي، ولذلك جعل لها حصة من الإرث. هذا بالإضافة إلى أنّ في منحها حصة من الإرث نوعاً من تطييب نفسها سيما وهي مفجوعة

أيضاً بموت ذيها.

فهل يعد حكم الإسلام في إرث المرأة بعد هذا ظلماً في حقها وحطّاً من كرامتها أم أنّ الأمر ببساطة ووضوح يتناسب مع الأحكام المالية الأخرى في الإسلام مع أخذ عاطفة المرأة بنظر الاعتبار، لأنّ الإسلام يلاحظ العواطف أيضاً؟!

لماذا وضع الإسلام الطلاق بيد الرجل؟

أمّا السؤال الثاني وهو: لماذا وضع الإسلام الطلاق بيد الرجل دون المرأة؟

فنقول في الإجابة عليه: لما كان كل فكرين يصطدمان بطبعهما، حتى الأخوين قد يختلفان أو الأب والابن، فكذلك حال الرجل والمرأة فإنّ الاختلاف أمر طبيعي في الحياة، وإلاّ لو لم يكن الاختلاف فلماذا يحصل الطلاق؟ وهل يصح أن نقول للزوجين المختلفين، تفاهما وقررا الطلاق معاً فهو بيدكما معاً وليس لأحد منكما دون الآخر، فكيف يتصوّر أن يتّفقا ويتفاهما وهما مختلفان؟ فأكثر حالات الطلاق إنما تنتج لأنّ الزوجين غير متناغمين، فالزوج قد يكون ثائراً إلى حد الرغبة بالطلاق أما الزوجة فغير ثائرة إلى ذلك الحد. وربما كان الأمر بالعكس، فكيف يتفقان على الطلاق وهما مختلفان. إن التشاجر والنّزاع والصدام هو الذي يؤدي إلى الطلاق، فإذا كان هناك تشاجر ونزاع وصدام فكيف يتصور التفاهم وهو على النقيض من تلك الحالات؟

إذن لابدّ أن يكون الطلاق بيد أحدهما أو بيد شخص آخر غيرهما ولا احتمال آخر. أمّا الاحتمال الأخير وهو أن يكون الطلاق بيد شخص أو جهة غيرهما، فهذا أمر مرفوض بالكامل لأنّ أياً من الزوجين قد لا يبدي كل ما في قلبه تجاه الآخر للغير كما يبديه لزوجه، فكيف نترك شأن حياتهما المشتركة بيد شخص ثالث لا يعيش تجربتهما؟!

يبقى عندنا أحد احتمالين، إما أن يكون الطلاق بيد المرأة أو بيد الرجل

وقدّمنا أنّ المرأة عاطفية أكثر من الرجل، وهذا التكوين العاطفي للمرأة قد يدفعها لاتخاذ قرار مستعجل بالطلاق وسرعان ما تندم عليه بعد زوال أسباب الإثارة، على العكس من الرجل فطبيعته - في الغالب - لا تجعله يثور بسرعة وإذا ثار واتّخذ قراراً فلا يتراجع عنه بسرعة لأنّه لم يتخذه بتأثير عاطفي سريع الزوال؛ فثورة الرجل عن خلفية وامتداد وإذا حدثت تعمقت وتجذرت، أما ثورة المرأة فكزبد البحر أو الرغوة التي تعلو غسيل الثياب، فلو وضع الإسلام الطلاق بيد المرأة لكان خلاف الحكمة والتكوين الطبيعي لها.

انظر إلى نسب الطلاق في الغرب واستخلص منها العِبر، فلقد كتبت إحدى المجلات: إنّ ٨٧٪ من النساء التي طلّقْنَ في الغرب أظهرن الندم في غضون شهر بعد الطلاق، ناهيك عن اللواتي لم يعلنَّ ذلك تجلّداً، أما الرجال فلم تبلغ النسبة من النادمين على قرارهم بالطلاق ١٧٪.

يتبين أنّ حكمة التشريع في وضع الطلاق بيد الرجل هو التقليل من حالات الطلاق ودعماً لأواصر المحبة بين الزوجين واستمراراً للحياة الزوجية.

هذا ولم يتجاهل الإسلام كرامة المرأة واختيارها حتى في هذا المجال، فقد ترك لها الإرادة كاملة قبل الزواج، والحرية في أن لا تتزوج إلاّ بشرط أن تكون وكيلة عن الزوج في الطلاق، فيصبح لها هذا الحق كما للزوج، ولكنه مع ذلك يشجع في خطه العام على الزواج، ويقول للمرأة: أنا أضع أمامك طريق الحياة السعيدة حتى مع كون الطلاق بيد الرجل، ولكن في الوقت نفسه، ولكي لا تشعري بالإجبار والإكراه، لا أجبركِ على شيء، وبإمكانك أن تضعي هذا الشرط قبل الزواج. وهذه المسألة طرحت في عهد الإمام الصادق عليه السلام).

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.



الإصلاح الزراعي في الإسلام

المحاضرة ١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: «**ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**».

▪ القرية في الاستعمال القرآني

القرى جمع قرية، والقرية قد تُطلق ويراد بها معناها العرفي وهو ما يقابل المدينة فيكون المقصود من القرى البلدان الصغيرة خارج المدن. وقد يراد منها معناها اللغوي وهو المصر الجامع وكلّ مكان اتّصلت به الأبنية واتّخذ قراراً، فتقع على المدن وغيرها.

الاستعمال القرآني للكلمة يلحظ المعنى اللغوي، فعندما يطلق القرآن كلمة قرية فإنّما يريد بها المدن والبلدان والأمصار. فالكويت مثلاً قرية في الاستعمال القرآني وكذلك بغداد والقاهرة ومكة التي أسماها القرآن أمّ القرى بهذه المناسبة.

▪ معنى البركة

البركة في اللغة: نماء وزيادة، أو هو الخير الدائم. فلا يقال عن شيء شرّ أو سيّئ ولا عن الخير المنقطع أنّه مبارك. وسُمّيت البِرْكة بِركة لاستمرار الماء فيها وهو خير ونماء؛ قال تعالى: «وجعلنا من الماء كلّ شيء حي»[1].

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

فعندما نبارك لشخص تزوّج حديثاً فإنّما نتمنّى له دوام السعادة في زواجه، وكذلك عندما نبارك لشخص اشترى داراً فهذا يعني أنّنا نحبّ له دوام هذه النعمة عليه ونماءها وزيادتها وارتقاءها.

ويقول الله تعالى عن كتابه أنّه «ذكر مبارك»[١] لأنّ القرآن خير نامٍ ومستمرٌّ.

▪ لنزول البركات سببان؛ تكويني وتشريعي

إنّ الله تعالى هو خالق الإنسان وهو أعرف بما يصلحه، سواء من الناحية التكوينية أو التشريعية «ألا يعلم مَن خلقَ وهو اللطيف الخبير»[٢]. ولذلك سنّ الله تعالى قوانين لمصلحة الإنسان ونظام حياته بعضها تكويني هو مجبر عليها، وبعضها الآخر تشريعي ترك للإنسان تنفيذه. فإذا التزم الإنسان بتشريعات الله وما سنّه له من قوانين تصلح حياته نزلت عليه البركات التي مفتاحها القوانين التشريعية - إضافة إلى البركات التي أنزلها عليه بإرادته التكوينية التي لا دخل للإنسان فيها - وإلاّ عاش في خبط وظلام، وقد يحرمه الله من بركاته التكوينية أيضاً.

▪ مثال البركات التكوينية

كان في انجلترا جسر يسمى بجسر الانتحار، يقصده الشباب الذين سُلبوا العقل والعاطفة ليلقوا بأنفسهم من على مرتفع منه صوب الجهة التي يتدفّق الماء فيه بسرعة وقوّة ليتلقّفهم ويضرب بهم يميناً وشمالاً بالصخور ثم يموتون!

عندما لاحظ المفكّرون هناك أنّ معدّلات الانتحار في حالة ارتفاع مستمرّ، فكّروا في إيجاد طريق لتقليله - وهذا هو الفرق بين الإسلام وغيره، فإنّ الإسلام يستأصل المشكلات والأمراض من الجذور، أمّا الأنظمة الأخرى فتفكّر في تقليله،

---

(١) سورة الأنبياء: ٥٠.

(٢) سورة الملك: ١٤.

وهي لا تنجح حتى في ذلك. فإنّ الإسلام يطرد الفقر والقلق من حياة الإنسان. أمّا الحضارات الأخرى وبتعبير آخر التفكير البشري، فيحاول تقليلهما ولا ينجح -.

وبعد أن اجتمع الخبراء والمفكّرون والعلماء وقاموا بتجارب كثيرة اهتدوا إلى شيء خلقه الله منذ آلاف السنين، حيث اكتشفوا أنّ اللون الأخضر أكثر الألوان تأثيراً في مخّ الإنسان، فالخضرة أقوى وأجمل لون يناسب المخّ. فقاموا بصبغ الجسر باللون الأخضر. وكانت النتيجة تدنّي معدلات الانتحار في السنوات القادمة بنسبة ثمانين في المئة.

والآن تعال إلى الطبيعة وانظر بأيّ لون كساها الله تعالى، لكي تطرد القلق والسأم عن الإنسان؟ إلاّ اللون الأخضر للأشجار؟

فكما أنّ خالق الطبيعة خلقها وفق نظام وقوانين تصلح للإنسان، فكذلك تشريعات الله! ولكن مع فرق أنّ الله ترك الإنسان حرّاً في تطبيقها! ولذلك يقول الله تعالى: «ولو أنّ أهل القرى...» الآية.

▪ الإصلاح الزراعي في الإسلام

ينطلق الإصلاح الزراعي في الإسلام من هذه الآية الكريمة التي صدّرنا بها البحث، ومن كلمة الرسول الخالدة، المذكورة في كتب الحديث كافة، حيث قال (ص): «مَن غرس شجراً أو حفر وادياً بدياً لم يسبقه إليه أحد وأحيى أرضاً ميتة فهي له؛ قضاء من الله عز وجل ورسوله»[1]. ومعنى الحديث أنّ الأرض لله تعالى وللإنسان الذي يعمر تلك الأرض؛ وأنّ هذا هو حكم الله ورسوله.

وفي الحديث الشريف: «إنّ الأرض لله عز وجل ولِمَن عمرها»[2].

يمرّ اليوم أكثر من أربعة عشر قرناً على صدر الإسلام تطوّرت خلاله الزراعة

---

(١) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٧، ص١٥١، ح٦٧٠.

(٢) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج٧، ص١٥٢، ح٦٧٢.

وأساليبها بسبب التطوّر العلمي الحاصل خلال هذه الفترة. ولكن مقارنة بين أوضاع الزراعة في العصور الإسلامية وعصرنا يكشف لنا بوضوح أنّ الإصلاح الزراعي في الإسلام وليس في التشريعات الأخرى، لأنّ مشرّع الإسلام هو الله سبحانه، وما عداه فهو فكر بشري قاصر لم يحقّق سوى إفساد الزراعة والنظام الزراعي!

يقول جرجي زيدان (كاتب عربي مسيحي ت:) في كتابه «تاريخ التمدّن الإسلامي»: إنّ الأراضي المزروعة في مصر اليوم تبلغ ستة ملايين فدّان. ثم ينقل عن الاصطخري أنّ الأراضي المزروعة في مصر في القرن الرابع الهجري (أي قبل ألف سنة) بلغت ثلاثين مليون فدّان.

ثم يذكر نموذجاً آخر عن السدود المنشأة على نهر دجلة في العراق من بداية دخوله عبر تركيا إلى العراق في مدينة الموصل في شمال العراق وحتى بغداد في وسط العراق فيقول نقلاً عن الاصطخري أيضاً أنّها كانت تبلغ على هذا النهر في هذه المسافة التي تبلغ حوالي (٥٠٠كم) زهاء أربعين سدّاً، فيما لا نعلم اليوم بوجود أكثر من سدّين هما سد سامراء وسد الثرثار.

إنّ المفروض في كمية الأراضي المزروعة في مصر اليوم - ومصر نموذج ومثال وإلاّ فهذا حال كلّ العالم الإسلامي - أن تكون أضعاف ما كانت عليه في العصر الإسلامي لو أخذنا بنظر الاعتبار التقدّم الحاصل في الآلات والمكائن الزراعية، بل إنّ أكثر الأعمال الزراعية كانت في العصور الإسلامية الأولى باليد. ومع ذلك فإنّ الزراعة كانت تغطّي معظم أراضي مصر حيث تبلغ مساحتها ستّة وثلاثين مليون فدّان فقط. والشيء نفسه يقال بالنسبة للسدود المقامة على نهر دجلة في العراق.

هذان النموذجان لأفضلية النظام الإسلامي من خلال أفضلية النتائج المحقّقة على أرض الواقع ذكرهما جرجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدّن الإسلامي»، وأنا أضيف إليهما مثالاً ثالثاً، وهو السدّ العالي في مصر. فقد أقاموا الدنيا و لم يقعدوها

عندما أنشأوا هذا السد، والذين عاصروا تلك الفترة يتذكّرون الضجيج الذي ملأ الآفاق عن السد العالي وكيف أنّه خدمة للبلاد وإنجاز للأمة العربية، وتحدّثتْ الإذاعات وتناقلت الصحف أنباء بناء السدّ العالي، وبالفعل فقد ازدهرت الزراعة في مصر نسبياً فوصلت إلى سبعة ملايين وثمانمئة ألف فدّان، أي لم تبلغ الثمانية ملايين فدّان.

أقول مع الأجهزة الحديثة والجرارات والأدوات، ومع السدّ العالي لم تصل نسبة الأراضي المزروعة في مصر إلى ثمانية ملايين فدّان؛ بينما وصلت في العهد الإسلامي رغم بداءة الوسائل إلى ثلاثين مليوناً!

عندما نقارن هذه النتائج هذه النتائج ماذا نكتشف إلاّ صلاحية النظام الذي أثمر النتائج الأفضل؟ إنّ هذا دليل على صلاحية الإسلام وأنّه عرَف كيف يصلح الزراعة ويسير بها نحو الأفضل.

الإسلام ليس مجرّد نظريات بل كلّه فكر قابل للتطبيق، ولقد طُبّقت تشريعاته في العهود الإسلامية وأعطى نتائج باهرة.

ينقل المؤرّخون أنّه كانت توجد في مدينة البصرة أنهار تسير فيها الزوارق؛ بلغ عددها – أي الأنهار – اثني عشر ألف نهر!

وروي أيضاً أنّ رجلاً قدم العراق – قبل ألف سنة من الآن – وصنع للعراقيين شيئاً, وعندما أراد أن يعود إلى بلده قالوا له: نريد أن نكافئك على صنعتك، فاطلب ما بدا لك. فقال: أريد منكم جريباً من الأرض (والجريب ألف متر مربع) جرداء في العراق أزرعها. تعجّبوا من قوله، وقالوا: هذا هيّن، اطلب ما هو أعظم منه. ولكن أصرّ على طلبه. وعندما بحثوا لم يجدوا في العراق جريباً خالياً من الزرع!

ولعلّ الرجل كان يريد أن ينبّههم إلى النعمة التي يرفلون فيها. والقصّة ليست قصّة العراق أو مصر بل قصّة الوطن الإسلامي برمّته. اقرأوا التاريخ لكي تعلموا أنّ

كلّ الوطن الإسلامي كان هكذا؛ لأنّ الله تعالى يقول: «ولو آمن أهل القرى...». لاحظوا كتب الفقه والحديث عند الشيعة والسنة على السواء، تجدون حرية في الزراعة لا توجد في أيّ نظام وتشريع، وإليها يعود الازدهار الزراعي في الإسلام.

فكلّ شخص يزرع أرضاً فهي له سواء كان مسلماً أم يهودياً أم نصرانياً أم مشركاً أم عابد وثن. يقول الإسلام: الأرض لله فمن يزرعها فهي له، ولا يسأل عن الزارع بعد ذلك؛ ما دينه؟ وما لونه؟ وما هي جنسيته؟ ومن أيّ منطقة هو؟ وهل هو من أهل البلد أم لا؛ ولا تسأل عن عمره، وعن المادة التي يريد زراعتها. يقول لك الإسلام: ازرع ما شئت ومهما شئت ما لم يكن من الأمور المحرّمة الضارة بالمجتمع فإنّه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

ابحث في كلّ الحضارات المعاصرة والبائدة هل تجد مثل هذه الحرية وهذا التمليك؟ أم ستلاحظ وجود مئات القيود والمواد القانونية التي تحرم الكثيرين من زراعة الأرض وإعمارها؟

يقول الإسلام: «مَن أحيا أرضاً مواتاً فهي له»[1]، والأرض الموات هي الأرض الجرداء غير المزروعة والتي لا يوجه فيها نهر ولا قناة وغير مسيّجة مثل أكثر الأراضي المتروكة في البلاد الإسلامية.

وهذا النص ذو حدّين. فمن جهة يمنع الاحتكار، فلا يحق لك أن تحتكر هكتاراً من الأرض وتتركها جرداء، ومن جهة أخرى يدفع نحو الإعمار الزراعي فإنّك إن استطعت أن تزرع الأراضي الجرداء مهما بلغت مساحتها فهي لك. إنّ الإسلام يريد أن تنتشر الزراعة وأن تعمّ البركات الأرض كلّها.

لماذا خلق الله الأمطار؟ هل لتنزل على أراضٍ جرداء وتذهب هكذا هباءً؟! أم لكي تسقي الأرض ويستثمرها الإنسان. لقد خلق الله الأرض والمطر والإنسان وربط بينهم وأطلق يد الإنسان ليحصل على بركات السماء والأرض.

---

(١) تهذيب الأحكام، ج٧، ص١٥٢، ح٦٧٣.

لقد وزّعت إحدى الحكومات الأراضي على الناس فأعطت كل مواطن هكتاراً من الأرض، وعدّت ذلك إنجازاً عظيماً وتقدّماً وإصلاحاً، بينما هو خطأ من جهتين: فإنّ إعطاء شخص ما هكتاراً وهو لا يستطيع زراعة أكثر من جريبين مثلاً، تبديد للثروة وحرمان لغيره ممَن يستطيع أن يزرعها كلّها.

كما أنّ إعطاء هكتار واحد فقط لمن يستطيع أن يزرع أكثر منها تبديد للطاقات وحرمان المجتمع منها، فكيف يساوى مَن عنده مال وطاقة وكفاءة ويستطيع إحياء عشرة هكتارات مثلاً بمَن لا يستطيع إحياء هكتار واحد!

انظروا إلى بساطة الإسلام وعظمته وانظروا إلى تعقيد الأنظمة الأخرى وخوائها! لقد ذكرت إحدى مشاهداتي في هذا المجال في كتاب لي صدر قبل عدّة عقود تحت عنوان «الإصلاح الزراعي في الإسلام»: [ينقل من الكتاب إن أمكن]

إنّ في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة مفاتيح لتنظيم معاشر الناس بصورة صحيحة سوء في مجال السياسة أو الاجتماع أو التربية أو الاقتصاد أو الأسرة أو علاقات الأفراد بعضهم مع بعض، ولا طريق لنا إلاّ بالعودة إلى تعاليم الإسلام، فإنّ في كل آية وحديث إنقاذاً لنا من باب من أبواب المشاكل التي نعاني منها. فلنرجع إلى القرآن ونطبّقه حرفياً على وضعنا المعاصر ينزل الله علينا بركات من السماء والأرض.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين



المحاضرة ١٧

الباقيات الصالحات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على اعدائهم اجمعين.

قال الله تعالى: «**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً**»(١).

▪ ما المقصود بالزينة؟

لقد عبّر القرآن الكريم عن المال والبنين أنّهما زينة الحياة الدنيا. وإنّنا سنتناول في هذه المحاضرة الشق الأوّل وهو المال، ولكنّنا قبل ذلك نعطي شرحاً لفظياً لمفردات الآية الكريمة ونبدأها بكلمة «الزينة» فنقول:

الزينة هي المظهر الخارجي أو ما يعبّر عنه بـ«الديكور» حسب الاصطلاح العصري [ولذلك يقال للحلاقة الزِيان وللحلاّق الزيّان لأنّه يصفّف الشعر ويرتّبه].

وهذه الحياة الدنيا التي نعيشها مثَلها كمثَل الدار لها أعمدة وسقف وجدران ولها ديكور ورتوش وزخرف وزينة. تمثّل الأعمدة والسقف والجدران وما تألفت منه من حديد وإسمنت وخشب وطابوق و... أساس وعمارة وبناء الدار، ولا غِنى عنها ليصدق على المورد أنّه دار. أمّا المصابيح والستائر والصبغ وسائر الأمور الظاهرية فهي زينة الدار، ويمكن أن يقوم الدار بدونها.

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول: إنّ الله تعالى عدّ المال والبنين من القسم الثاني في الحياة الدنيا؛ أي إنّ الإنسان إذا كان صحيح الجسم قويّ البنية والإرادة راضياً بما قسم الله له، ولكنّه فقير، فحياته كاملة من حيث الأساس ولا ينقصها إلاّ الزينة

---

(١) سورة الكهف: ٤٦.

والديكور، وكذلك إذا كان فاقداً للأولاد، فإنّهم زينة الحياة الدنيا وليسوا عمادها. وهذا معنى قوله تعالى بـ«المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

▪ المال وتحديده

المال - في اللغة - مشتقّ من (م ي ل) أي أنّ ألفه - كما يقول علماء الصرف - منقلبة عن ياء، والميل يعني الرغبة. وهذا واضح لأنّ صاحبه يميل إليه. فمَن كان عنده دنانير يميل إليها، فالدنانير مال إذاً. والسجّاد مال لأنّ القلب يميل إليه، والأراضي مال، والمزارع مال، والعقارات والدور والبساتين مال، لأنّ القلب يميل إليها، وهكذا الذهب والفضّة والليرة والريال، والأسهم في الشركات و...

فمَن كان عنده شيء من هذه الأمور مالَ قلبه إليها وفكّر في قيمها وهل ستصعد أو تنزل في الأيام القادمة، وما أشبه.

هذا وفائدة المال للإنسان وحدّه معه مادام في هذه الحياة فإذا مات انفصمت العلاقة بينهما. فالتوقيع الذي يخطّه مليونير على شيك بمبلغ مئات الملايين قد لا يستغرق منه ثواني، ولكن هذا المليونير نفسه لا يستطيع أن يخطّ خطاً قيمته فلس واحد ولو لساعات، بمجرّد أن تفارق روحه بدنه. فلم يعد عنده مال بل كان عنده مال فيما مضى؛ ولذلك ورد في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

إِنَّ لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ ثَلاثَةَ أَخِلاءَ. فَخَلِيلٌ يَقُولُ لَهُ: أَنَا مَعَكَ حَيّاً وَمَيِّتاً وَهُوَ عَمَلُهُ. وَخَلِيلٌ يَقُولُ لَهُ: أَنَا مَعَكَ حَتَّى تَمُوتَ وهُوَ مَالُهُ، فَإِذَا مَاتَ صَارَ لِلْوَارِثِ. وَخَلِيلٌ يَقُولُ لَهُ: أَنَا مَعَكَ إِلَى بَابِ قَبْرِكَ ثُمَّ أُخْلِيكَ، وَ هُوَ وَلَدُهُ. [1]

هذا إذا كان أولاده ممّن يحضرون لتشييع أبيهم. أمّا أولاد هذا الزمان فأكثرهم لم يعودوا كذلك. ولقد حضرت شخصياً تشييع مرحومٍ كان مليونيراً و لم يحضر

---

(١) وسائل الشيعة ج١٠٠، ص١٠٦ باب١٦ وجوب الاشتغال بصالح الأعمال.

تشييع جنازته أيّ من أبنائه، فاستأجر أحد المنتسبين إليه حمّالين لتشييعه وكنت ممّن حضر تشييعه!

▪ معاني كلمة «دنيا»

الدنيا تعني الدانية أي القريبة، وربما أُطلقت على هذه الحياة «الدنيا» لأنّها قبل تلك الحياة، فهي أقرب إلينا وأُولى، وتلك أبعد وآخرة. فهي من الدنوّ إذاً.

وقد تكون من الدناءة، فالدنيا بمعنى الدنية، أي السافلة التي لا قيمة لها. وحقّ أن توصف كذلك؛ فكلّ مَن تضرّر إنّما فيها تضرّر، وكلّ مَن شقي ففيها شقي.

لقد وصف الله تعالى - في هذه الآية - هذه الحياة بأنّها دنيا ثم عدّ المال والبنين زينة لها، لا أساساً وعماداً. فالمليونير المحكوم عليه غداً بالإعدام عنده زينة، ولكنّه لا يملك عماد الحياة الدنيا، فلا فائدة من تلك الزينة إذاً.

أمّا مَن كان يعيش راضياً مطمئنّاً فهو متمتّع بالحياة وإن كان عديم المال أو الولد؛ لأنّ المال ليس أكثر من ميل بل وهم، وحدّه مع الإنسان إلى موته. والولد زينة أيضاً وحدّه مع الإنسان إلى قبره - كما في الحديث القدسي - إن كان بارّاً.

▪ الباقيات

المقطع الثاني في الآية يشير إلى المال الذي يستثمره صاحبه هنا من أجل تلك الحياة وتسمّية باقياً.

فالمليونير إذا توفّي عن مليون واحد لم يبق له ولا فلس واحد، فكلّه ذهبَ وانتهى. أمّا إذا ترك وقدّم لنفسه لتلك الحياة فهذا المال يبقى له.

ذبح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شاة في حجرة عائشة فاطّلع عليها فقراء المدينة، فجاءوا وسألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان يعطيهم، فلمّا دخل الليل لم يبقَ منها إلاّ رقبتها، فسأل عن عائشة ما بقي منها، فقالت: لم يبقَ منها إلاّ رقبتها. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): قولي بقي كلّها إلاّ

رقبتها![1]

■ وقفة تأمّل

لاحظ هذا المال نفسه، الذي يصفه الله تعالى في هذه الآية بأنّه زينة الحياة الدنيا أي أنّه زينة أوّلاً وليس عماداً، ولهذه الحياة الدنيا ثانياً وليس للحياة الباقية العليا، هذا المال نفسه يصفه الباري بسبعة أوصاف عظيمة إذا تركته لله!

الموصوف هنا «أل» الموصولة في قوله تعالى «الباقيات». أمّا الأوصاف فهي أنّها:

١- باقيات.

٢- صالحات.

٣- خير.

٤- عند ربّك. وهذا تقويم كثير وتثمين عظيم. فهذا الذي لا يساوي شيئاً أكثر من كونه زينة للدنيا، وليس أساساً حتى للدنيا، يكون ذات قيمة عند ربّك.

٥- ثواباً. أي إنّ هذه الأموال التي لا قيمة لها تنقلب إلى ثواب الله سبحانه.

٦- خير؛ تأكيد.

٧- أملاً.

ولو بحثتم في القرآن لرأيتم أنّه لم يستعمل كلمة أمل إلاّ مرّتين فقط، إحداهما في الشرّ، والثانية في الخير وهي هذه الآية.

■ وخير أملاً

يقول الله تعالى عن هذا المال الذي تنفقه في سبيله إنّه خير من جهتين، الأولى أنّه سينقلب ثواباً لك عند الله تعالى، والثانية أنّه خير أمل تعوّل عليه في حياتك؛ فإنّ لكلّ إنسان يعمل عملاً، أملاً يصبو إليه ويتمنّاه. فمَن يدرس أمله أي يصبح

---

(١) مستدرك الوسائل، ج٧، ص٢٦٦.

دكتوراً أو مهندساً أو طبيباً أو فيلسوفاً أو أستاذاً في العلوم و... والذي يشتغل أمله أن يكسب مالاً وفيراً. ومَن يعمل في حقل السياسة يؤمّل أن يصبح في يوم ما وزيراً أو مديراً عامّاً أو ما أشبه. ومَن يدرس العلوم الدينية يرجو أن يكون يوماً ما خطيباً بارعاً أو مرجع تقليد أو مجتهداً... وهكذا لكلّ إنسان في هذه الحياة أمل.
بيد أنّ الله تعالى يخبرنا أنّ أحسن الأمل هو أن تسلف مالك إلى ذلك العالَم.

▪ خير للمرء أن ينفق من ماله في حياته

في الأثر أن أحد الصحابة لما حضرته الوفاة أوصى أن يدفع ملء غرفة تمراً من ماله إلى رسول الله ليتولى هو (صلى الله عليه وآله) بنفسه توزيعها على فقراء المسلمين. - والتمر يومذاك طعام وإدام - . وبعد أن وزّع النبي (صلى الله عليه وآله) التمر بقيت حشفة (وهي أردأ التمر الذي لا لحم فيه، أو اليابس أو المنقور من الطيور والعصافير) وقال: لو أنه أنفقها في حياته لكان خيراً من كلّ هذا الذي أنفقه بعد مماته. (الحديث بالمضمون).

فمن اليسير على الإنسان أن يكتب وصية يوصي فيها أن ينفقوا أمواله في سبيل الله ولكن الأهمّ أن يفعل ذلك بنفسه وفي حياته، لأنّ المهم هو قطع هذا الميل وهذا هو الأصعب.

▪ الشياطين تمسك بيد المنفق

ومما يروى أنّه إذا همّ أحد بأن ينفق أمسك خمسة وعشرون شيطاناً بيده... .

ومما يدل على ذلك أنّ كثيراً من الأفراد وعندما ينوي إخراج مبلغ من المال لمشروع خيري ويمد يده في جيبه تراه يتراجع أو يقلّل من المبلغ الذي كان ينوي إعطاءه إذا تأخّر المستطعي قليلاً.

أعرف رجلاً من المؤمنين الأخيار أعطى قولاً للمساعدة في مشروع بمبلغ (٥٠٠) دينار وكان ذلك في بيت الله الحرام وعند الكعبة المشرّفة، ولكن عندما

عاد إلى بلاده تراجع متذرّعاً بذرائع واهية، ولكنّه خسر بعد ذلك بأسبوعين في صفقة واحدة زهاء ثلاثة ملايين دينار!!!

▪ الصالحات

لقد جاءت كلمة الصالحات في القرآن زهاء مئة مرّة. فما هو معنى الصالح؟

الصالح يعني النافع. فإنّ المال الذي نتركه ونذهب قد يبقى ولكنّه يكون وبالاً علينا أحياناً، أمّا ما أنفقناه في سبيل الله فهو من الباقيات الصالحات، أي التي تصلح لنا وتنفعنا.

فمَن يبني سينما ويموت، فإنّ السينما تبقى بعده، ولكن هل بقاؤها صالح أم ضارّ عليه؟!

أمّا مَن يبني مسجداً أو حسينية ويدركه الموت، أو يطبع كتاباً دينياً أو يصرف أمواله للفقراء والمساكين أو المشاريع الدينية.. فهذه باقيات وصالحات.

في الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به من بعده، أو ولد صالح يدعو له»[1].

فربّ مساجد في العراق وإيران والحجاز وغيرها يعود تاريخها إلى (١٣٠٠) سنة أو أقلّ فهنيئاً لِمَن ساهم في بنائها، فهي الباقيات الصالحات حقاً!

▪ قصتان فيهما عبر

حكى المرحوم والدي عن تاجر مؤمن ومسنّ في كربلاء أو النجف سمع قصة إنفاق الرجل بيت تمر بيد رسول الله بعد وفاته وأنّه كان خيراً له لو أنفقها في حياته.. فقرّر أن يعمل بها.. فأقام لنفسه مجلس فاتحة وهو حي، أطعم خلالها الطعام ووزّع المصاحف لتُقرأ على روحه .. و.. و...

---

(١) المعتبر، المحقّق الحلّي، ج١، ص٣٤١

وهكذا الحال في الأربعين والسنة، ثم توفّي بعد رأس السنة بأيام!!

إنّ عمله جميل حقاً وإن استُهجن من قِبل بعض الناس.

كما أنّ المرحوم الحاج محمود صفر وكان من المشتركين في بناء حسينية ومكتبتها العامة، رئي في عالم الرؤيا من قِبل بعض المؤمنين فسأله عن حاله، فقال: أحسَنوا إليّ كما أحسنت في بناء الحسينية، وها أنا الآن في مكان كبير وجميل وسط بساتين وأشجار فرحاً مسروراً.

▪ سارعوا في الخيرات

فلنشمّر عن ساعد الجدّ، ولنضع بعض أموالنا في خدمة المشاريع والمؤسسات الخيرية. فمَن لم يستطع بناء مسجد وحده فليساهم وليبذل مقدار استطاعته. فهذه هي الباقيات الصالحات؛ نسأله تعالى أن يوفّقنا لها ولما يحبّ ويرضى.

وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين



المحاضرة ١٨

آثار الأعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيّئة فمن نفسك**﴾[1].

إنّ ما يصدر عن الإنسان إمّا أن يكون حسنة وخيراً ينتفع به، أو سيئة وشرّاً يضره.

هذه الآية الكريمة تخبر الإنسان أنّ ما يصيبه من حسنة ونفع وربح وخير وكل شيء في صالحه فإنّما هو من الله تعالى، لأنّ الله لا يريد لأحد شراً أو سوءاً. وأمّا السيّئات والمصائب التي تصيب الإنسان فهي من الإنسان نفسه. وكل ابتلاء يصيب الإنسان فسببه الإنسان نفسه.

وهذه الآية تخاطبنا جميعاً، فإنّ الإنسان بطبعه حسن الظن بنفسه؛ ففي الحديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عينه»[2]. أي إنّ أحدنا يرى حتى الشعرة الصغيرة في عين أخيه - أي يرى عيوب الناس جيداً - لكنّه لا يرى عيوب نفسه مهما كانت كبيرة.

تريد الآية أن تقول لنا: إنّ أحدكم قد يعمل شيئاً سيّئاً ولا يظهر أثره السيئ

---

(١) سورة النساء: ٧٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٩ / ٦٩.

إلاّ بعد مرور عشر سنين أو عشرين سنة أو أكثر أو أقل، وربما تظهر الثمرة السيّئة لبعض الأعمال عند الموت! فلا ينبغي للإنسان الذي تصيبه السيّئة أن يعجب ويقول: لماذا أصبت بهذا البلاء السيّئ؟ فلعلّ جذوره تعود إلى ما قبل خمسين سنة وهو لا يدري؛ فإنّ الله تعالى جعل لكل شيء قدراً وحدّاً ومقياساً، ومقياس الله لا يختلف ولا يتخلّف.

العبد الصالح الذي سأل الملك الجبار

نقل العلاّمة المجلسي (رحمه الله) حديثاً في البحار عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «كان في زمن موسى صلوات الله عليه ملِك جبّار قضى حاجة مؤمن بشفاعة عبد صالح» أي إنّه كان يعيش في نفس الزمان أي في زمن موسى وفي عهد ذلك الملك الطاغي رجل مؤمن وعبد صالح منشغل -بطبيعة الحال- بعبادته يتقرّب بها إلى الله سبحانه، فيما الملك مشغول بشهواته ولذاته وظلمه وطغيانه. فصادف أن مات الملك وذاك العبد الصالح كلاهما في يوم واحد. ولا شكّ أنّ كلمة «صادف» من عندي ذكرتها حسب لغتنا الدارجة، وإلاّ فلا مصادفة عند الله تعالى بل كل شيء عنده بسبب وإن كنّا نجهله، وهذه الحقيقة تثبتها هذه القصة نفسه؛ يقول نص الحديث: «فتوفي في يومٍ» أي في يوم واحد «الملك الجبار والعبد الصالح، فقام على الملِك الناس» أي اهتمّ الناس بموت الملك وقاموا بتشييعه ودفنه وتركوا أعمالهم وأغلقوا دكاكينهم ومحلاّتهم احتراماً له وحداداً، وعلى حد تعبير الحديث «وأغلقوا أبواب السوق لمدة ثلاثة أيام».

أمّا ذلك العابد فقد بقي مطروحاً كل هذه المدّة في بيته دون أن يعلم أو يكترث به أحد، حتى تفسّخ بدنه وعلته الرائحة الكريهة وبدأت الديدان تأكل من لحمه. تقول الرواية: «وبقي ذلك العبد الصالح في بيته وتناولت دوابّ الأرض من وجهه، فرآه موسى بعد ثلاث فقال: يا ربّ، هو - أي الملك - عدوّك، وهذا -

العبد الصالح - وليّك!» فما هي العلّة؟ ولماذا جعلت موته في هذا الوقت بالذات فيُغفل عنه؟ ولماذا كان موت ذلك الطاغي وهو عدوّك في عزّ واحترام، وموت هذا العبد الصالح وهو وليّك في ذلّ وهوان؟!

«فأوحى الله: يا موسى إنّ وليّي سأل هذا الجبّار حاجة فقضاها فكافأته».

أمّا الملك فكانت له عندي يد وأردت أن أجازيه عليها، وهي أنّه يوم سأله هذا العابد - وهو وليّي - لم يردّه بل قضى حاجته، فأصبحت له يد عندي لأنّه أحسن إلى عبدي ووليّي، فكافأته بهذا التشييع والتجليل - في الدنيا - ليأتيني ولا يد له عندي وهو عدوّي فأدخله النار. وأمّا عبدي ووليّي فقد «سلّطت دواب الأرض على محاسن وجهه لسؤاله ذلك الجبّار»[1].

إذا أردت أن تتصور سيّئة العابد بصورة أفضل فافرض أنّ لك خادماً أو ولداً يشتغل عندك ويأكل من طعامك، ويسكن بيتك، ويحترمه الناس بسببك، ثم احتاج مالاً زهيداً فذهب إلى عدوّك دون أن يسألك، واستغلّها العدو فرصة لكي يمنّ بواسطته عليك فلم يردّ طلبه، أرأيت كم يكون تصرّفه سيّئاً ومشيناً ومسخطاً لك؟!

فكذلك الحال عندما ذهب ذلك العبد الصالح للملك الجبّار في زمانه، فإنّ العبد الذي يعرف مولاه ويعظّمه لا يفعل مثل ذلك! ولذلك عاقبه الله بأن سلّط الديدان على لحم وجهه تأكله لأنّه أراق ماء ذلك الوجه الذي منّ الله به عليه أمام عدوّه وعدوّ مولاه، وصفّى حسابه مع ذلك الملك أيضاً لأنّه الرب الحكيم المقتدر، وهو القائل: ﴿وما أصابك من سيّئة فمن نفسك﴾.

ولا أحد منّا يعلم كم كانت المدّة بين سؤال ذلك العبد للملك وبين موتهما، وربما استغرقت مئة سنة، سيّما وإنّ الناس كانوا يعمّرون قديماً. ولكن العمل السيّئ

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٣٧٣.

أعطى ثماره السيّئة وإن طالت المدة.

ونحن قد تصيبنا في الحياة سيّئات ولا نعرف جذورها لأنّنا غافلون. فربما ظلمنا إنساناً أو غصبناه حقه وإن لم نكن منتبهين، فإنّ الآثار التكوينية للأعمال لا تغيّرها النوايا ولا الجهل بها. فهي تترك آثارها عَلِم الإنسان بها أم لم يعلم!

فلو أخذتَ حبة شعير وتصوّرت أنّها حبة قمح وبذرتها في التربة، فهل ستنبت حسب تصوّرك أم بحسب واقع الحبة؟ لا شكّ أنّ النبت سيكون حسب واقع الحبة. فمن يزرع قمحاً يحصد قمحاً ومن يزرع شوكاً لا يحصد إلاّ الشوك، وإن تصوّر أنّه كان غير ذلك!

الاعتبار من قصة شريك النخعي

شريك بن عبد الله بن سنان النخعي أحد علماء البلاط في العصر العباسي، كان يتصوّر نفسه عالِماً في قبال الإمام الصادق (عليه السلام)، وكان يتظاهر بالعبادة والزهد والابتعاد عن الحكّام. وكان العباسيون يصرّون عليه أن يقترب منهم ولكنه كان يرفض. في إحدى الأيام طلبه المهدي العباسي قائلاً: علَيَّ بشريك النخعي. ولما جاءوا به قال له. أعرضُ عليك ثلاثة أمور فإمّا أن تقبل بأحدها وإلاّ فمصيرك السجن! (وكانت هذه الأمور الثلاثة تصبّ كلها في أمر واحد وهو أن يظهر النخعي مرتبطاً بالنظام الحاكم) وقال له المهدي: إن لم ترتبط بنا فسيقول الناس: "لاشكّ أنّ الحاكم غير جيد، وإلاّ لم يقاطعه النخعي وهو عالِم معروف!" لذا عليك أن تختار واحداً من ثلاثة أشياء: إما أن تقبل القضاء أي تكون قاضياً لنا، أو تكون محدّثنا ومعلّم أولادنا، أو تأكل عندنا وتكون ضيفاً علينا.

فكّر شريك قليلاً ثم قال: إذا كان ولابدّ فالثالث، فإنّه رأى أنّ ذلك أسهل من الأمرين الآخرين ولا يلزم منه أن يبقى كل حياته قاضياً للظالم أو محدّثاً له ومعلّماً لأولاده، فإنّ الأمر ينتهي بأكلة واحدة لا تترك انطباعاً كبيراً لدى الجمهور

عن علاقة النخعي بالنظام.

ولكن المهدي العباسي كان أذكى من النخعي فأمر طباخه بأن يعدّ أطيب الأطعمة وألذّها، وأخّر النخعي لعدّة ساعات لكي يشتدّ جوعه، ثم دعاه إلى المائدة.

وتكمن المشكلة في أنّ النخعي لم يكن عابداً وزاهداً حقاً، بل متظاهراً بهما، وإلاّ لأكل قليلاً من الطعام ثم اعتذر بالشبع، ولكنّه وجدها فرصة لا تعوّض، فلم يقتصر على الضروري في تناول الأكل المحرّم الذي لم يعلم مصدره ولا ما فيه!

بعد بضعة أيام بعث المهدي يطلب النخعي مرة أخرى، ولكنّ الأخير لبّى مسرعاً في هذه المرّة، ثم بعث خلفه ثانياً وثالثاً ورابعاً - ومن يهن يسهل الهوان عليه - حتى بلغ به الحال أن أصبح قاضياً للمهدي ومحدّثاً، أي من علماء البلاط، ومؤدّباً لأولاده.

بل بلغ الحال بهذا الرجل الذي كان يبتعد عن المهدي العباسي وحكومته، أن يتقاضى منه مرتّباً شهرياً. وفي إحدى المرات التي كان يحمل شيك المرتّب للصرّاف اعتذر منه الصراف بكثرة المشترين وقلة النقود وأوكله إلى الغد. لكن النخعي اعترض قائلاً: لقد أتيتك بنفسي وأنا مَن تعلم، أفتردّني وتوكلني إلى وقت آخر؟ وتشاجرا وارتفعت أصواتهما وقال له الصراف: هل بعتني بُرّاً لتستعجلني بالثمن؟ فقال في جوابه: بل بعتك ما هو أغلى! تعجب الصراف وقال: وما بعتني؟ قال: بعتك ديني!

ورآه يوماً سفيان الثوري فقال له: يا شريك أبعد الإسلام والفقه والصلاح كلما يُسأل عنك يقال عند المهدي أو الهادي العباسي؟!

وقضى شريك بقية حياته في خدمة السلاطين حتى نيف على المئة فطرده الرشيد العباسي في قصة ليس هذا محلّ ذكرها. ولكن المهم هو النتيجة والاعتبار منها، وهي أنّ الأكلة المحرّمة الواحدة عملت عملها وأثمرت هذه الثمرة السيّئة!

يقول المسعودي راوي القصة: إنّ الطباخ قال للربيع (صاحب الخليفة) بعدما

خرج النخعي: لقد عملت له أكلة لا أراه ينجو منها بعد ذلك! وهكذا كانت بالفعل، والله وحده يعلم ماذا كان قد وضع الطباخ في تلك الوجبة مما حرّم الله من الخبائث فضلاً عن كونها مغصوبة ومن يد الظالم!

الخلاصة

إذن، كلّما أصبت بسيّئة فابحث عن السبب لأنّ الله عادل لا يظلِم أحداً ﴿وما ربّك بظلاّم للعبيد﴾[1]. بل هو مبعث الإحسان والكرم. ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾، أمّا السوء الذي يصيب الإنسان فمن نفسه، وكلّما عدّل الإنسان سيرته في الحياة قلّت إصابته بالسيّئات.

أما الذي لا يكترث فإنّ النتيجة السيّئة ستلحقه - والعياذ بالله - طالت المدّة أو قصرت. وعلى الإنسان أن يكون حذراً ولا يغترّ. يقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «يابن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»[2]. أتدري لماذا؟ لأنّ هذا معناه أنّ الله أخّر له السوء في الآخرة. وهناك المصيبة أعظم! لأنّ الدنيا تنتهي وتنصرم والإنسان ينجو منها على كل حال، أمّا السوء في الآخرة فليس فيه منجى.

نسأل الله تعالى أن يكفّر عنّا سيّئاتنا ويتوفّانا مع الأبرار.

وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) سورة فصّلت: ٤٦.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ محمد عبده، ج٤، ص٧، ط: بيروت.

المحاضرة ١٩

الإخلاص وآثاره

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المخلَصين﴾[١].

■ الفرق بين المخلِص والمخلَص

هناك فرق بين المخلِص والمخلَص؛ فالمخلِص مَن كانت أعماله خالصةً لله، أي يقوم بها لله فقط، ولا يقوم بها لغيره لا بالانفراد أي لغير الله فقط، ولا بالشركة أي لغير الله ولله معاً. وقد وردت في هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[٢].

أمّا المخلَص - بصيغة المفعول - فهو من طبعه الله بطابع الإخلاص أي ختمه ومهره بختم الإخلاص، فاستخلصه وجعله خالصاً وأيد إخلاصه. ووردت في هذا المعنى أيضاً آيات عديدة، منها الآية التي صدّرنا بها البحث.

وفي هذه الآية يُقسِم الشيطان بعزة الله تعالى بعد أن طرده الله من الجنة لّما رفض السجود لآدم (عليه السلام) أنّه سيقوم بإغواء بني آدم كلهم ولكنه استثنى منهم عباد الله المخلَصين. فإنّ مَن استخلصهم الله تعالى ووقّع على إخلاصهم، لا يقدر إبليس على إغوائهم، ولم يستثنِ غيرهم حتى المخلِصين - بكسر اللام -.

---

(١) سورة ص: ٨٢ - ٨٣.

(٢) سورة البينة: ٥.

■ المخلِص والمخلَص في القرآن

هناك ظاهرتان ملحوظتان في القرآن الكريم بالنسبة إلى كلمتي «مخلِص» و«مخلَص»؛ الظاهرة الأولى: إنّه حيثما ذُكر قَسَم الشيطان لله تعالى بإضلال بني آدم وإغوائهم - ولقد ورد في آيات عديدة وبألفاظ مختلفة - فإنّه لم يستثنِ المخلِصين ولا مرة واحدة، بل كان الاستثناء للمخلَصين دائماً.

الظاهرة الثانية: كلّما كان المورد يرتبط بالإنسان وأعماله فإنّ القرآن يذكر كلمة «مخلِص»، وكلما كان الموضوع يتعلق بالله وشأنه هو فإنّه يستعمل كلمة «مخلَص». فلو أنّ عبدا قُبل إخلاصه عند الله سُمّي مخلَصاً، أمّا عندما يريد القرآن أن يذكر أحكاماً ترتبط بالإنسان فإنه يورد كلمة مخلِص، والآيتان المذكورتان آنفاً خير مثال ودليل على ذلك.

فليس من شأن الإنسان أن يكون مخلَصاً - فالمخلَص مَن أخلصه الله - وإنّما من شأنه أن يكون مخلِصاً لله تعالى في أعماله وعباداته ونواياه.

وهذا هو الفرق بين المخلِص والمخلَص في القرآن. فالذي يبلغ به الله تعالى الدرجة الرفيعة هو المخلَص. أما المخلِص فعليه أن يعمّق إخلاصه حتى يجعله الله مخلَصاً.

■ الإخلاص من الأمور الواقعية

هناك في الحياة أمور مادية، وأخرى واقعية. فكثير من الأمور المادية لا واقعية لها، أما الأمور الواقعية فهي التي لها واقع وحقيقة أعم من أن تكون مادية أو معنوية. فمن الأمور الواقعية في الحياة مثلاً: أنّ الإنسان الذي يستطيع أن يسيطر على أعصابه ويملك نفسه تجاه السفهاء من الناس لا يفقد صحته ولا دينه ولا كرامته في المجتمع، خلافاً لمن يثور بسرعة فيفقد السيطرة على أعصابه وربما ردّ الكيل بمكيالين والصاع بصاعين، ويكون مصداقاً للحديث الشريف: «قد ينقلب المظلوم ظالماً» فيفقد دينه، كما يخسر صحته بسبب هياجه وغيظه، وتتزلزل مكانته

الاجتماعية لتعرضه للنقد أو النصح الدائم من قِبل الآخرين. فثورة الشخص الثاني وصراخه وغضبه وعراكه ومرضه وانهياره... كلها أمور مادية ولكن لا واقع وراءها؛ بدليل أنّ الشخص الأوّل في المثال تصرّف تجاه الواقع نفسه بصورة ربح فيها الموقف دون أن يخسر شيئاً مما فرّط به الشخص الثاني.

مثال آخر: شخصان تقدِّم لكل منهما رعيفاً من الخبز، يشبع الأوّل منهما قبل أن يبلغ نصف رغيفه، بينما يكمل الثاني رغيفه وما زال يشعر بالجوع. فهل القرص الواحد من الخبز يُشبع حقيقة أم لا؟ نقول في الجواب: لا هذه النسبة تمثل الواقع ولا تلك، وإنما هذه الأمور المادية تعود إلى التربية والعادة التي عوّد المرء نفسه عليها، كما في المثال السابق، وهذا حال كثير من الماديات.

أما الواقعيات فليس حالها هكذا، بدليل أنّ الناس لا يختلفون فيها. فإنّ الجهل قبيح واقعاً، وهذا لا يختلف عليه اثنان من العقلاء. فمن كلام لأردشير بن بابك في رسالته إلى أبناء الملوك (حسبكم دلالة على فضل العلم أنّه ممدوح بكل إنسان يتزين غير أهله ويدّعيه مَن لا يلصق به. وبحسبكم دلالة على كل عيب الجهل أنّ كل أحد ينتفي منه ويغضب أن يسمى به)[1]. فحتى الذي ليس عنده علم يحبّ أن يقال عنه عالِم، ويفرح بذلك حتى لو كان كذباً. كما أنّ الجاهل لا يرضى أن يقال عنه جاهل وإن كان كذلك حقيقة. وهذا يدل على أنّ العلم له واقعية والعقل له واقعية، وهكذا حال سائر الواقعيات.

وكون الإخلاص أمراً حسناً وممدوحاً من الأمور الواقعية؛ فإنّ أيّ عاقل سينزعج ويتأثر لو قيل إنّه غير مخلص في عمله. كما أنّه حتى غير المخلص يفرح لو قيل عنه إنّه مخلص وإن لم يكن كذلك واقعاً. وهذا دليل على واقعية كون الإخلاص حسناً، كواقعية الصدق والشجاعة والكرم وكل ما هو حسن.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٨، ص٢٣٠.

■ آثار الإخلاص في الواقع العملي

هذا وللأمور الواقعية آثار تترتب عليها ولا تتخلف عنها، وهذه الآثار تتناسب بصورة طردية مع درجة الواقعية ونسبتها. فكلما زادت واقعية الشيء زادت آثاره.

توفي أحد العلماء (رضوان الله عليه) فنقل عن أحواله أنّه كان إذا دُعي للصلاة على الميت، يحضر الجنازة فيصلي عليها ولا يتأخر بعد ذلك بل ينصرف إلى أعماله وشؤونه الاجتماعية، فلقد كان مرجعاً صاحب رسالة عملية يرجع إليه الناس في أمور دينهم. واتّفق في يوم من الأيام أن مات أحد القصابين في ذلك البلد، فأُخبر العالِم فحضر للصلاة عليه، ولكنه - على خلاف عادته - تأخر هذه المرة حتى دفنوا الميت ثم جلس على قبره وقرأ له الأدعية وبعض السور من القرآن.

يقول راوي القصة: أثار هذا الأمر استغرابنا لأنّ الميت لم يكن من أقرباء العالِم ولا كان من العلماء أو الزهّاد فنفهم سر اهتمام هذا العالِم به. وعندما همّ بالانصراف توجهنا إليه بالسؤال عن سر اهتمامه بهذا القصاب والإكثار من الترحّم عليه، فقال: إنّ هذا القصاب ساعدني حيث لم يساعدني أحد، فكان يقرضني وهو لا يعرفني في وقت كنت محتاجاً، ودون أن يأمل حتى بقدرتي على إرجاع المال إليه. فيوم قدمت إلى هذا البلد كنت فقيراً ولم يكن أحد يعرفني حتى هذا القصاب ما كان يعرفني ولا أعرفه، إلاّ أنّي كنت أشتري منه اللحم، وفي إحدى المرات لم يكن عندي مال لأدفع الثمن، وكنت معيلاً، فقال لي: لا بأس أنا مستعد لأن أبيعك اللحم ويكون ثمنه دَيناً في ذمتك، وتكررت الحالة في اليوم الآخر، ولعدة أيام، وهو يقرضني برحابة صدر دون أن يعرفني أو يعلم أنّي قادر على تسديد الديون - فقد كنت طالباً ولا أملك مورداً آمل أن يأتيني منه المال - ولا أوصاه أحد بي، فقد سألته يوماً: هل أوصاك أحد بي؟ فقال: لا. قلت: تعرفني إذاً؟ قال: لا. قلت: لماذا إذاً تقرضني؟ قال: رأيتك مؤمناً بادي الصلاح ومعيلاً فأقرضتك في سبيل الله فإن حصلت على المال رددته إليّ، وإن لم تحصل فلا بأس عليك ولا

أخسر في صفقتي مع الله.

يقول العالِم: أُعجبتُ بإخلاص هذا الرجل الذي ساعدني دون أن يعرفني قربة إلى الله تعالى.

فإذا كنّا لا ننسى المساعدة المخلصة من دون آلاف المساعدات الأخرى، ونقدّرها - على قصر عقولنا - وإذا كنا ندرك هذه الحقيقة ولا نختلف فيها - وهذا يعني أنّها من الواقعيات، وللواقعيات آثارها كما قلنا - فكيف بالله تعالى وهو أحكم الحاكمين.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لنا محبين لو قطعنا الواحد منهم إرباً إرباً ما زادوا إلاّ حباً، ولنا مبغضين لو ألعقناهم العسل ما ازدادوا إلاّ بغضاً»[1].

فهل يُعقل أن يُقطَّع أحدٌ بالسيف ومع ذلك يحب مَن قطّعه؟

نقول: إلاّ أن يكون حبه لله تعالى وليس لشخصه.

■ وتبقى آثار الإخلاص في عقب المخلِص

• في الروايات أنّه «لما أُهبط آدم (عليه السلام) إلى الأرض جاءته وحوش الفلاة تسلم عليه وتزوره، فكان يدعو لكل جنس بما يليق به، فجاءته طائفة من الظباء فدعا لهن ومسح على ظهورهن فظهر منهن نوافج المسك، فلما رأى ما فيها من ذلك غزلان أُخر فقالوا: من أين هذا لكنّ؟ فقلن: زرنا صفي الله آدم فدعا لنا ومسح على ظهورنا، فمضى البواقي إليه فدعا لهنّ ومسح على ظهورهنّ فلم يظهر لهن من ذلك شيء، فقالوا: قد سلّمنا كما فعلتم فلم نرَ شيئاً مما حصل لكم؟ فقالوا: أنتم كان عملكم لتنالوا كما نال إخوانكم وأولئك كان عملهم لله من غير

---

(1) بحار الأنوار: ج٣٤، ص٢٦٧.

شيء فظهر ذلك في نسلهم وعقبهم إلى يوم القيامة»[1].

• حكي أنّ رجلاً من الأعراب زار ضريح الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ونظم عنده بيتاً واحداً من الشعر مختل الوزن وعارياً من أية بداعة لفظية، فانحلّت عروة قنديل من الذهب معلّق في الحرم وسقط القنديل أمامه وقدامه على الأرض، فقيل للأعرابي: إنّ هذا القنديل سقط إكراماً وهدية لك من الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنّ الأمر كان خلاف العادة، فالقناديل محكمة الربط بسلاسل حديدية، ففُسِّر الأمر على أنّه كرامة من الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لهذا الأعرابي.

فسمع أحد شعراء النجف الأشرف في تلك الأيام بالقصة فنظم قصيدة عصماء وقرّر أن يلقيها عند ضريح الإمام (عليه السلام) ليحصل على قنديل من ذهب - إن لم يكن أكثر - وسمعة طيبة مادام الإمام أعطى ذلك الأعرابي قنديلاً رغم ركاكة بيته. واجتمع أصدقاؤه في الحرم في اليوم المقرّر الذي أخبرهم به، وشرع بقراءة البيت الأوّل ولم يسقط قنديل، واستمر فقرأ البيت الثاني ثم الثالث والرابع حتى نيف على العشرين وأكمل القصيدة، ولكن دون جدوى. وتألم الشاعر كثيراً وأُسقط في يده، فتقدم نحو الضريح المقدس وخاطب الإمام (عليه السلام) بلهجة تنم عن البساطة وقال: ذاك الأعرابي أنشد لك بيتاً واحداً من الشعر الذي لا يُعرف أوّله من آخره وهو خالٍ من المعاني البديعة، وأنت أعطيتَه جائزة، وأنا أتيتك بهذه القصيدة العصماء التي أتعبت نفسي فيها، ولم تكافئني عليها. ثم انصرف متألماً.

ولكنه رأى في عالَم الرؤيا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول له: ماذا عتبتَ عليَّ هذا اليوم؟ فقال: إذا كانت القضية قضية شعر فشعري أجمل وأبلغ، فلماذا أعطيته وحرمتني؟ قال له الإمام: أنا عندي ذائقة شعرية ولكن الفرق أنّ

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٢، ص٨٩.

ذلك الأعرابي قال الشعر لي وأنت قلته للقنديل! اذهب وطالب القنديل. صحيح أنّك مدحتني ولكن لا لأجلي بل من أجل القنديل والكرامة الاجتماعية؛ أما ذاك فكان مدحه لي أنا فحسب.

■ الإخلاص عند طلبة العلوم أصعب

ونحن -طلبة العلوم الدينية- مبتَلَون في مسألة الإخلاص أكثر من غيرنا، لأنّنا قد نصل- نتيجة دراستنا- إلى مواقع في المجتمع يطمع الشيطان بسببها في إغرائنا، لأنّ أحدنا لو زلّ - لا سمح الله - فسيزل ويضل بسببه خلق كثير.

هذا إضافة إلى ما في الموقع نفسه من إغراءات، كما لو بلغ أحد موقع الرئاسة حيث تُجبى إليه الأموال ويحظى باحترام الناس وتقديرهم وحبهم، وكذا لو كان وكيلاً للمرجع أو خطيباً أو أيّ موقع اجتماعي مرموق.. فإنّ مثل هذه الأمور مغريات كثيرة تتطلب منا اليقظة بدءاً واستمراراً. فإن كان نظر الإنسان إلى هذه اللوازم التي تأتي نتيجة موقع المسؤولية - كالهيبة والتقدير والوجاهة أو الأموال والمكاسب المادية الأخرى - وكانت هذه الأمور هي التي تدفع الإنسان للعمل، فهذا ما يخشى منه حقاً، فإنّه قد يقال للإنسان بعد تعب مرير وعناءٍ كثير: لقد فعلت ما فعلت من أجل هذه الأمور وقد حصلت عليها فلا شيء لك عندنا. لقد عملتَ للشهرة والسمعة وحسن الصيت ومن أجل أن يقال لك - مثلاً -: كاتب جيد أو خطيب مصقع أو عالم عامل أو ما أشبه، فقد نلت مرامك. فنكون كمَن نظم القصيدة للقنديل وليس للإمام (عليه السلام)، أو كالغزلان التي ذهبت للقاء آدم (عليه السلام) ولكن من أجل نوافج المسك وليس من أجل آدم نفسه. أما مَن عمل هذه الأمور ولم يكن يرجو من ورائها مالاً ولا جاهاً ولا أموراً دنيوية أخرى، بل عمل لله فإنّ الله يقدّر له عمله ويجازيه أحسن الجزاء.

فلنعتبر قبل فوات الأوان وقبل أن نكتشف أنّه لات حين عبرة، ولنأخذ

الدروس من قصص الآخرين. فإذا كان الإنسان بفطرته يدرك أنّ المخلِص هو الحري بالثواب دون غيره - كما تبين لنا ذلك في قصة العالِم الذي كرم القصاب بعد وفاته بسبب إخلاصه - وأنّ للإخلاص آثاراً وضعية وتكوينية وأنها تبقى حتى في أعقاب الشخص إلى يوم القيامة، فلنراجع أنفسنا إذاً وننظر هل أعمالنا ودراستنا وجهادنا وجهودنا لله حقاً أم هناك ضمائم نشركها مع الله سبحانه، ولنعرف أنّ بلاءنا أعظم لأنّ الشيطان يستهدفنا أكثر من غيرنا، ومغرياتنا كثيرة؛ ولذلك ترى المخلِصين قلة والمخلَصين أقل!

لو سئل أحدنا عن عدد الأشخاص الذين عرفهم في حياته وهم مخلصون لله حقاً، فلربما لزمه نصف ساعة من التفكير والاستذكار حتى يحضر إلى ذهنه اسم شخص واحد فقط من هذا النمط، ولو فكّر أحدنا فيمن حوله من أصدقائه وأقاربه فكم سيكون عدد المخلصين بينهم؟

بل لنسأل أنفسنا: لو سئل غيرنا هذا السؤال فهل سيعدّنا ضمن مَن يعدّهم مخلصين أم لا؟ وإن كان المهم هو أن نُعدّ من المخلصين عند الله لأنّه حتى لو عدّنا زيد أو عمرو من المخلصين فما الفائدة إن لم نكن كذلك عند الله حقاً! فإن كنّا كذلك وكانت دراستنا وتعليمنا وتعلّمنا وجهادنا وكل خدمتنا لله، فإنّ آثار هذا الإخلاص ستظهر علينا شيئاً فشيئاً ويستطيع غيرنا أن يحسّ منّا ذلك أيضاً، وإن كان الأفضل أن يخفي الإنسان ذلك - كما في الأحاديث - ولكن الله سبحانه وتعالى يظهر آثار الأمور الواقعية طبعاً، عاجلاً أم آجلاً.

ولكن حتى هذا الأمر - أعني الطمع بظهور آثار الإخلاص - لا ينبغي أن يكون هو الدافع لنا نحو التحرك والعمل، بل ليكن عملنا لله وحده، وإلاّ فلو عملنا بإخلاص من أجل نتيجة الإخلاص فإنّ ذلك لا ينفع أيضاً، بل سيكون من الدور في المسائل - على حد التعبير المنطقي -.

هذا والإخلاص مرتبة صعبة ولكنه بالنسبة إلى بعض أصعب، وذلك لأنهم

يستطيعون لمعرفتهم بعض الشيء أن يكيّفوا أعمالهم بنحو بحيث يتصور مَن يلاحظهم أنّهم مخلصون. ومن ثم فإنّ إخلاصهم يكون أكثر أجراً كما أنّ عقوبتهم على الزلاّت وعدم الإخلاص أشد؛ لما ذكرنا من الأسباب ولأنّ عملهم يقتدي به الآخرون. فلو شعر من يصاحبنا بعد فترة أنّا كنا نتصنّع الإخلاص و لم نكن مخلصين حقاً، فربما يشك على أثره في المخلصين من أهل العلم كلهم، ويقول مع نفسه: إنّ هذا الذي عاشرته كل هذه المدة متصوّراً أنّه مخلص تبيّن لي زيفه، فكيف بالآخرين، وهم يعرفون جيداً كيف يتظاهرون بالإخلاص؟!

وهكذا يكون لعمل شخص واحد من أهل العلم متظاهراً بالإخلاص تأثيراً سيّئاً على المخلصين الحقيقيين من العلماء؛ إذن، من الأسس التي يجب على الإنسان أن يسأل الله التوفيق فيها والاستمرار عليها هي أن تكون أعماله لله حقيقة.

لا بأس أن يدرس الإنسان لكي يكون مرجعاً أو مبلّغاً أو خطيباً أو عالِماً في بلدة ما، ولكن ليكن كل ذلك لثواب الله وأجره. ومَن كان هذا هدفه لا يهمه ما يقوله في حقه زيد أو عمرو، لا سلباً ولا إيجاباً. صحيح إنّ التشجيع والتثبيط لهما أثر في نفس الإنسان، ولكن مَن بلغ درجة الإخلاص لا يؤثران في حركته.

لو شجّعنا أحد بشيء وكنّا نجهله فلا بأس، كأن يقول لنا: إنّ لدراسة الفقه كذا من الأجر والثواب، ويكون قوله دافعاً لنا للمزيد من الجد في هذا الطريق. أما لو كنّا - فقط - ننتظر أن يقول لنا الآخرون ذلك من باب الإطراء والاحتفاء، فلنعلم أنّ هذا الأمر الذي أدركته عقولنا القاصرة لا يخفى على الله تعالى، وكل شيء عنده بمقدار.

إنّ الشيطان الغويّ يفرّق بين المخلِص والمخلَص، وعندما يريد أن يتكلم مع الله يعرف كيف يكون الكلام عن كل منهما. فهو يستثني المخلَصين، أفلا يعرف الله ذلك من نفوسنا؟!

سبحان الله! إنّ الله يعرف كل ذلك ويزن لنا بنفس الموازين ويعرّفنا بها حتى

تنقطع حجتنا «فللّه الحجة البالغة»[1].

لننظر بأنفسنا كم يؤثر فينا التشجيع والتثبيط. فإن كان التثبيط يؤثر فينا مئة في المئة فذلك دليل على أنّ الإخلاص غير موجود فينا حتى بنسبة الواحد في المئة. وذلك كما لو أردت أن تقوم بعمل لله - وليكن تأليف كتاب في خدمة طريق الله مثلاً - ثم لاحظت أنّ هناك مَن يتكلم ضدك في حضورك أو غيابك ويقول إنّك مراءٍ أو كذا وكذا.. فإن قلت: لا فائدة ترتجى! أنا أعمل والناس يتكلمون ضدي فلأتركه إذاً! فهذا دليل على أنه لا وجود للإخلاص في عملك؛ إلاّ إذا كان هناك مصلحة دينية في ترك العمل أي كان الترك لله أيضاً وليس بسبب تأثرك لنفسك.

مثال آخر: ما لو لم تكن تفكر القيام بعمل ما؛ ولكن شجعك المشجعون ورأيت بأنّه توجد رغبة عند الناس في هذا الأمر، فقمت به من أجل رغبة الناس وليس لأنّ الله أمرك به أو أحبّه، فهذا أيضاً يعني غياب الإخلاص، والعياذ بالله! فهذان مثالان على عدم وجود الإخلاص حتى بنسبة واحد في المئة.

ولكن لو كان العمل لله وكان التشجيع أيضاً وراء العمل. أو كان الترك لله وللتثبيط معاً، فهذا يعني وجود الإخلاص بنسبة.

لقد كان العلماء السابقون - وقد أدركتُ بعضهم - يعرف المرء إخلاصهم من الآثار الظاهرة عليهم بفضل الله وتوفيقه. فكانوا يدرسون لله حقاً، ويدرّسون لله، ويعملون لله.

وعلينا أن نربي أنفسنا لنكون كذلك، ويكون كل عملنا لله تعالى، ولنريّض أنفسنا لنكون كذلك في المستقبل إن لم نكن قد بلغنا ذلك الآن. وبذلك نرغم أنف الشيطان، فإنّ الإمام عليه الصلاة والسلام يقول: «لابن آدم لمتان؛ لمة من

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٩.

الملك ولمة من الشيطان»[1].

واللمة: الهمة والخطرة تقع في القلب.

والإمام المعصوم (عليه السلام) هو خير مَن يعرف الشيطان ولذلك يجتنبه، لكنّا لا نعرفه كما يعرفه الإمام وإلاّ لكان ابتعادنا عنه كابتعاد الإمام. أرأيت كيف يفرّ أحدنا من الظالم أو من الحيوان المفترس؟! إنّ ذلك لمعرفتنا بهما. فلو كنت في غرفة ليلاً وأردت النوم وقيل لك إنّ في الغرفة حية مختفية فهل يغمض لك جفن أم تبقى حذراً حتى الصباح؟!

إنّ الشيطان أخطر من الحية وهو عدوّنا الذي حذّرنا الله منه، فلنحذره ولا ننخدع به قبل أن يفوتنا الأوان وينتصر علينا لا سمح الله فيسخر منّا ونندم عند ذلك ولا يفيدنا الندم. فلقد ورد في الحديث عن المعصوم (عليه السلام): «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يغلب خيره شره قبّل الشيطان بين عينيه وقال: هذا وجه لا يفلح»[2].

لاشكّ أنّه لا يأس من رحمة الله لمن بلغ الأربعين أو أكثر ولكن التحول عند ذلك استثناء «إلاّ مَن رحم ربي» وليس قاعدة، وفيه صعوبة بالغة.

فالشباب أقدر على أن يسحقوا جبين الشيطان ويرغموا أنفه فليبادروا قبل أن يتمكن الشيطان منهم فإنّ الخلاص من ربقته في المستقبل أصعب. والشيطان نفسه يعرف ذلك ويعرف أنّ الإنسان إذا بلغ الأربعين ضعفت قواه وإرادته على محاربة الشيطان إلاّ مَن رحم الله.

فإذا كان الأمر كذلك فلنبدأ من الآن في مراجعة أنفسنا كل يوم، كل في مجال عمله، ولنَزِنْها قبل أن يصعب الأمر علينا أكثر وقبل أن تصيبنا الغشاوة التي تكون

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧، ص٤٩، باب٤٤ القلب وصلاحه وفساده.

(٢) مشكاة الأنوار: ص١٦٩.

مانعاً من نفاذ نور اليقين والعلم إلى أعماقنا، لكي نتمكن أن نميّز أصلاً ما هو الشيطان، وما هو الإخلاص!

انظروا الآن إلى هذه الكلمات التي أقولها وتمعنوا فيها، أنا أشعر بأنّها حقائق وأنّها تحكي عن واقع، ولا شكّ يشاركني التصوّر نفسه كثيرون، ولكن ما هو مدى اهتمامنا بهذا الواقع الذي نعتقد به ونعتقد أنّه أساسي وأنّ كل الأمور الأخرى مبنية عليه؟!

هذا الأساس الذي لو تزحزح لسقط كل البنيان الذي فوقه، ماذا سنجيب لو سُئلنا عنه يوم القيامة؟ ماذا نقول لو سُئلنا: ماذا عملتَ لنا - أي لله تعالى -؟

إذن علينا -نحن طلبة العلوم الدينية- أن ننتبه إلى خطر عدم الإخلاص في أوساطنا أكثر من غيرنا لأنّ للإخلاص فينا آثاراً تظهر علينا وعلى غيرنا، وتؤثر في غيرنا وتنير له الطريق، كما أنّ عدم إخلاصنا ستكون - والعياذ بالله - له أسوأ الآثار، وربما يبقى في التاريخ، ويسلك كثيرون الطريق المعوج بسببنا نحن نتيجة لعدم إخلاصنا، أو نتيجة لما استنبطوه هم من سلوكنا كذلك؛ ولهذا كان يجب علينا الاهتمام بموضوع الإخلاص أكثر من غيرنا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ الشيطان ينشط في أوساطنا أكثر ويدلّينا على الطرق التي يمكن أن نظهر فيها بصورة المخلصين ولسنا منهم. نعوذ بالله من الشيطان ونسأله التوفيق لأن نزن أنفسنا دائماً حتى ننتقل إلى درجة المخلِصين ثم المخلَصين إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

الإخلاص في النية شرط قبول العمل المحاضرة ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عزّ وجلّ: اجعلوها في سجين إنّه ليس إياي أراد به**»[(١)].

القصد والنية أو ما يُطلق عليه العلماء بالعمل الجانحي - أي الذي يكون محله القلب - يكون إطاراً وحافظاً للعمل الذي يصدر من الجوارح أو ما يسمّى بالعمل الجوارحي. فالعمل الجانحي هو الذي يقوّم العمل الجوارحي، وهذه قاعدة مطردة عند العقلاء، ويكون الحساب عند الله تعالى على أساسها.

■ بعض الأعمال قوامها النية

لا شكّ أنّ بعض الأعمال لا مدخلية للنية فيها بل المطلوب أن تقع كيفما وقعت. ومثالها أن تستدعي بنّاءً لبناء دارك، فالمطلوب أن يؤدّي عمله بإتقان لقاء الأجر الذي يتقاضاه، ولا همّك نيّته وراء قيامه بهذا العمل، بل المهم عندك أن يكون العمل نفسه - وهو البناء - صحيحاً.

ولكن ثمة أعمال أخرى لا يكفي أن تقع مجرّدةً عن النية والقصد، ومثالها أن تدخل مجلساً وتلاحظ أنّ شخصاً قام عند دخولك، فإن كان لأجل احترامك فهو ذو قيمة بالنسبة لك ويستحق عليه أجراً معنوياً وهو الاحترام المتبادل، أما لو كان قيامه لسبب آخر أو دونما سبب واتّفق مع دخولك، فلا يستحق عليك شيئاً؛ لأنّ المهم ليس أصل القيام بل القصد والنية والباعث من ورائه، فمثل هذا العمل هو

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٤.

الذي يكون للنية دخل فيه وفي قيمته.

والحال نفسه يصدق على الأعمال التي يريد الله تعالى منّا القيام بها، فثمة أعمال لا يشترط في صحتها النية كالأعمال غير العبادية [وإن كان يمكن التقرّب بها إلى الله إذا نوى المرء امتثالها كذلك].

ومثال آخر - لتوضيح الفكرة نسبياً - على الأمور التي قوامها القصد والنية هي المسائل الإنشائية أي القضايا التي فيها قصد الإنشاء - حسب الاصطلاح العلمي -. فما لم يقع هذا القصد لا يكون إنشاء في الخارج، ومثاله العقود كعقد البيع والنكاح وسائر العقود. فالمدرّس عندما يدرّس الطلاب ويمثّل لهم عقد البيع بقوله: «بعتك هذا الكتاب» لا يتحقق البيع رغم إجراء الصيغة بصورة صحيحة لأنّ القصد هنا ليس الإنشاء. وهذا جارٍ في سائر الشؤون عند العقلاء.

مثال آخر أكثر توضيحاً: يذكر الفقهاء شروطاً عديدة لصحة عقد النكاح؛ منها: تقدّم الإيجاب على القبول، وأن يكون اللفظ بالعربية، وأن يكون بصيغة الماضي مثل "زوّجتك نفسي" وما أشبه، وأن لا يقع فصل بين القبول والإيجاب، وأن يكون القبول بمادة القبول مثل «قبلتُ» إلى آخره. والآن لو سألنا: ما حكم ألوف الألفاظ التي تقع بها صيغة عقد النكاح المتوفرة على سائر الشروط أعلاه في قاعات الدرس عندما يريد الأساتذة أن يمثّلوا لتلامذتهم كيفية وقوع عقد النكاح؟ يكون الجواب: إنّ هذه الألفاظ والصيغ وإن كانت متوفرة على سائر الشروط إلاّ أنّها تفتقد إلى الشرط الأساسي وهو القصد، ولذلك لا يقع بها نكاح، وهذا أمر مفهوم عند العقلاء؛ لأنّهم يدركون أنّ الأعمال التي تتقوّم بالنية والقصد لا قيمة لها إن افتقدته.

هذا ولا يكفي القصد المطلق أي مجرد القصد أيّ قصد كان، بل لابدّ من حصول القصد الخاص، فلو قال الشخص «بعتُ» وقصد النكاح، فلا البيع يقع ولا النكاح بل لابدّ أن يريد من قوله «بعت» البيع ومن قوله «أنكحتُ» النكاح.

■ العبادات شرطها النية

كل ما تقدّم في معاملات العقلاء من اعتبار القصد يصدق في العلاقة مع الله تعالى والعبادات، ومن ثم قالوا: إنّ العبادة لا تقع صحيحة إلاّ مقيّدة بالقصد الخاص وهو قصد التقرّب إلى الله تعالى كما قال سبحانه: «وما أُمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين»[1]، أي لا ينبغي وجود قصد ثانٍ غير الله يختفي وراء ذلك القصد يكون هو الدافع.

بيد أنّ هناك بحثاً فقهياً حول العبادات غير الواجبة والتوصّليات؛ فإنّ الأمور التي أرادها الله سبحانه وتعالى منّا على قسمين: عباديات وتوصليات. أما النوصليات فهي التي لا يشترط فيها النية رغم أنّ الله أراد منّا القيام بها [سواء ما كان منها على نحو الوجوب كطاعة الوالدين و التطهّر من النجاسات كشرط لبعض العبادات، أو على نحو الاستحباب كصلة الرحم والتصدّق على الفقراء]. ولا خلاف في أنّ التوصّليات إذا وقعت فهي صحيحة ولا علاقة للصحة بالحلية والحرمة فيها فضلاً عن النية. فإنّ الثوب النجس يطهر إن غُسل بماء طاهر وإن كان الماء مغصوباً وأثم المكلّف على غصبه. ولا خلاف في أنّ العباديات - وهي التي يشترط فيها النية - لا تقع صحيحة من دون النية والقصد الخاص وإن كانت من المستحبات.

ولا خلاف في أنّ مَن أتى بالواجب العبادي رياءً - أي لم يكن قصده القربة والنية الخالصة لله - فإنّه يحاسَب لأنّ التكليف الذي كان في عهدته لم يسقط، حيث إنّ العبادة لم تقع صحيحة لكونها وقعت رياءً وافتقدت مقوّمها الأساسي وهو قصد القربة.

---

(١) سورة البيّنة: ٥.

ولكن هناك كلام في المستحبات العبادية (كصلاة الغفيلة أو صوم شهر شعبان) والتوصليات عامة (كالصدقة والإنفاق حتى الواجب منها) إن وقعت رياء، فهل يكون المكلّف قد ارتكب عملاً محرماً بذلك أم لا، لأنّه غير واجب أصلاً أو توصلي لا يشترط فيه النية؟

هنا يختلف الفقهاء حيث ذهب بعضهم إلى الحرمة، وبخاصة في العباديات المستحبة - حيث إنّ القائلين بحرمة العمل المستحب رياء أكثر - فمَن صلّى صلاة الليل رياءً مثلاً فإنّما يكون قد ارتكب فعلاً محرّماً وهو الرياء.

الذاهبون إلى هذا الرأي يتمسكون بإطلاق أدلة الرياء، على أنّ المسألة شائكة وبحاجة إلى جهد متميّز لاستنباط الرأي الصحيح. ولكن سواء قلنا بحرمة الرياء في العبادات فقط أو بحرمتها في التوصليات أيضاً، أو اقتصرنا على القدر المتيقّن وهو الحرمة في الواجبات العبادية واكتفينا في غيرها بالبطلان وعدم القبول، فإنّ الأمر الذي لا شكّ فيه أنّ مَن لم يأتِ بالمستحب كصلاة الليل ويبيت نائماً أفضل كثيراً ممن يقوم ويصليها رياءً وليس لله.

■ ما خفي على الملائكة لا يخفى على الله

ورد في الحديث الذي صدّرنا به البحث أنّ «الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به» ثم يتبيّن أنّ ذلك العمل لم يكن جديراً بأن يبتهج به ولا كان له قيمة لأنّه لم يكن لله تعالى، فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ العبد لا يبتهج بعمل لا قيمة له وأنّ ابتهاجه بذلك العمل كان من جهة تصوّره أنّه لله، وأنّه يعرف الإخلاص وقيمته ومقاييسه، فإنّ هذا يعني أنّ الملَك قد انطلى عليه الأمر، فهو لم يشكّ لأنّه كان مبتهجاً بل حصل عنده جهل مركّب، فهو كان يظنّ أنّ العمل الذي يصعد به مقبول لأنّه كان من الأعمال الصالحة لكن تبيّن خلافه بعد ذلك، لأنّ الإنسان استطاع أن يغطّي عليه بهذا القدر، وهذا بدوره يكشف عن مستوى الإنسان

وقابلياته. وهناك روايات كثيرة بهذا المعنى.

هذه نقطة، والنقطة الأخرى هي أنّه ينبغي التوقف عند لفظ الحديث فهو مليء بالإشارات والمعاني، فكان يمكن أن يقال «إنّ الملَك يصعد» إلاّ أنّ اللام هنا جيء بها للتوكيد وليس لمجرد جمال التعبير، فقد تدلّ الحالة التي تلفظ بها الجملة على التوكيد كالمولى يصرخ بعبده أو يطلب منه بقوة أن يأتيه بالماء، وقد تكون هناك قرائن لفظية تدل على التوكيد كالجمل وقد تكون القرائن اللفظية حروفاً كما في المقام، ولابدّ أن يكون المقام مقتضياً للتوكيد لأهميته؛ إذن: فإنّ الإنسان قد يتصوّر أنّ مجرد كون أعماله حسنات (في ظاهرها) يكفي، ولكن الحديث يقول: «إنّ الملَك ليصعد» بهذه الأعمال التي لا يُشكّ في كونها حسنات أو سيّئات بل هي صلاة أو صوم أو تدريس أو خطابة أو مطالعة أو تأليف - وذكرتُ هذه الأمثلة لأنّها محلّ ابتلائنا نحن طلبة العلوم الدينية في الغالب - ولكن عندما يصعد بها الملك يقول الله عزّ وجلّ: «اجعلوها في سجين» أي محل أعمال الكفار والمنافقين والظالمين! لماذا؟ ما بها؟ أليست صلاة وصياماً فما بها، وما الذي جعل ذلك التدريس مرفوضاً؟ هل كان فيه خداع أم شيء لا يعلَم به قائله وأطلقه جزافاً؟ أم تراه فسّر القرآن بشكل غير صحيح؟

الجواب: إنّ شيئاً من ذلك لم يكن ولا نَقص شيء في شروطها. إذن هل ثَم مانع من قبولها؟ الجواب: كلا فالموانع كلها منتفية والشرائط كلها موجودة باستثناء أمر واحد، فما هو يا ترى؟ يقول الله عزّ وجلّ: «إنّه ليس إياي أراد به». وهذا قاصم الظهر حقيقة. هذا الذي لا أعرفه منك ولا تعرفه مني ولكن نتصوّر أنّنا أذكياء نستطيع إخفاءها، حتى لتخفى على الملَك؛ ولكنها لا تخفى على الله تعالى.

■ أين الله؟!

كان أحد الكسبة القرويين في العراق قد بلغ درجة عظيمة من التقوى. ولما سُئل عن سرّ بلوغه هذه الدرجة أجاب: يعود الفضل في ذلك إلى عالِم في قريتنا. (يتبيّن - من قصته - أنّ هذا العالِم كان يجيد فن هداية الناس، فمن العلم ما هو فطري ومنه ما هو اكتسابي، فلنتعلّم كيف نهدي الناس فهو فنّ رفيع) وتفصيل القصة كالتالي:

سأل الكاسب سؤالاً من العالِم يكشف عن مستواه؛ سأله أين الله؟ ولو سُئل أحدنا لقال في جوابه: إنّه موجود في كل مكان ولا يخلو منه مكان. ولكن العالِم الذي كان يعرف هداية الناس، سأله: ما شغلك؟ قال: صفّار.

كان الصفّارون في تلك الأيام أكثر ما يستعملون المطرقة والمقص، فإذا ما ثقبت الأوعية النحاسية أو انخرقت كالقدور والطسوت والأواني جيء بها إلى الصفّار، فيقصّ قطعة من الصفر بمقدار فتحة الثقب ثم يلحم أطرافها بمحيط الفتحة. وكان يتّفق أحياناً أنّ الصفّار عنده قطعة أصغر من الفتحة بقليل، فكان يستكثر أن يقص قطعة بحجم الفتحة بل يستعمل القطعة الصغيرة وإن كانت أقل من الفتحة ثم يسدّ الثقب المتبقي بالطَرق على القطعة وأطرافها لكي تتمدّد وتتصل بأطراف الفتحة، حتى إذا طلاها لا يكاد يبين الخلل وتبدو القطعة متّصلة بالكامل. ولكن اللحام كان ينفتح بسرعة مع تكرر تعرّضه للنار؛ بسبب رقّة أطراف القطعة الملتحمة وكونها أصغر من المطلوب.

ولما قال الرجل إنّه صفّار قال العالِم في جواب سؤاله (أين الله؟): إذا وضعت قطعة أصغر من المطلوب لسدّ ثغرة في قدر وما أشبه، فستبقى فتحة صغيرة، أليس كذلك؟ قال: بلى. قال: أرأيت تلك الفتحة الصغيرة في الوعاء، التي قد تفكّر بتلاشيها عن طريق التمدد الحاصل من الطَرق المتكرر والطلاء، فهناك يوجد الله

وهو يراك ويراقب عملك.

وهكذا أصبحت هذه المسألة سبباً لمحاسبة الرجل نفسه يومياً، وربما أكثر من مرة في اليوم الواحد، لأنّه كان يرى الله مشرفاً عليه في عمله دوماً وبتلك المراقبة الدقيقة.

الحالة نفسها يمكن أن تصدق مع المهن الأخرى، كالبنّاء الذي يرمم جداراً مثلاً بحيث يبدو لصاحب الدار أنّه لم يعُد معيباً، ولكن الوضع لا يدوم طويلاً، إذ سرعان ما تعود الحالة الأولى ويظهر الخلل ويحتاج الجدار إلى الترميم مجدداً، وذلك لأنّ البنّاء لم يكن دقيقاً في عمله أو لاستعماله المواد الرخيصة وغير المناسبة.

فلو أنّ البنّاء رأى الله مطّلعاً عليه حين يمارس عمله، لما غش الناس بعد ذلك وكان ذلك باعثاً على استقامته وتكامله.

ونحن - طلبة العلوم الدينية - غير مستثنين من هذه القاعدة، فإنّ عملنا سيكون ناجحاً ويعطي أفضل الثمار إذا لم يغب عن أذهاننا حين أداء دورنا أنّ الله هو الرقيب علينا وأنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حاضر يرى أعمالنا.

■ نصيحة للخطباء وطلاّب العلوم الدينية

كان السيد أحمد القمي الروحاني عالِماً مجتهداً وواعظاً مؤثراً لأنّه كان متعظاً في نفسه، أدركتُه وحضرتُ مجلسه ليلة النصف من شعبان حيث زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) وحضور الزوار من كل المحافظات ومن مختلف الطبقات إلى كربلاء المقدسة. وكان يرتقي المنبر في المدرسة الهندية وهي مدرسة علمية دينية، فتمتلئ المدرسة بالعلماء والمدرّسين والخطباء والطلبة، وكان الحاضرون كلهم آذان صاغية له، وكأنّ على رؤوسهم الطير، لأنّه كان واعظاً بحق.

حكى هذا العالِم الواعظ أنّه حضر مجلساً خاصاً عُقد في طهران وكان يحضره الخطباء المشهورون في إيران يومذاك. فقال الخطيب الذي دُعي ليصعد المنبر في

ذلك المجلس لسائر الخطباء: إنّي مدعوّ لارتقاء المنبر في مجلس يحضره أناس من مختلف الطبقات وربما يحضره أشخاص لم يحضروا مجلساً طيلة عمرهم أو لا يحضرون إلاّ مجلساً واحداً في السنة كيوم عاشوراء مثلاً. ثم طلب من الخطباء الآخرين أن يشيروا عليه في الموضوع الذي يتناسب طرحه في مجلس كهذا.

فاقترح بعضهم أن يتناول أصول الدين، واقترح آخر أن يتحدث عن الأخلاق، واقترح ثالث أن يعلّمهم الصلاة ويرشدهم لوجوبه وأهميته، فمن المفترض أن يوجد في مجلس عام كهذا أناس لا يصلّون، فعسى أن يهديه الله ويصبح من المصلّين.

تكلّم الجميع وكلٌّ أدلى بدلوه إلاّ السيد أحمد القمي فقد بقي ساكتاً، وعندما انتهوا أجمعهم التفت الخطيب إلى السيد أحمد القمي وطلب أن يشير عليه باقتراحه إلا أن السيد امتنع من الكلام وقال له: السادة أعاظم أهل الفن موجودون وقد أشاروا عليك. قال الخطيب: ولكنّي أريد أن أعرف رأيك. قال السيد القمي: كل الذي قالوه جيد، ثم إنّك لا تريد أن ترتقي أكثر من منبر، ففي ما اقترحوه الكفاية إذاً، وما الداعي للإضافة؟ ولكن الخطيب أصرّ على السيد طالباً رأيه. ولم يشتهر السيد بعدُ يومذاك خطيباً من الدرجة الأولى، لكن إجابته تكشف عن أنّه كان كذلك؛ فقد قال له: في الواقع، ليس لديّ موضوع خاص أقترحه عليك أكثر مما اقترحه عليك الإخوة الخطباء، فقد اقترح كلٌّ موضوعاً واستوعبه ذهنك وبحمد الله، ولكن أسألك أسئلة أوّلاً ثم أتقدم إليك باقتراحي. وكان بإمكانه أن يطرح اقتراحه دون الحاجة إلى هذه الأسئلة ولكن أراد أن يهيئه للموضوع ويجعل إجاباته من باب المقدمات والإعداد النفسي.

فسأله عن المكان الذي يقام فيه المجلس ثم عن مساحة الأرض التي يقوم عليها، وكمية الحضور مثلاً، ثم طلب منه أن يصف له موقع المنبر والزاوية التي يوضع فيها... وكان يريد بذلك أن ترتسم صورة المجلس في ذهنه.

وهنا قال له: عندما تصعد المنبر وتبدأ بقراءة المقدمة وتفكّر في ترتيب الموضوع الذي وقع عليه اختيارك، تصوّر وأنت في تلك الحالة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس هناك أمامك آخذ لحيته بيده ويشكو لك غربة دينه. جسّد هذه الصورة في ذهنك ثم انظر وأنت في تلك الحالة ماذا ستقول وكيف ستتكلم.

نُقل عن ذلك الخطيب أنّه قال: عندما صعدت المنبر تراءى لي ذلك المنظر حقاً فقد امتلكني وهيمن عليَّ شعور بحضور الرسول (صلى الله عليه وآله) وأنّه يراني وينظر ما أقول وكيف أخدم دينه؛ ثم انتخبت موضوعاً وبدأت أتكلّم عنه، وكان لكلماتي تأثير معنوي عظيم في الناس، وأنا أجزم أنّه لم يكن ليحصل لولا تأثير تلك الالتفاتة المعنوية والإحساس بمراقبة النبي صلى الله عليه وآله.

■ الشيطان يأتي كل إنسان من نقطة ضعفه

إذن يجب علينا أن نوجد هذا الشعور بأنفسنا في أنفسنا، فإنّه ممكن وإن كان صعباً. وهذا هو المطلوب منا نحن طلبة العلوم الدينية؛ فإنّ الشيطان لا يأتي إلينا من الطرق الأخرى، فهو لا يدعونا لترك الصلاة لأنّنا قد تعوّدنا عليها منذ نعومة أظفارنا، بل فتحنا أعيننا على الصلاة، فكان آباؤنا وأقرباؤنا وأصدقاؤنا يصلّون.

ولكنّ الشيطان يأتي كل إنسان من نقطة ضعفه. فهو يأتي مَن يحبّ المال من جهة المال، ومَن يغضب بسرعة من جهة الغضب، والمحبّ للشهوات من جهة الشهوات. ونحن يأتينا من الجهة التي تتناسب مع طبيعة عملنا. فإن لم نكن منتبهين، كنّا - والعياذ بالله - من الذين «بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»[1]، وهذه قاصمة الظهر، وسببها التقصير في المقدمات. فمَن لا يعتني بالمقدمات استرسل ثم تعوّد شيئاً فشيئاً، وإذا به يفتح عينيه فجأة ليرى نفسه أنّه ذهب إلى الآخرة خاوي

---

(١) سورة الزمر: ٤٧.

اليدين - والعياذ بالله - وهناك لا ينفعه الندم والجزع؛ فقد ورد في الحديث: «فإنّكم لو قد عاينتم ما عاين مَن مات منكم لجزعتم ووهلتم وسمعتم وأطعتم ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا وقريباً ما يُطرح الحجاب»[1].

والجزع لا يكون من العذاب فقط، بل كثيراً ما يكون نتيجة التقصير، بل القصور أيضاً، فيقول الإنسان: وا أسفاه؛ لماذا فعلت كذا - تقصيراً - ؟ أو لماذا فهمت الشيء الفلاني هكذا - قصوراً - ؟

ويمكن أن نضرب لذلك مثلاً في الحياة الدنيا بشخص يدعو أناساً محترمين لوليمة مهمة ويرتّب لها كل شيء. وعندما يصبّ الطعام في الصحون والأواني يكتشف أنّ فيه عيباً وأنّه لا يمكن تقديمه إلى الضيوف، ولا يوجد عنده المال أو الوقت الكافي لتوفير البديل؛ فإنّ هذا الشخص لا ينسى هذا الإحراج الذي حصل له طيلة عمره، مع أنّه ربما لم يكن مقصّراً، فإنّ التألم والجزع قد يكون بسبب القصور أيضاً.

عندما كان يدور الحديث عن القاصر والمقصّر، كان يُضرب مَثل للقاصر بالشخص الأمي الذي يعيش في قرية لا يوجد فيها أحد من أهل العلم ليسأله، أما في المدن فلا يوجد قاصر. وجرى هذا الحديث مرة فذكر أحد العلماء المعاصرين أنّه حتى في القرى لا يوجد اليوم قاصرون.

وبغضّ النظر عن المناقشة في ذلك ولكن المسلّم أنّ أحداً لا يعدّنا نحن أهل العلم من القاصرين، ولا نعدّ أنفسنا كذلك.

ولا ينبغي أن تكون دراستنا لغرض التدريس والتبليغ والموعظة وإرشاد الآخرين والإجابة عن أسئلتهم فقط، بل يجب أن ندرس ونواصل البحث لأنفسنا أيضاً لأنّ تهذيب النفس وإصلاحها واجب كما أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) نهج البلاغة، ص٦٢.

المنكر واجبان. ولو بحثنا لوجدنا أشياء كثيرة لم نكن نعرفها ولاكتشفنا مطالب جمة لم نكن نتصوّرها على تلك الصورة والكيفية، أي نكتشف أنّا كنّا نجهل أموراً كثيرة. ولا نعذر في جهلنا هذا مادمنا كنا نحتمله؛ لأنّ العلماء يقولون: إنّ دفع الضرر المحتمل واجب.

أما الحديث الشريف: «رفع عن أمتي تسعة ... وما لا يعلمون»[1] فلا يمكن أن يقصد به الجاهل المقصّر، لأنّ هذا معناه أنّه لا يجب على أحد أن يتعلم ويصبح الكل معذورين ولا يتصوّر وجود شخص غير معذور بعد ذلك.

■ حذار من الشرك الخفي

إذن من الأمور الأكثر أهمية بالنسبة لنا أن لا يكون طلبنا للعلم لغرض رفع جهل غيرنا فقط بل لكي نزيل الغموض عن أنفسنا، وأهم المسائل التي ينبغي أن نكون واعين لها وأن نبدأ بمعالجتها هي مسألة الإخلاص والتخلّص من الرياء. فلنراجع أنفسنا في كل موقف بدقة وننظر أنه كم هو لله وكم لأنفسنا، فينظر الخطيب مثلاً إلى حديثه عندما يجذب الآخرين هل أتعب نفسه وعني بعباراته ونمّق أسلوبه لكي يقال عنه إنّه خطيب ناجح أم كان كله لله، أم بعضه لله وبعضه لنفسه، وهكذا الكاتب والمدرّس والمبلّغ والمجتهد و...

كان الشيخ جعفر الشوشتري (رحمه الله) من كبار مراجع التقليد، وكان أعاظم الفقهاء أمثال السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (صاحب العروة الوثقى) أصدروا تعليقات على رسالته العملية، الأمر الذي يكشف أنّه كان له قطاع واسع من المقلّدين بعد الشيخ الأنصاري (رضوان الله عليه) فهو كان من المعاصرين للشيخ الأنصاري وعاش بعده.

---

(١) التوحيد ، ص٣٥٣.

نقل عن الشيخ جعفر الشوشتري (رحمه الله) أنّه كان إذا صعد المنبر يقول للناس: أيها الناس لقد بُعث الأنبياء كلهم ليأمروا الناس بالتوحيد؛ وأنا أطلب منكم أن تشركوا بالله على الأقل، وذلك بأن تجعلوا لله نصيباً من أعمالكم فإنّكم لم تعملوها لله أبداً و لم تشركوه حتى بنسبة بسيطة من نواياكم!

ولا شكّ أنّه كان يمزح معهم ويستعمل أسلوب المزاح لتقريب المعنى إلى الأذهان وللتأثير عليهم وحثّهم على الإخلاص، لا أنّه كان يريد الشرك حقيقة؛ بل كان المعنى الكنائي والمجازي هو المقصود، وهو أن يراجعوا أنفسهم وهم مسلمون مؤمنون بالله، ليقلّلوا من نسبة الشرك ويزيدوا في إخلاصهم.

وهذه العملية تتطلّب وعياً مستمراً؛ وذلك لأنّ الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم في عروقه - على ما في بعض الأحاديث - وهو مسلّط على ما لم يسلّطنا الله عليه - كما في بعض الأدعية -، فلا نغفل ولا نخضع لوساوسه وتسويلاته. فإنّ كثيراً من الناس يرتكبون الخطأ ويتصوّرونه صحيحاً، ويكون الشيء مضراً لهم، ويعلمون بذلك، ولكنّهم مع ذلك لا يتناهون عنه.

أما طالب العلم فربما أتاه الشيطان عن طريق علمه وزيّن له عمله؛ فهو يرتكب العمل المنهيّ عنه ثم يقول متذرعاً إنّ هذا العمل منهيٌّ عنه إلاّ ما خرج بالدليل، وشيئاً فشيئاً تصبح «إلاّ» هذه تخصيصاً للأكثر!

ولذلك ورد في الحديث: «دبيب الشرك في أمتي كدبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»[1].

إذا دبّت النملة على التراب فربما تحركت ذرة من التراب على أخرى فأحدثت صوتاً، أما وأنّ الدبيب على صخرة صماء فلا يتصوّر سماع صوت للدبيب لأنّه في غاية اللطف، وهنا لابدّ من الاستعانة بالعين والنظر، ولكن الحديث يقول (في الليلة

(١) منتخب الأنوار، ص١٦.

الظلماء) فلا يعقل أن يرى حركة ذلك الدبيب أيضاً، وهكذا يكون الشرك أحياناً. وهذا هو المأزق!

■ داؤك منك ودواؤك فيك

وهنا تساؤل: ما هو طريق الخروج من هذا المأزق؟ هل هو الدرس أم التدريس وما أشبه؟ ونقول في الجواب: لا هذا ولا ذاك. وإنّما الدواء في داخلنا.

هناك حديث قصير العبارة بليغ المعنى صعب المنال. لو أنّ الإنسان ينظر إلى نفسه من خارجها ويحاسبها كأنّها غيره، اتّضح له معنى هذا الحديث. ومضمون هذا الحديث أنّ الملائكة تتعجب في آخر الزمان إذا مات إنسان مؤمن؟ ومفهومه أنّ المؤمنين قليلون جداً، فإنّه يموت الألوف من الناس يومياً ولا يثير ذلك عجب الملائكة ولكن حيث إنّ المؤمنين قليلون قد يموت مؤمن اليوم ثم تمرّ أيام أو أسابيع وربما أشهر حتى يتّفق أن يموت مؤمن آخر كامل الإيمان.

أما عجب الملائكة فهو للمؤمن وكيف استطاع أن يفلت من كل تلك الطرق الغريبة والشائكة وبقي مؤمناً حتى الممات.

ولكن مَن يسلك الطريق السليم ويسير فيه قليلاً قليلاً، يصل، ومَن صدق مع نفسه وفّقه الله. ولا ينبغي اليأس بل المطلوب اليقظة والحذر. إن الأمل برحمة الله كبير جداً. وإنّ من «أرجى» آيات القرآن الكريم قوله تعالى: «إلاّ مَن رحم ربك ولذلك خلقهم»[1]، فصريح القرآن أنّ الله تعالى خلقنا ليرحمنا، أي إنّ رحمة الله هي الهدف والعلّة الغائية لخلقنا - حسب الاصطلاح الفلسفي -.

فإن نحن صدقنا مع أنفسنا فحاشا لله أن لا يأخذ بأيدينا ويوفّقنا. وهذا لا يعني أنّ الطريق سهل فهو صعب وصعب جداً ولكنه ممكن.

---

(١) سورة هود: ١١٩.

قد يرتّب أحدنا كلامه وأسلوبه وهيأته لأنّ فلاناً يراه وفلاناً قد ينقده، وأنّ من العيب أن يظهر كذا أمام هذا أو كذلك أمام ذاك.. أما النية فمن الصعب جداً ترتيبها وإعدادها لأنّ أحداً من الناس لا يراها ولا ينقدها، ولا يراها إلاّ الله وهو لا يفضحنا اليوم.. أجل هنا مكمن الصعوبة، ولكن تربية النفوس والإخلاص في النوايا أمر ممكن مع ذلك؛ لأنّ الله سبحانه وعد التوفيق، وما على الإنسان إلاّ أن يسعى والتوفيق من الله «وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى»[1]، فالمطلوب السعي لكي يوفّقه الله تعالى.

ولكل إنسان نقاط ضعف يعرفها هو، فإذا برزت عنده وأرادت أن ترديه فليتذكّر أنّ الله موجود هناك - عند تلك النقطة - وليركّز على هذا الأمر ويكرر هذا التذكّر يصلح باطنه شيئاً فشيئاً إن شاء الله.

أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق لذلك لي ولكم.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

---

(١) سورة النجم: ٣٩.

ثمن الجنة

المحاضرة ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على اعدائهم اجمعين.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة: الإنفاق من إقتار، والبِشر لجميع العالَم، والإنصاف من نفسه**»[1].

إنّ المفهوم من هذا الحديث أنّ مَن كان يحمل واحدة من هذه الصفات وبها خُتمت حياته فهو يستحق الجنة، وهذا لا يعني أن يكون الشخص مستحقاً للنار ومع ذلك يجعله الله من أهل الجنة، بل يعني أنّ مَن توجد فيه هذه الصفات فلا شكّ أنّه من ذوي النفوس المؤهّلة للجنة؛ وذلك لأنّ أعمال الإنسان وتصرّفاته تنبعث عن نفسه. فالأعمال الصالحة والخصال الحميدة إما أن تصدر عن نفسٍ هي كذلك كنفوس المعصومين عليهم الصلاة والسلام وأولياء الله تعالى، أو عن نفسٍ ملكَ صاحبها زمامها، كما أنّ المعاصي لا تصدر إلا عن نفس خبيثة أو غير مسيطَر عليها، فصاحبها عبدٌ لشهواته وليس سيدها، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الإنسان لا يتمكن من الاتّصاف بالصفات التي من شأنها أن توردہ الجنة. أما الإنسان المالك لزمام نفسه فسينتقل من خير إلى خير حتى يكون من أهل الجنة. وهذه الخصال التي عدّدها الإمام (عليه السلام) لا تتوفر إلاّ عند النفوس السامية.

(١) الكافي: ج٢، ص١٠٣، باب حسن البشر.

الخصلة الأولى: الإنفاق من إقتار

ويمكن تقريب معنى هذه الخصلة من خلال القصة التالية:

عن مروان أبي حفصة قال: «كان المنصور قد طلب معن بن زائدة الشيباني طلباً شديداً وجعل لمن يأتي به مالاً، فحدثني معن باليمن أنه اضطر لشدة الطلب إلى أن نام في الشمس حتى لوحت وجهه وخفف عارضيه ولبس جبة صوف غليظة وركب جملاً من الجمال الثقالة وخرج عليه ليمضي إلى البادية، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن عمرو بن هبيرة بلاءً حسناً فخاف فاغتاظ المنصور وجدّ في طلبه، قال معن: فلما خرجت من باب حرب تبعني عبد أسود متقلداً سيفاً حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض عليّ، فقلت: ما لك؟ قال: طلبة أمير المؤمنين. قلت: ومَن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ قال: أنت معن بن زائدة. فقلت: يا هذا اتّق الله وأين أنا من معن؟ قال: دع هذا عنك فأنا والله أعرَف بك منك. فقلت: فإن كانت القصة كما تقول فهذا جوهر حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بي فخذه ولا تسفك دمي. فقال: هاته. فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته ولستُ قابله حتى أسألك عن شيء فإن صدّقتني أطلقتك. فقلت: قل. فقال: إن الناس يصفونك بالجود فأخبرني هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا. قال: فنصفه؟ قلت: لا. قال: فثلثه، حتى بلغ إلى عشره فاستحيت وقلت: أظن أني فعلت هذا. فقال: ما أراك فعلته وأنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار وقد وهبته لك، ووهبتك لنفسك وجودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك، ولتحتقر بعد هذا كل شيء فعلته، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى بالجوهر في حجري وخلّى خطام البعير وانصرف، فقلت: خذ ما وهبته إليك فإني عنه غني. فضحك وقال: أردتَ أن تكذّبني في مقالي هذا، والله لا آخذه ولا آخذ للمعروف ثمناً أبداً ومضى. فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به

ما شاء فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته»[1].

فمَن كان يحمل بين جوانحه نفساً كهذه فهو مرُشَّح لأن يتحول ويكون إنساناً صالحاً.

■ الإنفاق من إقتار أفضل من الإيثار

نحن - طلبة العلوم الدينية - لسنا أصحاب أموال "في الغالب" ولا تذوّقنا طعم الثروة والمال، لأنّ نشأتنا وتوجهنا كان على عدم السعي وراء المال منذ البداية. فكل ما قرأنا وسمعنا وكتبنا فهو عن ترك الدنيا والاستخفاف بها؛ ولهذا ربما لا يجد بعضنا صعوبة كبيرة في التخلّي عن المال، وكذلك حال بعض الناس إذ تراه كريماً باللسان عندما يكون معدماً، ولكن ما إن يثرى حتى يتبدّل وضعه، وهناك الكثير من القصص التي تحكي مثل هذه الحالات على مرّ التاريخ سواء ما وقع منها في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو الأئمة المعصومين (عليهم السلام) أو ما وقع في زمن الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فالإنفاق صعب ولكن الإنفاق من إقتار أصعب، ولابدّ أن يتوفر صاحبه على نفس رفيعة أو سيطرة على نفسه وشهواته وهي التي تنقذه حقاً.

إن الإنفاق من إقتار أعلى درجة من الإيثار، ومثاله الإنفاق الذي قام به الإمام أمير المؤمنين والسيدة الزهراء والحسنان (عليهم سلام الله) حين قدّموا إفطارهم إلى المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليالٍ متواليات وبقوا جائعين. أما الإيثار فقد لا يكون مع شدة حاجة المؤثر إلى ما يؤثر به غيره، ومثاله أن يؤثر المرء بعباءة لا يملك غيرها ولكنه قد لا يحتاجها الآن أو أنّه يستطيع شراء غيرها، أما الإنفاق من إقتار فهو كما لو أنفق المرء عباءته مع أنّه لا يملك غيرها ولا يستطيع شراء بديل لها، وحاجته فعلية وشديدة إليها، كما لو كان الفصل شتاءً وهو يدفع بها البرد عن

---

(١) الفرج بعد الشدة، للقاضي التنوخي: ج٢، ص٣٧٢.

نفسه. فهذا يسمّى إنفاقاً من إقتار.

الخصلة الثانية: البِشر لجميع العالم

ومعناه أن يكون الإنسان طلق الوجه باسم الثغر مع كل مَن يلقاه سواء كان قريباً أم بعيداً، مسلماً كان أم كافراً، تربطه به علاقة ما أو لا تربطه. وهذا أيضاً أمر صعب جداً. ولو قرّر أحد أن يجرّب هذا الأمر لَلمِسَ صعوبته. فكيف يتمكن الإنسان أن لا يضجر ولا يتبرّم ولا تظهر عليه آثار الاستياء مع أنّ في مجتمعه وبيئته الأذواق المختلفة والسلوكيات المتباينة، ناهيك عن الأحقاد والعداوات والمشاحنات والمشاكسات، فهذا يحسدك وذاك يعاديك، والآخر لا يتّفق مع ذوقك في الطعام والشراب أو الدرس أو غير ذلك. فربما ظهرت من صديق فلتة لا ينساها صديقه رغم مضي خمسين سنة ويظل يتألم منها كلما تذكرها.. فما أعظم الشخص الذي ينكر نفسه ويقاومها رغم كل ذلك ويظلّ ضاحك الوجه باسماً!

ولا شكّ أنّ الضحك [بصوت عالٍ، أو القهقهة] مكروه خلافاً لطول التبسّم، إنّما المقصود من كلمة "ضاحك" هنا أن يكون المرء ضاحك الوجه وليس ضاحك الفم.

وهذا أيضاً أمر صعب ويعود إلى نفس الإنسان وإمكانية السيطرة عليها لكي تواجه كل الحالات بصدر رحب ووجه طلق وبِشر وبشاشة. فإنّ ضبط النفس يحتاج إلى همّة عالية وتمرين ورياضة.

■ السيطرة على النفس أمر صعب يحتاج إلى تمرين

● كان أحد العلماء المغمورين يقول عن نفسه إنّه كان زميلاً لمرجع معروف، قطعا الأشواط الدراسية والعلمية معاً، وإنّه لا يقلّ ذكاءً وعلمية عن زميله المرجع ولكن عيبه الوحيد الذي حال دون شهرته وارتقائه مقام المرجعية هو أنّه ينطوي

على طبيعة ساخرة، فهو لا يستطيع أن يضبط نفسه إذا رأى أدنى ما يثير انتباهه، بل يسخر ويستهزئ بكلّ مَن يلقاه.

يقول هذا الرجل: آلمني وضعي فقرّرت يوماً مع نفسي أن أضع حداً لحالتي هذه التي جعلتني متأخراً، فيما تقدّم غيري. فعزمت على أن لا أُظهِر ما يثيرني على لساني بعد اليوم، وبالفعل واجهتني عدة حالات فضبطت نفسي إزاءها واستطعت بشق النفس تجاوزها الواحدة تلو الأخرى، ولكني بعد فترة وجدت أن نفسي منزجرة برمة، فقلت: لا أريد أيّ شيء بعد الآن فلأنطلق وأدع نفسي حرة على سجيتها (أطلق لها العنان لما تشتهي)، وعدتُ إلى شخصيتي السابقة. وها أنا اليوم - يقول ذلك العالِم - لم أجد إلا التكسّب من صلاة الاستئجار التي أقبض ثمنها من ذلك المرجع الذي كان زميلي في الدراسة.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ السيطرة على النفس أمر صعب لا ينبغي الاستهانة به.

● كانت الوالدة (رحمة الله عليها) توصينا دائماً بأن نبتلع الكلمة - على حدّ تعبيرها - سبع مرات قبل أن ننطق بها، أي لا نستعجل في إطلاقها بل نفكر فيها سبع مرات أوّلاً حتى لا نندم بعد ذلك. وهذه الكلمة تعبّر عن حكمة استلهمت من حكم الإمام أمير المؤمنين علي كقوله (عليه السلام): «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»[1]. أي أنّ العاقل يفكّر أوّلاً ثم يتكلم بعد ذلك. أما الأحمق فيتكلم ثم يفكّر بعده في الكلمة التي قالها وما هي أضرارها وما فوائدها ولماذا قالها؟ أما العاقل فلا يعرّض نفسه للاستجواب وقول: «لماذا» بعد صدور القول منه، لأنّه فكّر في الأمر قبل ذلك عدة مرات.

أما عدد السبعة أو السبعين المذكور في مثل المورد فهو من باب المبالغة - في

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٥٣.

اللغة- وليس على نحو التحديد، فربما كفت الستة أو الخمسة أو احتيج إلى المرة الثامنة.

● لا شكّ أنّ مَن يفكّر في عواقب أموره عدة مرات يتمكن من إتقانها ولا يخطئ فيها غالباً. كما أنّ مَن يكرّر مطلباً يتقنه ويتفوّق فيه.

يقول الشهيد الثاني (رضوان الله عليه) في كتابه (منية المريد في آداب المفيد والمستفيد) فيما يوصي به طالب العلم: «ثم يحفظه - أي الدرس- حفظاً محكماً، ثم يكرره بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقات يقررها لمواظبته، ليرسخ رسوخاً متأكداً، ويراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيداً»[1]، وبالفعل مَن كرّر درسه كذلك لا يحتاج إلى عشرة كتب بل يكفيه الكتاب الواحد المقرَّر إلاّ أن يكون بليداً!

وهكذا الحال بالنسبة لتعويد النفس على الخصال الحسنة ومنها البِشر مع كل العالَم، فإنّ للناس - كما قلنا - أذواقاً مختلفة وقد يواجه المرء يومياً عشرات الأشخاص والحالات فربما يتأثر من بعضهم، ولكن ينبغي أن يضغط على نفسه لكي لا يظهر التأثر في وجهه وملامحه. فإن نجح في تكييف حياته بهذه الصورة فهذا معناه أنّه مسيطر على نفسه.

● ينقل المرحوم الوالد (رحمه الله) أنّ أحد أساتذته كان يتبرم بسرعة وربما أغلظ على الطلاب. يقول السيد الوالد: ناقشت هذا الأستاذ يوماً في مسألة ما وبقيت ألفّ معه، وكلّما أجابني رددت عليه وناقشته حتى تأثّر كثيراً، فوكزني بظهر كفه بقوة في صدري ضربة بقيت أعاني منها لمدة ثلاثة أيام حتى أنّني استعملت اللصقة الطبية من شدة الألم.

يبدو أنّ الأستاذ لم يملك نفسه فتصرف هكذا، مع أن النقاش المثمر هو طريق

(١) منية المريد، الشهيد الثاني، ص٢٦٤.

تنمية القوة العلمية ولا يهم ما كان السبب فكل أستاذ ربما يتألم من تلميذه لأنّه لم يفهم الدرس بسرعة أو لأنّه يفهم ولكنه يراه مشاكساً مع ذلك. إنّما النقطة المهمة هي أن يسيطر الإنسان على نفسه ويتمالك أعصابه، ويلقى بالبِشر كل العالم.

● نقل لي أحد الأطباء أنّ أربعة عشر عصباً في وجه الإنسان تستعمل وتقلص عند الضحك، أما العابس فهو يحتاج لأن يستعمل ويقلص أكثر من أربعين عصباً.

هذا مضافاً إلى أنّ الإنسان العابس مهموم دائماً أما الذي بشره في وجهه فهو يعيش عيشة راضية تخلو من عبارات «ليت» و «لو» مثل ليتني عملت كذا أو ما عملته أو قلت كذا أو لم أقله، ولو كان كذا لحصل كذا، ومن ثم فهو لا يأسف على بِشره خلافاً للعابس الذي يندم على عبوسه.

وهكذا تبيّن أنّ الإنسان الذي يلقى الآخرين بالبِشر هو إنسان ضبطَ نفسه وربّاها حتى بلغت هذه الدرجة.

■ المؤمن هش بش

وقد فُسّر ما ورد في الحديث الشريف: «المؤمن هش بش» أنّه ضاحك الوجه باسم الثغر. فقد مُثل للشيء الهش بالبطيخ الأحمر ينفطر عن آخره بمجرد أن تضع السكين فيه وقبل أن يبلغ نهايته، أي ينفلق بسرعة. وهكذا المؤمن يكون منفلق الوجه والمحيّى وإن كان متألماً، وهذا يتطلب إرادة قوية ونفساً متربية، لأنّ النفس بطبيعتها لا تترك الإنسان هكذا، بل تدعوه للعبوس في وجه أحداث الحياة والحالات المختلفة التي لا ترتاح لها إلاّ إذا كان الإنسان مؤمناً فإنّه يكون هشاً بفعل الإيمان وتأثيره؛ ولذلك ورد أيضاً عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في وصف المؤمن أنه قال: «حزنه في قلبه وبشره في وجهه»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٧٣.

ولا عجب إن كان التوفر على هذه الحالات صعباً لأنّها ثمن الجنة، والجنة لا تثمّن بل إنّ اللحظة الواحدة فيها لا يعدلها ملايين ولا المليارات من كنوز الدنيا؛ لأنّها تختلف عن الدنيا بالكلية، وهي مقترنة بالإحساس بالخلود!

ولذلك قلنا إنّ معنى الحديث الذي صدّرنا به المحاضرة هو أنّ صاحب النفس التي تتمتع بإحدى الخصال التي ذكرها الإمام (عليه السلام) هو المستحق للجنة. وقلنا أيضاً إنّ ذلك بحاجة إلى تمرين وترويض كثير للنفس، وإن مَن توفرت عنده إحدى هذه الخصال جاءته البقية تباعاً؛ لأنّها صفات متلازمة.

الخصلة الثالثة: إنصاف الناس من نفسه

ومعناه أنّه لو اكتشف الشخص أنّ الحق ليس معه بل مع مقابله - سواء كان أستاذه أو تلميذه أو صديقه أو قريبه أو زميله أو المتعامل معه أو أيّ شخص آخر- يقرّ له ويتراجع، وهذه الخصلة أيضاً لا تكون إلاّ في نفس خاضعة للعقل.

يقول الله تعالى في وصف النفس غير الخاضعة للحق: «وإذا قيل له اتّقِ الله أخذته العزّة بالإثم»[1]، وهذا حال معظم الناس إلاّ مَن روّض نفسه على خلاف هذا الأمر. فلو قيل لشخص ما «اتّق الله» فإنّه يشعر بذلّ لأنّ ذلك معناه أنّ ما ارتكبه معصية ولم يكن يعلم بذلك أو أنّه كان يعلم ومع ذلك عصى! فإن لم يكن الشخص مؤمناً حقاً أخذته العزة وكابر.

كنت في بعض الأيام أتمشى مع صديق في إحدى البلاد الإسلامية فرأينا شخصاً يسبّ الله - والعياذ بالله - فنهره صديقي وردعه. ولكن ذلك الشخص التفت إلينا وقال: أنا أشعر وأعني ما أقول ولست جاهلاً أو غافلاً! وهكذا أخذته العزة بالإثم.

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٧.

فمن النادر أن تلقى أحداً يتقبّل النصيحة من أعماقه. ولا أعني بالنصيحة الموعظة العامة كالحديث الذي يلقيه الخطيب والمحاضر ويستمع إليه الحاضرون، بل المقصود بها النصيحة المباشرة والمناسبة لشخص ما في موقعها وإن كانت بالأسلوب الصحيح وباللطف واللين. فإنّ النفوس في الغالب لا تخضع في إظهار الانصياع للحق ولا تذعن في أنّ موقفها لم يكن صحيحاً، بل كلٌّ يحاول أن يُظهِر أنّ موقعه كان صحيحاً وأنّه لم يكن جاهلاً وأنّها كان يعلم بحقيقة الأمر. أما أن يقبل من الآخر فهو شيء صعب جداً، كالخصلتين السابقتين وهي كلها أمامكم وبإمكانكم أن تجرّبوا أنفسكم فيها وتروا بأنفسكم إن كانت سهلة أم صعبة، وإن كانت النفوس مختلفة فيما بينها وإزاء كل من هذه الخصال حسب المحيط والتربية والأجواء التي عاشتها والمراحل التي قطعتها، ولكن تبقى الصعوبة موجودة عند كل النفوس وإزاء كل واحدة من هذه الصفات، غاية الأمر أنّ بعضها أصعب لدى بعض وبعضها أقل صعوبة.

■ طلاب العلوم الدينية أحرى من غيرهم بالتفكير في الجنة

لقد ذكر الإمام الصادق (عليه السلام) الخصال التي عدّها ثمناً للجنة، ونحن - طلبة العلوم الدينية - أحرى من غيرنا بالتفكير في الجنة والهمّ لنيلها ودخولها؛ وذلك لأنّ المفترض أنّنا تركنا كل شيء من أجل الله سبحانه وتعالى، أو أنّنا لم نكن نملك الدنيا أصلاً.

فلو نظرنا إلى طالب العلم الديني لرأينا أن سبب توجهه إلى هذا المسلك، إما أن يعود إلى أنّ الأبواب الأخرى التي يحصل من خلالها على الدنيا والكسب الحلال قد سُدّت في وجهه، فهو لا يستطيع أن يكون بقالاً أو عطاراً أو تاجراً أو... ورأى هذه الباب مفتوحة في وجهه فسلك هذا المسلك، وربما لأنّه شعر أنّه لا يحصل في مجال آخر على الكرامة أو المكانة والجاه ولكنه يحصل عليها هنا؛ وإمّا أنّ

الشخص كان يحصل على هذه الأمور في مجالات أخرى ولكنه مع ذلك توجه إلى طلب العلم وترك كل شيء من أجل الله وإخلاصاً له.

وفي الحالتين ينبغي لطالب العلم أن يفكّر أكثر من غيره في الجنة؛ لأنّه إن كان ممن لاحظّ له في الدنيا وأقبل إلى هذا المجال فليهتم بحظه في الأخرى وتوفير ثمن الجنة. وإن كانت الدنيا مقبلة عليه ومع ذلك تركها من أجل الله والآخرة، فهو أولى من الجميع بذلك.

عرضتُ على أحد الشباب مرة أن يكون من طلبة العلوم الدينية لما رأيت من تدينه وقابلياته، فأجابني: إنّي أكسب كذا من المال في اليوم الواحد فيكون مجموع ما أحصله بالشهر كذا – وذكر مبلغاً كبيراً – وقال: إن وفّرت لي هذا المبلغ فإنّي سألتحق بصفوف طلاب العلوم الدينية غداً.

لا شكّ أنّ مثل هذا الشاب لا يصبح من طلاب العلوم الدينية إلاّ إذا كان عنده إخلاص مئة بالمئة، ولا شكّ أنّ كثيراً منا لو لم يكن من طلبة العلوم الدينية لكان وضعه المالي والاقتصادي أحسن. إذن مادمنا تخلينا عن الدنيا وبعناها – ولو إلى حد ما – فلنركز قليلاً ونهتم ليكون الثمن الجنة. فإنّ الله تعالى لم يخلق الجنة لكي يمنّ بها على هذا أو ذاك بل خلقها للمؤمنين الخيّرين المخلصين، ونحن – الطلبة – قد قطعنا نصف الشوط باختيارنا هذا المسلك فلنكمل النصف الباقي. وقد تحملنا نصف التعب فلنتحمل الباقي، والمجال متاح أمامنا لكي نجرّب حظنا، فلنجرب من الآن ولنبدأ بأسهل الخصال ثم نرتقي، فنبدأ بالبِشر للعالم فهو أسهل نسبياً من الإنفاق من إقتار ومن إنصاف الناس من أنفسنا.

لنحاول أن تكون وجوهنا باسمة لا أن تكون مكفهرة تجعل الناظر إلينا يظن أنّ عليه أن يدفع كفارة لذلك – على حد تعبير المثل العامي المشهور –.

وأكرر مرة أخرى أنّ ذلك لا يعني أن نكون ضاحكين دائماً فإنّ الله تعالى

يقول: «فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً»[1]. أما البِشر فمعناه إخفاء الأحزان والهموم الناشئة من المشاكل الكثيرة التي قد يواجهها الإنسان في الحياة، ومقابلة الناس بوجه طلق.

لنجعل وجوهنا مستبشرة بحيث لو رآنا المهمومون لقللنا من همومهم لا أن نضاعفها لهم. وهذا التصرف يؤثر في الناس أكثر من القول. فقد تحاول أن تزيح الهم عن صدر أخيك من خلال كلامك معه لمدة نصف ساعة ولا ترى استجابة، ولكن قد يكون لمقابلتك الطيّبة معه ولقائك إياه بالبِشر الأثر الفاعل في تحسن حالته، مع أنّ هذا الموقف قد لا يستغرق دقيقة واحدة. ولهذا ورد في الحديث عن الصادق (عليه السلام) أيضاً: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»[2].

فلنجرب واحداً من الأمور الثلاثة المتقدمة ولنبدأ بأسهلها علينا وهو البِشر مع الناس، فنحاول أن نكون مبسوطي الوجوه مع مَن نلقى - ولا نيأس، فإنّه أمر صعب في الجملة وبحاجة إلى تمرين وعلاج كما قلنا - حتى نكون من أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

● كان اثنان من أقربائنا - رحمهما الله - بينهما مشكلة، فذهب إليهما قريب لهما - توفي هو الآخر رحمه الله - ونصحهما بطريقة لطيفة، فقال: إنّكما لا ينقصكما شيء إلاّ ما هو موجود [من التخاصم] بينكما، فأنتما بحمد الله مسلمان مواليان لأهل البيت (عليهم السلام) ومن المصلّين الصائمين القارئين للقرآن والعاملين للخيرات والعارفين لأحكام الدين، فلماذا تحتفظان بـــ "بعرة الفأر" هذه -كناية عن الذنب الصغير ويريد به ما هو موجود بينهما من التخاصم- في صحيفة أعمالكما؟!

---

(١) سورة التوبة: ٨٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧٨.

وهذه النصيحة تشبه من باب المثال أن ترى أحداً لا ينقصه شيء في حياته المادية إلاّ أمر صغير قادر على توفيره، فنقول له - مثلاً - أنت بحمد الله تملك بيتاً وزوجة وأولاداً أصحّاء وشخصية مرموقة في المجتمع وبيتك مؤثث بكل ما يلزم إلاّ باب بيتك معيبة فأصلحها فهي لا تتناسب مع بيتك ولا داعي لتركها هكذا خراباً مع أنّها أمر صغير قياساً لما تملك.

وهكذا نصح هذا الرجل قريبيه بقوله: مادام كل شيء منكما جيداً فلا داعي للتمسك بهذه الصغيرة - والتي عبّر عنها ببعرة الفأر - في صحيفة أعمالكما؟!

وأنتم - طلبة العلوم الدينية - الذين تركتم في الغالب معظم اللذات الدنيوية من أجل الله، لماذا لا تكملون صحيفة أعمالكم بجعلها خالصة كلها لله تعالى؟ فما على المرء إلاّ أن يحاول ويبدأ والله تعالى هو الذي يعينه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ المقصود.

أما الصعوبة في ذلك فشيء طبيعي ويحتاج إلى تمرين وممارسة واستمرار واستعانة بالله تعالى.

نسأله سبحانه التوفيق لي ولكم.

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

المحاضرة ٢٢

قصة أصحاب الحِجْر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى في كتابه الكريم: «ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين»[1].

▪ مَن هم أصحاب الحجر؟

أصحاب الحِجْر هم قوم النبي صالح (عليه السلام). وهو مدفون مع النبي هود (عليه السلام) حيث مدفن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في وادي السلام في النجف الأشرف. ويستحبّ زيارتهما بعد الفراغ من زيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) كما يستحبّ زيارة آدم ونوح عليهما السلام؛ فهما مدفونان هنالك أيضاً.

أمّا الحجر فهو اسم المنطقة التي بُعث فيها النبي صالح (عليه السلام) لهداية أهلها، فسُمّوا بها. و لم يكن صالح أوّل نبي يكذّبونه فلقد كذّبوا أنبياء آخرين سبقوه بعثهم الله إليهم قبل صالح (عليه السلام)؛ وكان هؤلاء الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم مشفوعين بالآيات والمعجزات التي تثبت كونهم مبعوثين من قِبل الله تعالى؛ ولكن ذلك لم ينفع مع أصحاب الحجر وكانوا - كما أخبر الله تعالى عنهم - معرِضين عن تلك الآيات والدلالات!

فلقد لبث صالح (عليه السلام) فيهم - كما في الروايات الواردة عن

(١) سورة الحجر: ٨٠ و٨١.

المعصومين صلوات الله عليهم - يدعوهم إلى الله مدّة مئة وست عشرة سنة، لم يؤمن به خلالها أكثر من سبعين منهم أي بمعدّل أقل من شخص واحد خلال كل سنة!

وفي هذا دلالة على أنّنا ينبغي أن لا نتعب أو نملّ ونضجر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كانت الاستجابة قليلة والتأثير بسيطاً؛ فإنّ الله سيثيبنا على أتعابنا مهما كانت النتيجة. فلو أنّ أحداً منّا أيقظ ولده لصلاة الفجر مرّتين وثلاثاً وأربعاً وخمساً، دون أن يرى استجابة منه، فليوقظه في اليوم السادس أيضاً ولا ييأس، فلعلّه يتأثّر ويستجيب، والله تعالى هو طرف المعاملة مع العبد وهو الذي يعطيه أجره في كلّ حال. يقول الله تعالى مخاطباً نبيه (صلّى الله عليه وآله): «فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب»[1].

▪ الإعراض عن الآيات

ولا يكون الإعراض إلاّ بعد أن يتبيّن الأمر، ولذلك نرى القرآن الكريم يذكره بعد ذكر إيتاء الآيات والبينات. فإنّ مَن لا يعلم أنّ الحجّ واجب بالنسبة إليه ولا يحجّ لا يسمّى معرضاً. أمّا مَن علم بوجوب الحجّ عليه ولم يحجّ مع ذلك يقال إنّه أعرض عن الحجّ. وهكذا الحال مع أصحاب الحجر فإنّهم استمرّوا في تكذيب أنبياء الله حتى بعد نزول الآيات ومشاهدة المعجزات، أي أنّهم أعرضوا عن الآيات.

▪ آية صالح عليه السلام

وأعظم آية ومعجزة للنبي صالح (عليه السلام) هي الناقة. فقد طالبه جماعة من

---

(١) سورة الرعد: ٤٠.

قومه أن يُخرج لهم ناقة من بطن الجبل ليتبيّن لهم صدق دعواه. فإنّه إن كان نبياً استجاب الله دعوته. ولم يردّ صالح (عليه السلام) طلبهم فتوجّه إلى الله تعالى وسأله ذلك. فخرج صوت رهيب من الجبل لأنّه انشقّ إلى نصفين، وخرجت ناقة عظيمة قيل إنّها كانت تعادل في ضخامتها عشرات النوق؛ يتبعها فصيلها. وهذا ليس بعزيز على الله، فلقد خلق آدم وحواء من قبل من دون أبوين، وخلق عيسى من أمّ فقط. يقول الله تعالى: «إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»[1].

وكانت الناقة وبراء جميلة تسير بسيرة الإنسان العاقل الحكيم الذي لا يؤذي أحداً. فكانت لا تؤذي شخصاً ولا حيواناً ولا زرعاً ولا شيئاً، كالإنسان المؤمن الحكيم. وكانت تأكل من حشائش الأرض حتى إذا وصلت زرع الناس لم تنل منه حتى بمقدار حبة، وكانت لا تطأ في سيرها زرع أحد أو أنساناً أو حيواناً أو حشرة رغم ضخامتها بل كانت تتحاشى ذلك في مشيها وسيرها؛ وكانت الحيوانات الأخرى تخشاها بقدرة الله تعالى. وهكذا كانت إعجازية في كل شيء، وليس في انوجادها فقط. فلقد كانت تشرب في اليوم الواحد ماء القرية بأكمله، أي الماء الذي يشرب منه مئة ألف إنسان مثلاً، وتدع اليوم الذي يليه لأهل القرية يشربون منه. فكان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم كما ورد في الآية الكريمة في قوله

---

(١) سورة النحل: ٤٠.

ورد في تفسير هذه الآية أنّ الله تعالى لا يحتاج حتى إلى قول: «كن» فإنّ إرادته تكفي ولكن التعبير الوارد في الآية لغرض التفهيم؛ لأنّنا بحاجة إلى مراحل ثلاث لإيجاد الشيء؛ هي: الإرادة والتعبير عنها ومرحلة العمل. فلو أنّك أردت أن تبني مسجداً مثلاً، فإنّك تريد ذلك أوّلاً ثم تعبّر عنه ثانياً وفي المرحلة الثالثة تبذل المال وتوفّر المواد والبناء، وهكذا. أمّا الله سبحانه فلا يحتاج إلى التعبير ولا إلى العمل الخارجي بل إنّ إرادته وحدها تكفي لتحقّق ما يريد.

تعالى: «قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم»[1]. وكانت تعطي الحليب كل يوم بمقدار الماء الذي شربته. وتلك معجزة أخرى. فإنّ الحيوانات التي تعطي الحليب لا تعطي بمقدار ما شربته من ماء بل أقلّ منه بكثير، لكن هذه الناقة كانت معجزة في كلّ شؤونها!

▪ عقر الناقة

أعرض أصحاب الحجر عن الآيات كلها وقرّروا قتل الناقة بزعم أنّها تحرمهم من الماء يوماً كاملاً، مع أنّهم كانوا يستفيدون حليباً! ولكنّه الطغيان والعياذ بالله!

ووعظهم نبيهم قائلاً: إن عقرتم الناقة فإنّ الله تعالى سينزل عليكم عذاباً من عنده. فقالوا: فليترل علينا العذاب فلا نبالي! و لم يبالوا بتحذيرات النبي صالح (عليه السلام) وعقروا الناقة؛ عقرها شخص يسمّى (قيدار) كان أشقاهم. وقتلوا فصيلها أيضاً، وقيل: إنّه عاد إلى الجبل مفجوعاً! ثم تقاسموا لحم الناقة بينهم!

▪ نزول العذاب، والعبرة من القصة

وهنا أخبرهم نبيهم (عليه السلام) أنّ الله سينزل عليهم العذاب بعد ثلاثة أيام، تصفرّ وجوههم في اليوم الأوّل، وتحمرّ في اليوم الثاني، وتسودّ في اليوم الثالث! ثمّ يترل عليهم العذاب إن لم يرجعوا حتى ذلك الحين!

سبحان الله! وما أعظم رحمته! فمع أنّ هؤلاء القوم كذّبوا المرسَلين واستمرّوا في تكذيبهم حتى بعد نزول الآيات، يمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام عسى أن يتوبوا فيعفو عنهم ويقبلهم، ولكنّهم لم يرجعوا مع ذلك واستمرّوا في غيّهم، حتى كان اليوم التالي فاصفرّت وجوه الذين لم يؤمنوا بصالح (عليه السلام)، فقال ضعفاؤهم لكبرائهم: لقد اصفرّت وجوهنا وإنّ صالحاً صدق فيما قال. فأجابوهم: دعوها

---

(١) سورة الشعراء: ١٥٥.

تصفرّ! وفي اليوم الثاني احمرّت وجوه القوم، لكنّ الأشقياء أجابوا المعترضين: لعلّ صالحاً سحركم، دعوها تحمرّ. حتى كان اليوم الأخير فاسودّت وجوههم فقالوا: لن نؤمن له ولو هلكنا! فأنزل الله عليهم جبرئيل فصاح فيهم صيحة تقطّعت نياط قلوبهم وأصبحوا في ديارهم جاثمين!!!

إذن على المرء أن ينتبه إلى نفسه، فلو أنّه سقط في كل الامتحانات والعياذ بالله، فلا يسقطن في الامتحان الأخير. وصلّى الله على محمدٍ وآله الطاهرين



المحاضرة ٢٣

الورع عن محارم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

تضمنت الخطبة الشهيرة التي ألقاها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر جمعة من شهر شعبان المعظم وفي استقبال شهر رمضان المبارك الكثير من الفضائل، ولكننا سنتناول في بحثنا هذا نقطتين هما؛ الأولى: قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «فإن الشقي مَن حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم»(١). والثانية: الورع عن محارم الله، حيث سأله الإمام علي(عليه السلام) عن أفضل الأعمال في هذا الشهر، فأجاب (صلى الله عليه وآله وسلم): «الورع عن محارم الله»(٢).

١- من هو الشقي

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم». ويقول علماء البلاغة: إن الجملة هنا تدل على الحصر، أي إن الشقي هو مَن حُرم غفران الله في شهر رمضان المبارك فقط، وليس في أي شهر آخر. فالشقاء منحصر في مَن شُقي في شهر رمضان وحُرم غفران الله فيه، لا غير. هذا هو الظاهر البلاغي للجملة، ومعناه أن الشقيّ كلّ الشقيّ هو الذي يحرم

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٠، ص٣١٣، باب١٨، ح١٣٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه.

غفران الله في هذا الشهر خاصة.

ولا عجب فإن شهر رمضان هو شهر الله سبحانه وتعالى، اختص به دون باقي الشهور، فهو شهر لتنظيم حياة الإنسان والتغيير نحو الأفضل والتطهر من كل دنس، والطاعة لله سبحانه، وفيه يغفر الله للإنسان كل يوم وليلة أضعاف ما يغفر في سواه من الشهور، كما خصّه بليلة القدر التي هي أعظم من ألف شهر، ويغفر الله فيها ما لا يغفر في غيرها من الليالي والأيام، وكذلك يغفر الله في أوله ووسطه وآخره. فشهر رمضان هو شهر «العفو العام». فمن لم يُشمل بالعفو فيه فهو الشقي حقاً.

أقسام الصوم ومراتبه

ونظراً لأهمية الصوم في شهر رمضان المبارك، ودوره في بناء الإنسان المسلم، فقد قسّم علماء الأخلاق الصوم إلى ثلاثة أقسام هي:

١. الصوم العام.

٢. الصوم الخاص.

٣. الصوم خاص الخاص.

الصوم العام: هو الكف عن المفطرات المذكورة في الكتب الفقهية والرسائل العملية من الأكل والشرب والكذب على الله ورسوله، والارتماس في الماء، والبقاء على الجنابة حتى الفجر، والتقيؤ عمداً وغيرها من الأمور التي إن لم يلتزم بها المرء لا يصدق عليه أنه صائم.

أما **الصوم الخاص:** - وهو أرقى من الأوّل وأرفع درجة - فهو الكف عن المحرمات كلها إضافة إلى ما ذكر، أو ما يسمى بصوم الجوارح مثل: كف السمع عن محرمات السمع كالاستماع إلى الغيبة، وكف البصر عن محرماته كالنظر إلى المرأة الأجنبية بريبة، وكف اللسان عما لا يحل له كالكذب واغتياب الآخرين،

وهكذا.

وأما **الصوم خاص الخاص**: فلا يتوقف حتى عند هذا الحد بل يترقى ليشمل النوايا والفكر أيضاً. فالصائم في هذه المرتبة لا يقتصر على الكف عن المفطرات وعموم المحرمات فحسب بل لا يفكر فيها ولا تحدّثه نفسه بها.

أي أن هناك فريقاً من الناس لا يتورعون عن المعصية ويكفون عنها وعن المحرمات فحسب بل يتورعون عن التفكير فيها أيضاً، فهم يصومون عن المفطرات العامة، وتصوم جوارحهم عن ارتكاب الذنوب، كما تصوم جانحتهم عن التفكير فيها. وهذا صوم خاص الخاص. وهو أعلى مراتب الصوم وأقسامه.

لنصمم على بلوغ أعلى المراتب

لو أن أحداً صمم وعزم على الالتزام بالقسم الثالث والمرتبة الأعلى من الصوم، أي نوى الكف عن المفطرات وسائر المحرمات وكذلك التفكير فيها أيضاً، فإنه قد يوفق لبلوغ المرتبة الثانية أي ترك المحرمات وصوم الجوارح إلى جانب ترك المفطرات العامة للصوم، فلو راجع نفسه بعد شهر رمضان لرأى أن فكره لم يكن صائماً وأنه ربما تخلف عدة مرات وفكّر في الحرام، لكن جوارحه قد صامت والحمد لله.

أما إذا عزم المرء على المرتبة الثانية فيُخشى أن لا يوفق حتى لهذا، ولا يبلغ أكثر من المرتبة الأولى وهي الصوم العام، وذلك لأن الإنسان لا يوفق - عادة - إلا لما دون ما عزم عليه. يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «مَن طلب شيئاً ناله أو بعضه»[1]. ولا نعني بذلك أن الإنسان مجبر على ذلك، بل هو لا يملك نفسه في

---

(١) نهج البلاغة، ص٥٤٤.

الغالب، وهذا أمر قد ثبت بالتجربة. فإن الشخص الذي ينوي مطالعة عشرين صفحة – مثلاً– قد لا يشعر بالتعب إذا بلغ بضع صفحات (ثلاث أو أربع)، لكنه قد يشعر بالتعب وقد يتوقف إذا بلغ عشر صفحات أو أكثر. أما الذي يعزم على مطالعة ثلاث صفحات فقط فإنه سيتعب بمجرد قراءة صفحتين، وهذا يعني أن الإنسان يشعر بالتعب دون مقصده. وهذا حال أغلب الناس دون النادر منهم الذين لهم توفيق خاص.

ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يكون ذا تصميم قوي وإرادة فولاذية لكي يوفق إلى طاعة الله عز وجل في أعلى مراتبها ونيل أعلى الدرجات، لا أن يقول حسبي ترك مفطرات الصيام؛ فإنه قد يحرم غفران الله.

فليجلس كلّ منا – ولو ساعة – قبل شهر رمضان يقلب فكّره في هذه الأقسام من الصوم ويتساءل مع نفسه: ماذا يحدث لو عزمت على المرتبة الثانية على أقل تقدير، ولا أترك نفسي دون تحضير واستعداد وعزم على ترك المحرمات قبل أن أواجهها؟ فإن هذه الساعة من التفكير ستلعب دوراً في تغيّر الإنسان تجعله يختلف عن غيره من أوّل شهر رمضان إلى آخره. حتى إذا راجع صحيفة أعماله بعد الشهر الكريم رأى أن سيئاته قد قلّت بدرجة كبيرة واقترب من غفران الله أكثر وابتعد عن الشقاء أكثر.

وهذا ليس بالأمر الصعب فهو لا يتطلب أكثر من أن تجلس قبل شهر رمضان ساعة من الزمن تخلو فيها بنفسك وتفكر في مراتب الصوم وتعزم على بلوغ المرتبة الأعلى، فإنّ «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة» كما في الحديث[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٩٢، ب٣٧.

ولنحدد المحرمات التي تواجهنا

كما علينا أن ننظر ما هي محرمات البصر وما هي محرمات السمع وما هي محرمات اللسان ثم نصمم على الكف عنها، ونحاول ذلك.

ففي بعض الأدعية: «إلهي خلقتني سميعاً، فطالما كرهت سماعي، وأنطقتني فكثر في معاصيك منطقي، وبصّرتني فعمى عن الرشد بصري، وجعلتني سميعاً بصيراً، فكثر فيما يرديني سمعي وبصري»[1].

فلننظر ما هي المحرمات التي قد نتعرض لها؛ لأن كل إنسان معرض لقسم من المحرمات، فليصمم على ترك المحرمات التي تواجهه، فرب محرمات لم يكن قادراً على فعلها أو أنها ليست من شأنه. فطالب العلم الديني مثلاً لا يصدر منه شرب الخمر عادة، لأن ذلك ليس من شأنه بل لا يفكر فيه ولا يتصور وقوعه في هذا الفعل الحرام، وهكذا السرقة وتطفيف الميزان وما أشبه، ولكنه قد يقع في الغيبة أو الإيذاء أو إهانة الناس، فليحدد المحرمات التي من هذا القبيل وليصمم على تركها.

وليكن لنا في المتحولين عبرة

ولا بأس أيضاً أن يتذكر الإنسان أن هناك أناساً كانوا عصاة وفساقاً، ولكنهم انقلبوا -بسبب قلوبهم المستعدة والرقيقة- بموعظة وموعظتين، إلى أناس طيبين وعدول؛ فسوف نتحسر كثيراً يوم القيامة إذ لا مجال لإصلاح أنفسنا عندما نعرف أن إنساناً بعيداً عن المطالب الدينية انقلب طيباً وخيّراً وأصبح أحسن منا عند الله سبحانه وتعالى ولم نغيّر نحن أنفسنا مع أننا كنا نعرف المسائل الدينية أكثر منه.

فإن كان التأمل في هذا الأمر يؤلمنا فلنحاول أن نصلح أنفسنا خصوصاً في هذا

---

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس الحسني، ج١، ص ٨٩.

الشهر الكريم.

٢- الورع عن محارم الله

ذكرنا في مطلع الحديث أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله.

إذن علينا أن نعرف أولاً ما هي الأمور التي حرّمها الله تعالى؛ لأن الورع شيء والمحرمات شيء آخر.

فهناك مسألة في الفقه يدور النقاش حولها وهي ما هو حكم مَن تتوفر فيه ملكة العدالة ولكنه لا يعلم كل المحرمات، كالبدوي الطيب الذي لو عرف أن شيئاً بعينه حرام لتركه، ولكنه يجهله، ولنفرض أن جهله كان عن قصور لا تقصير، فهل تترتب عليه آثار العدالة أم لا؟

فلنحتمل الشيء نفسه في أنفسنا. فما أدرانا أنّا عرفنا كل المحرمات؟ ولو عرفناها فما هي حدودها؟ فلعل بعضها غير واضح لبعضنا. إذن علينا - لاسيما نحن طلاب العلوم الدينية - أن نستفيد من فرصة هذا الشهر الكريم لمعرفة المحرمات. فاحتمال عدم معرفتنا لكل المحرمات يسوقنا إلى أن نوفر بعض الوقت لمعرفتها في هذا الشهر فهو خير فرصة لنا.

وإذا كان الورع عن محارم الله أفضل الأعمال في هذا الشهر، فمعرفة هذه المحارم مقدمة له.

والورع عن محارم الله أفضل حتى من قراءة القرآن في هذا الشهر، خلافاً لتصور بعض الناس.

هناك مَن يختم القرآن حتى ثلاثين مرة في شهر رمضان مع أن هناك فضائل أخرى كالإطعام وهداية الناس - المستحبّة طبعاً، أما الواجبة منها ففي تركها ارتكاب الحرام -.

وختم القرآن فضيلة عظيمة خاصة في هذا الشهر، وينبغي للإنسان أن يختمه فيه ولو ختمة واحدة.

أما أفضل الأعمال - كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - فهو الورع عن محارم الله.

ويتطلب أوّلاً: معرفة المحرمات - كما ذكرنا -.

ويتطلب ثانياً: مطالعة الروايات التي عدّدت المحرمات، لأن كثيراً من هذه الروايات تؤثر في دفع الإنسان لترك المحرمات، بسبب توفرها على علل التحريم وكذلك العقوبات التي تنتظر مرتكبيها. ففرق بين أن يسمع المرء أن الغيبة حرام وحسب، وبين أن يسمع أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى المغتاب في ليلة المعراج ولسانه يُقرض أو يُفعل به كذا وكذا، فهذا يؤثر في ترك الغيبة أكثر.

وهذه الروايات مذكورة في كتب الأخلاق مثل جامع السعادات والكتب التي تذكر آداب المحرمات كحلية المتقين، والآداب والسنن في بحار الأنوار...

ويتطلب ثالثاً: الابتعاد عن كل المناهي؛ لأن من المناهي ما هو حرام ومنها ما هو مكروه، لاسيما إذا لم يتضح لنا بعد أن الأمر الفلاني مكروه أو حرام؛ فإن ذلك من مقتضيات الورع. أرأيت الذي يسير في أرض شائكة كيف يحتاط في رفع قدمه ووضعها لئلا تصيبه شوكة بل حتى ما يشك أنها شوكة. ولذلك قال العلماء: إن الورع درجات. سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن أورع الناس فقال: «الذي يتورع عن محارم الله ويجتنب هؤلاء فإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه»[1].

إن الورع عن المحرمات أدنى درجات الورع، نسأل الله سبحانه أن يوفقنا

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص١٦٢، ب٢٧.

لأعلى درجاته ولما يحب ويرضى.

وصلّى الله علي محمد وآله الطيبين الطاهرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين.

استقبال شهر رمضان

المحاضرة ٢٤

من واجبات طلاب العلوم الدينية: الترويض والهداية وجمال التعبير.

تُروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عدّة خطَب في استقبال شهر رمضان المبارك، منها الخطبة المعروفة التي خطبها في آخر جمعة من شهر شعبان، ومطلعها: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة»[١].

ويمكن أن يُستظهر من بعض الروايات أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستقبل شهر رمضان من كلّ سنة بخطبة خاصّة، إمّا في أوّل الشهر أو قبل حلوله. فهناك عدّة خطَب مرويّة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في استقبال هذا الشهر الفضيل، منها هذه الخطبة التي يرويها الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) وينتهي بسندها إلى الإمام الرضا، عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم جميعاً صلوات الله، والتي تبدأ – كما قلنا– بقوله صلى الله عليه وآله: «أيّها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله...»، ولعلّ العديد منكم يحفظها فأنتم أهل علم ووعظ وإرشاد[٢].

---

(١) وسائل الشيعة ج١٠، ص٣١٣؛ بحار الأنوار ج٩٣، ص٣٥٦، باب٤٦.

(٢) كان سماحته يلقي كلمته على طلاّب العلوم الدينية في استقبال شهر رمضان.

أفضل الأعمال في شهر رمضان

لست الآن بصدد تفسير الخطبة ومفرداتها، فهي خطبة عظيمة وتحتاج إلى بيان وتفسير واسع، ويمكن أن تقال بشأنها وحول بنودها مطالب وكلمات كثيرة. لكنّي أريد هنا أن أذكر شيئاً واحداً وهو: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر للمؤمنين في هذه الخطبة عشرين بنداً -أو يزيد- وحثّ المؤمنين عليها وشجّعهم نحوها، ولكن حينما توجّه إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهاية الخطبة بسؤال عن أفضل الأعمال في هذا الشهر -ومن المعلوم أنّ سؤال الإمام ليس لنفسه بقدر ما هو لي ولك ولعامّة الناس- لم يذكر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في جوابه أيّاً من البنود التي جاء على ذكرها في فقرات خطبته، أي لم يقل له مثلاً: إنّ قراءة القرآن أفضل الأعمال في هذا الشهر أو الإطعام أو أيّ شيء آخر، بل أجابه بأمر آخر لم يكن ضمن بنود الخطبة الشريفة؛ قال: «الورع عن محارم الله»[1].

ما هو ورعنا نحن؟

والورع أفضل الأعمال في كلّ وقت وزمان وفي هذا الشهر أيضاً. فما هو الورع؟ وما هو ورعنا نحن -الخطباء والوعّاظ وطلاّب العلوم الدينية- في هذا الشهر العظيم؟

إنّ أدنى الورع وأقلّ درجاته أن يلتزم الإنسان بالواجبات وأن ينتهي عن المحرّمات فهذه أوّل درجات الورع.

---

(١) وسائل الشيعة ج١٠، ص٣١٣؛ بحار الأنوار ج٩٣، ص٣٥٦، باب٤٦.

ولاشكّ أنّ كلّ إنسان تتناسب تكاليفه وواجباته مع مقدار معرفته ومدى فهمه وعلمه، فكلّما ازداد الإنسانِ علماً ومعرفة تضاعفت مسؤولياته وواجباته.

فما هو ورعنا نحن -أعني أهل العلم والمرشدين المتصدّين لهداية الناس- ؟

الواجب الأوّل: ترويض النفس

هناك واجبان بالنسبة لنا، بدونهما لا يتحقّق الورع عندنا:

الواجب الأوّل: ترويض النفس؛ فإنّ النفس لا يمكنها أن تستقيم هكذا بسهولة وبسرعة من دون حاجة إلى ترويض ومقدّمات. بل هي بحاجة إلى رياضة مستمرّة وكما يقول مولانا أمير المؤمنين (صلوات الله وسلامه عليه) في بعض كلماته:

«وإنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر» [1].

فترويض النفس إذن من أهمّ الواجبات العينية بالنسبة إلى كلّ فرد، ويتأكّد بالنسبة لنا -نحن الوعّاظ والمبلّغين وعلماء الدين- لأنّ كلّ واحد منّا يتعلّم منه أفراد وربّما جماعات ويتلقّون منه ويقتبسون ويقتفون أثره، ويتأثّرون بكلامه وحركاته وتصرّفاته.

فإنّك وإن كنت فرداً في وجودك الخارجي لكنّك لست كذلك في العمل؛ لأنّ هناك مَن يعتبرونك مرشداً وهادياً وهم يقتدون بأفعالك سواء كنت خطيباً أم عالماً.

---

(١) نهج البلاغة، من كتاب له إلى عثمان بن حنيف.

الناس يقتدون بالعلماء في كلّ شيء

أنقل لكم قصّة أحد العلماء الماضين رضوان الله عليهم، كما رواها لي بنفسه؛ قال:

«عدت إلى قريتي ومسقط رأسي لزيارة أهلي وذويَّ بعد أن فارقتهم سنوات للدراسة. وجاء أهل القرية بدورهم لزيارتي والاحتفاء بي.

وفي أحد الأيّام سألني قريب لي وقال: هل يستحبّ تقديم الرجل اليمنى إذا أريد الدخول في خزانة الماء في الحمّامات؟

يقول العالم: قلت: لا. فهذا الحكم (أي تقديم اليسرى عند الدخول واليمنى عند الخروج) مختصّ ببيت الخلاء، أمّا بالنسبة لغيره كالحمّامات وأحواض الماء فلم يُروَ هذا الحكم.

قال لي: إنّ فلاناً ينقل عنكم ذلك.

قلت: أنا لا أعلم هذا الشيء، فكيف ينُقل عنّي؟!

قال: لكن فلاناً ملتزم به خلال هذه المدّة وينقله للآخرين وقد تعلّموا منه هذا الحكم لأنّه ينقله عنكم.

يقول العالم: عجبتُ من الأمر، لأنّني لم أرَ هذا الحكم طيلة حياتي ولا سمعت به، فكيف أخذه هذا الشخص عنّي، وما هذا الشيء قلته له ولا علم لي به؟

يقول: فطلبت ذلك الشخص وسألته: أ أنت نقلتَ عنّي استحباب تقديم الرجل اليمنى عند دخول خزانة الحمّام وتقديم اليسرى عند الخروج؟ قال: نعم.

قلت: أنا متى قلت لك هذا؟

قال: إنّك لم تقله لي مباشرة، لكنّني وعندما كنتُ في أحد الأيّام في الحمّام، نظرت إليك فلاحظتُك تعمل هكذا (أي تقدّم رجلك اليمنى حين الدخول واليسرى حين الخروج).

قلت: هذا شيء عادي وليس بعنوان كونه مستحبّاً».

والآن أيّها الإخوة انظروا إلى قصّة هذا العالم واعتبِروا! لقد اتّخذوه أسوة حتّى في العمل العادي. وهذا يثبت لنا أنّنا لسنا أفراداً في العمل وإن كنّا كذلك في وجوداتنا الخارجية، بل إنّ كلّ واحد منّا هو مرجع تقليد بمستوى معيّن ونسبة ما. لا فرق في ذلك بين طالب العلم والخطيب وعالم القرية والعاصمة، فكلّ على قدره ومستواه.

إنّنا غير مسؤولين عن أنفسنا فحسب، بل عن أولئك الذين يتعلّمون منّا أيضاً، وهم يلاحظوننا في كلّ شيء، حتّى في أعمالنا وحركاتنا الصغيرة والعفوية. فما ذكرته لكم لا ينحصر بذلك العالِم، ولا أنّه كان مرجع تقليد في وقته.

تغيير النفس بحاجة إلى مقدّمات

فإذا كان تغيير النفس من الواجبات العينية بالنسبة لنا، فهذا يعني أنّ على الإنسان أن يمهّد السبل والأساليب التي تجعله لا يعصي الله تعالى، وهذا أمر لا ينبغي الاستهانة به، بل لابدّ له من مقدّمات وتمهيدات وزمن ورياضة وكما قال الإمام عليه السلام: «أروضها».

وإنّ رياضة النفس أكثر صعوبة من رياضة البدن لأنّه في الأخيرة إذا وجد المقتضي –كالجسم المستعدّ– فلا توجد هناك موانع كتلك التي

توجد في رياضة النفس وهي موانع قوية جدّاً من قبيل:

نفسي وشيطاني ودنياي والهوى　　كيف الخـــلاص وكلّهم أعدائي

هذه الموانع تواجهنا جميعاً وهي تتطلّب همّة قويّة للتغلّب عليها. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً؛ لأنّه -وكما ورد في هذه الخطبة المباركة نفسها- يُغلّ الشياطين في هذا الشهر، بيد أنّ عمل بني آدم قد يفتح الغلّ من الشيطان فيتسلّط عليه من جديد، فلنكن حذرين يقظين منتبهين جدّاً.

في رمضان؛ التغير أسهل

فأيّة فرصة للرياضة الروحية وترويض النفس أعظم من الصوم؛ لأنّ الإنسان الخاوي البطن تقلّ شهواته، كلّ حسب الأجواء الروحية التي تقرّبه إلى الله تعالى. وهذه الأجواء الرائعة متوافرة في شهر رمضان، أي أنّ أجواء هذا الشهر تساعد الإنسان على ترويض نفسه. فلنتّخذ من هذا الشهر الكريم مناسبة لتغيير أنفسنا فيه حقيقة.

وهذا شيء ممكن، وهو في هذا الشهر أسهل؛ لأنّ الإنسان مهما كان -والعياذ بالله- بعيداً عن الخير والصلاح والتقوى، يمكنه أن يستفيد من أجواء هذا الشهر لتغيير نفسه. فإنّ الله تعالى أودع هذه القدرة في الإنسان، وشهر رمضان فرصة مناسبة جدّاً لهذا الأمر.

إمكانية الترويض والتغير

أنقل لكم فيما يلي قصّة أحد العلماء المتّقين في هذا المجال، وكف أنّه تغيّر تغيّراً كبيراً حتّى أصبح مسلّم العدالة في عصره. ولا أذكر اسمه بسبب

البداية السلبية في قصّته؟

إنّني لم أدركه بالطبع لكنّي سمعت قصّته من الذين عاشرهم من أبناء الجيل السابق، حيث تعود القصّة إلى زهاء ثمانين سنة.

سأنقل لكم قطعتين من تاريخه وانظروا كيف يمكن للإنسان أن يتغيّر:

القطعة الأولى من بداية حياته: وكان طالب علم يدرس العلوم الدينية في العراق، ولكنّه كان شابّاً كأيّ من الشباب في عصره. وكان بعض الشباب آنذاك إذا أراد الزواج هيّأ بدلة (حلّة) من قماش خاصّ يأتون به من سوريا خصّيصاً لليلة الزواج. فإن كان طالب علوم دينية كصاحبنا عملوا له منه جبّة أو قباء مثلاً.

وأتت مناسبة زواج هذا الشاب الحوزوي، ولكن اتّفق نفاد هذا القماش في الأسواق. ومهما عمل للحصول عليه لم يفلح. وكان يوجد من أنواع الأقمشة الأخرى بالعشرات، لكن هذا النوع بعينه كان مفقوداً، وكان بعض الشباب -أقول بعض الشباب وليس كلّهم- إذا أراد أن يتزوّج لا يرضى عن ذلك القماش بديلاً!

ولم تكن الطائرات والسيارات كما هي اليوم لتلبية رغبة هذا الشاب الطالب! وربما لم يكن يملك المال الكافي لإرسال مَن يأتي له به من سوريا على عجل؛ فما كان منه إلاّ أن أخّر زواجه لمدّة سنة كاملة أو أكثر أو أقل، لا أعلم تحديداً.

لقد أخّر زواجه كلّ هذه المدّة ليس إلاّ ليكون في ليلة زواجه مرتدياً من ذلك القماش! انظروا كم كان هذا الشاب عابداً لنفسه، بل كم كان بعيداً عن التقوى.

عن هذا الشاب نفسه أنقل لكم القطعة الثانية من تاريخه، وقد نقلها

لي والدي رحمه الله.

يقول: في النجف الأشرف كانت العادة أن الناس لا يصلّون خلف أيّ كان من العلماء والمراجع وغيرهم، ولكنّهم كانوا يصلّون خلف هذا الشخص؛ لأنّه كان قد وصل إلى مرتبة بحيث كانوا يعبّرون عنه بمسلّم العدالة عند الكلّ. فحتّى مراجع التقليد كالمرحوم السيّد الحكيم والمرحوم والدي والمرحوم السيّد عبد الهادي الشيرازي والمرحوم السيّد حسين الحمامي كانوا يصلّون خلفه ويأتمّون به.

هكذا وإلى هذا المستوى تغيّر هذا الشاب!! بحيث صار يصلّي خلفه أشخاص أصبحوا فيما بعد مراجع تقليد للمسلمين.

إذن من الممكن أن يغيّر الإنسان نفسه ولو خطوة خطوة. وشهر رمضان مناسبة جيّدة جدّاً للتغيير.

الشيطان لا يدعنا

لا تقولوا: نحن طلاّب علوم دينية -إن شاء الله- نصلّي ونصوم ونقرأ القرآن وندرس وندرّس ونخطب ونكتب؛ فإنّ الشيطان يركّز عليكم أكثر، ولا حاجة به إلى غيركم مع طمعه فيكم، فأنتم همّه الأوّل والأكبر.

عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «إنّ الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدّد ثمّ قال: فزت»[1].

إنّ الشيطان يحاول أن يؤثّر فينا مهما وسعه، ثمّ يتشجّع للتقدّم أكثر. فلو استطاع أن يؤثّر في مجموعنا بنسبة الواحد في المليون كان ذلك العمل

---

(١) الكافي، ج٣، ص٣٤٥.

عنده خطوة إلى الأمام، فيطمع بالاثنين بالمليون ثمّ الواحد بالألف فالواحد في المائة حتّى يصل -لا سمح الله- إلى التسعة التسعين في المائة.

إذاً نحن -جميعاً- بحاجة إلى ترويض وانتباه بحيث إذا دخل أحدنا شهر رمضان وخرج منه يكون قد تغيّر ولو قليلاً. وملاك التغيّر هو العمل بالمستحبّات وترك المكروهات، وهي السور الثاني أو القنطرة الثانية التي ينبغي اجتيازها إذا اعتبرنا الواجبات والمحرّمات السور أو القنطرة الأولى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، وما منكم من أحد إلاّ وله شيطان. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلاّ أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم»[1].

الشقي مَن حُرم رضوان الله

يقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة الشريفة: «فإنّ الشقيّ مَن حُرم رضوان الله».

والألف واللام الداخلة على كلمة «شقي» في هذه العبارة تدلّ على الحصر -كما تعرفون في علم البلاغة- ، أي أنّ مَن حُرم غفران الله في هذا الشهر فهو الشقي لا غير. إذن هذا الشهر مناسبة جيّدة للتغيير.

فإذا انتهت هذه المناسبة ومرّت دون أن يحصل الشخص على شيء فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول عنه إنّه شقيّ؛ لأنّ عشرات الأبواب بل مئات الأبواب بل ألوف الأبواب فُتحت لصلاح الإنسان في هذا الشهر، لكن هذا الفرد لم يحصل على شيء منها ولا

---

(١) بحار الأنوار ج٦٠، ص٣٢٩.

استفاد من أيّ باب، فهو الشقيّ إذاً.

أنفسنا مرهونة بأعمالنا

إنّ الزمام بأيدينا نحن، وليس بأيدي غيرنا.. كلّ واحد منّا زمام نفسه بيده.

ما معنى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة: «إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم، ففكّوها باستغفاركم...»؟

الجواب: كما أنّ أحدكم إذا رهن داره إلى غيره لا يستطيع أن يتصرّف فيها ما لم يفكّ رهنها بالمال، فكذلك أنفسكم رهينة بأعمالكم، أي هي رهينة هذه النظرات والكلمات والأفكار والرواح والمجيء والنوم واليقظة.. إنّ أنفسكم مرهونة بهذه الأشياء، فافتحوها باستغفاركم. والاستغفار جزء منه قول: «أستغفر الله ربّي وأتوب إليه»، ولكنّه ليس كلّ الاستغفار كما تعلمون، بل منه ترويض النفس أيضاً، وهو من الواجبات العينية كما قلنا. وكلّ ما علينا أن نعزم ونهمّ بالأمر، والتوفيق من الله.

أ رأيتم كيف وُفّق ذلك الطالب الشابّ عندما نوى التغيير مع أنّه لم يكن معصوماً ولا مرجعاً لكنّه تحوّل ذلك التحوّل العجيب حتّى صار مقتدىً وإمام جماعة للعديد ممّن أصبحوا مراجع للتقليد.

ونحن في أيّ مرتبة كنّا من مراتب التقوى والورع والرياضة النفسية فهناك المزيد من المجال للتحوّل والارتقاء. وعلينا أن ننتهز الفرص كشهر رمضان فهو كما قلنا أحسن فرصة لترويض النفس وتغييرها.

الثواب في شهر رمضان يضاعَف سبعين ضعفاً

في بعض الأحاديث الواردة حول شهر رمضان المبارك أنّ كل فريضة في رمضان لها ثواب سبعين فريضة في غيره. أي أنّك لو أمرت بالمعروف في هذا الشهر أو نهيت عن المنكر فثواب عملك سيكون سبعين ضعفاً.

ولو ألّفت كتاباً في شهر رمضان أو خطبت خطبة أو أسّست مكتبة أو هيئة لإرشاد الناس، أو قمت بالتدريس، أو ساعدت المحتاجين في هذا الشهر (أو سعيت لترويض نفسك وتغييرها)، فثوابه عند الله يعادل سبعين مرة ما لو عملت مثله في شهر شعبان أو شوّال مثلاً. فمجلس واحد في شهر رمضان يعادل سبعين مجلساً في غيره أي ما يربو على شهرين بكاملهما في غير رمضان.

الواجب الثاني: هداية الناس

أنتم طلبة فقه وأصول وتعرفون أنّ الواجب الكفائي قد ينقلب عينياً إذا لم يوجد مَن فيه الكفاية. ومن جملة الواجبات الكفائية هداية الناس وإرشادهم. ولكنّي أسأل: هل يوجد العدد الكافي اليوم لهداية كلّ الناس؟ فهذا العدد الهائل من الغافلين والجاهلين بفروع الدين وأصوله من أتباع الديانات والمذاهب المختلفة؛ هل يوجد مَن فيه الكفاية لهدايتهم وإرشادهم؟ كلاّ. إذن التصدّي للإرشاد والهداية واجب عيني أيضاً. وله مقدّمتان كلتاهما مهمّتان:

المقدّمة الأولى: تحصيل العلوم الإسلامية

الناس في هذا الزمان خصوصاً الشباب ولا سيّما طلاّب المدارس والجامعيين منهم بأمسّ الحاجة لَمن يقول لهم ما هي الواجبات وما هي المحرّمات، فهؤلاء أكثرهم أذهانهم محشوّة بعشرات بل مئات الأسئلة حول الإسلام بانتظار مَن يجيبهم. وهذا يحتاج إلى علم ودراسة وتعزيز علمي، فلا يتمكّن كلّ شخص أن يجيب عن أسئلتهم بسهولة ويعرّض نفسه للجواب والخطاب والكتاب والنقاش من دون علم، بل إنّ ذلك يحتاج إلى أرضية وتعبئة علمية ومقدّمات.

ومقدّمة الوجود للواجب المطلق -حسب اصطلاح العلماء- واجبة أيضاً. فإذا وجب شيء على الإنسان وتوقّف ذلك الشيء على شيء آخر صار ذلك الشيء الآخر واجباً عليه أيضاً.

فمَن وجبَ عليه الحجّ -مثلاً- لا يُقال له: يجب عليك ركوب الطائرة أو السيّارة أو إعطاء النقود لهذا الغرض، بل هذه الأمور تجب عليه من باب وجوب الحجّ عليه وتوقّف الحجّ عليها.

وهكذا الأمر بالنسبة لإرشاد الناس وهدايتهم. فهو واجب كفائي لَمن توجد فيه الكفاءة، ولهذا الواجب مقدّمات قد تصبح واجبة من باب كونها مقدّمات وجود الواجب. فالمهمّ والواجب هو أن يتمّ إرشاد الناس وهدايتهم وانتشالهم من الضلال، فإذا توقّف هذا المهمّ على مقدّمات كالتهيّؤ والاستعداد العلمي وجبت هي الأخرى.

فنحن مهما أوتينا من العلم فهناك ألوف الأسئلة التي لا نعرف لها جواباً يلزم أن نتهيّأ لها. وشهر رمضان مناسبة جيّدة أيضاً، يستثمرها كلّ منّا حسب مقدرته. ولاشكّ لا يوجد مَن يستطيع العمل المتواصل ليل نهار

(لمدّة ٢٤ ساعة يومياً)، فالمقدار الضروري من النوم والذي لا نستطيع مقاومته نعذر فيه، ولكن الباقي لا عذر لنا فيه؛ لأنّ كسب هذه المقدّمات هي من الواجبات المهمّة.

تحصيل العلم الديني أهمّ من قراءة القرآن

إنّ تهيئة هذه المقدّمات أهمّ حتّى من قراءة القرآن في شهر رمضان، لأنّ قراءة القرآن مستحبّة لكنّ التهيّؤ العلمي للقيام بدور الإرشاد والتبليغ واجب.

لاشكّ أنّ قراءة القرآن مقدّمة لمعرفته، ومعرفته مقدّمة للعمل به ومقدّمة لتعليمه للآخرين، وهي مقدّمة لإرشاد الناس إلى القرآن.

بيد أنّ القراءة بذاتها مستحبّة، وهذا الأمر (التحصيل العلمي) مقدّم عليها، إلاّ إذا أصبحت —القراءة— هي الأخرى مقدّمة وتعبئة علمية، فقد تكون قراءة القرآن ضمن مقدّمات الوجود في مجال ترويض النفس، بأنّ يروّض الإنسان نفسه بقراءة القرآن والتفكير عميقاً في معاني القرآن والتأمّل في آياته.. فهذه أيضاً من أساليب ترويض النفس. أمّا الأكثر من ذلك فيكون مجرّد قراءة وهي مستحبّة طبعاً.

صحيح أنّ كلّ آية يقرؤها الإنسان في شهر رمضان -كما في الحديث الشريف- تعدل قراءة القرآن كلّه في غير شهر رمضان؛ لكن الحديث في الواجبات مقدّم. فإذا كانت القراءة من باب المقدّمية للواجب فهي واجبة بلا شكّ وإلاّ فـ«لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض»[1]، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) وسائل الشيعة ج٤، ص٢٨٦.

فإرشاد الناس هو من الفرائض العينية فعلاً، ومن الفرائض الكفائية بذاته؛ لأنّ علماء الإسلام يجمعون أنّ الواجب الكفائي ينقلب عينياً إن لم يوجد من به الكفاية. كلّ على قدر سعته.

نعود إلى القول إنّ هداية الناس أفضل من مجرّد القراءة للاستحباب، ونقول: عليكم أنتم طلاّب العلوم الدينية أن تكونوا مشغولين دائماً بالدراسة والتدريس والكتابة. وشهر رمضان أفضل مناسبة لهذا الأمور.

المقدمة الثانية: جمال التعبير في القلم والكلام

المقدّمة الثانية لهداية الناس وإرشادهم هي إناء الإرشاد وظرفه ووعائه وهو الكلام والقلم.

فالطعام مهما كان لذيذاً وطيّباً لا يُرغب فيه إن وُضع في إناء أو وعاء غير نظيف وغير صحّي، فالإنسان لا يمدّ يده نحو مثل هذا الطعام ليرى إن كان لذيذاً أم لا، وذلك لأنّه موضوع في وعاء غير مناسب.

أمّا إذا أتوا لك بطعام عادي ولكن في إناء نظيف وجميل وجذّاب فسوف تتناوله بشوق حتّى إن لم يكن بمستوى الطعام الأوّل.

ووعاء الهداية والإرشاد هو القلم واللسان. فكلّما كانت الكتابة أجمل كان التأثير أفضل وأحسن.

انظروا إلى القرآن وكلام الرسول وأهل البيت عليهم السلام، أوَليس كلّ ذلك لنا قدوة؟

إنّ الأمور التي يطرحها القرآن الكريم هي أمور صحيحة وجميلة فما الحاجة إلى أن يطرحها بأسلوب بلاغي معجِب ومعجِز؟ إنّ القرآن الكريم كتاب هداية فلماذا يهتمّ بجمال الأسلوب والتعبير؟ نقول في الجواب: إنّ

ذلك جزء من عملية الهداية. وهكذا الحال بالنسبة لكلام المعصومين.

فالألوف من العلماء الكبار، ومن علماء المشركين والنصارى واليهود، اهتدوا عن طريق جمال التعبير في القرآن الكريم.

إنّ الجمال مهمّ ومطلوب لهداية الناس، فلا يكفي أن يكون المطلب صحيحاً وجميلاً بل لابدّ من جمال الأسلوب والتعبير أيضاً.

إذا كان الناس يبحثون عن البروتين في اللحم فلماذا لايكتفون بتناوله وحده هكذا من دون توابل ومرق و... مع أنّه هو الأساس، بل نراهم يخلطون معه عشرات الأشياء لكي يصبح لذيذاً ومقبولاً؟ هكذا الحال مع المعنى الصحيح اجعلوه في وعاء جميل لكي يقبله الناس منكم.

وهذا الأمر بحاجة إلى تعلّم وتمرين، ولا يأتي هكذا عفواً بأن ينام الشخص مثلاً في الليل ويستيقظ في اليوم التالي وقد أصبح أديباً. وشهر رمضان فرصة جيّدة لنا لتطوير قابليّاتنا في هذا المجال أيضاً.

فبالإضافة إلى ما نستفيده في هذا الشهر من الفضائل والأخلاق لنستفِد من هذين الأمرين المهمّين أيضاً، أعني: ترويض النفس، وإرشاد الناس وهدايتهم.

أسأل الله سبحانه أن يوفّقنا في هذا الشهر جميعاً لكلّ الصالحات ولكلّ أمور الخير لاسيّما هذين الأمرين: ترويض النفس وهداية الناس.

وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين



معركة الأحزاب.. دروس وعبر

المحاضرة ٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله تعالى: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً**﴾[1].

هذه الآية المباركة هي من الآيات التي نزلت بشأن حرب الأحزاب، وهي من أهمّ حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فلقد كانت تبدو في أوّل أمرها من أصعب الحروب وأشدّها على المسلمين لكنّها انتهت أسهل من أيّ معركة أخرى، ونزلت بشأنها سورة في القرآن تسمّى سورة الأحزاب.

لقد حارب رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المشركين في عدّة حروب وانتصر عليهم، وحارب اليهود وانتصر عليهم، وواجه النصارى وتغلّب عليهم، وهكذا كان حال المنافقين فلقد جاهم رسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وانتصر عليهم. فكلّما واجهت إحدى هذه الفئات أو الأحزاب الجيش الإسلامي، كانت الغلبة للمسلمين. ومن هنا فكّر قادة هذه الأحزاب أن يجتمعوا ويجمعوا عدّهم وعددهم ليشنّوا حرباً واحدة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكانت حرب الأحزاب، حيث شكّل المشركون مع النصارى واليهود، والمنافقين - الذين هم كالطابور الخامس - شكّلوا جيشاً تعداده اثني عشر ألف رجل مسلّح اجتمعوا لحرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحاصروا المدينة المنوّرة!

(١) سورة الأحزاب: ١٢.

ولم يكن عدد أفراد الجيش الإسلامي - كما يذكر المؤرّخون - أكثر من بضعة آلاف، وذلك لأنّ كلّ سكان أهل المدينة آنذاك لم يزيدوا على عشرة آلاف نسمة أي أقلّ من أفراد الجيش المحاصِر للمدينة. ولم يكن تسليح الجيش الإسلامي كاملاً، فمعظمهم كانوا رجّالة لا خيول لهم أو لا يملكون السلاح الكافي. وكان في جيش الكفّار عمرو بن عبد ودّ العامري الذي كان يُعدّ بألف فارس.

هذه الحالة من عدم التكافؤ هي التي دعت بعض المسلمين لأن يطلبوا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يفاوض جيش الأحزاب، وقال بعضهم: نصالحهم ونرضخ لكل ما يقولون حتى لو أمرونا بعبادة الأصنام، فلا قِبَلَ لنا بهم وليس من العقل أن نواجههم، بل ننْزل على رأيهم ونصبر حتى إذا قوينا في المستقبل حاربناهم!

إلى هنا قد يهون الأمر، ويقول القائل: أنّى لهذا العدد القليل العزل أن يقاوم ذلك الجيش الكبير الكثيف المدجّج بالسلاح؟ لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فإنّ الآية تصف أولئك المتخاذلين بما هو أفظع من ذلك. يقول تعالى: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾ أي إنّ الأمر بلغ بهم أن يكذّبوا الله والنبي. هؤلاء الذي حكَموا عقولهم القاصرة قِبال وعد الله ورسوله لهم بالنصر، يصفهم الله بالمنافقين والذين في قلوبهم مرض.

إنّ الله تعالى أراد في هذه الحرب أن يثبت للجيش الإسلامي ولنا ولكل المسلمين إلى يوم القيامة أنّ الأمر بيد الله وأنّ النصر من عند الله. فإنّ المسلمين غُلبوا في حروب كان الجيش الإسلامي فيها أكثر عدداً من المشركين - وإن كُتب لهم النصر في النهاية - لكن في هذه الحرب التي اجتمعت الأحزاب كلها ضد الإسلام وبلغ جيش الكفّار أكثر من عدد المسلمين في مدينهم المحاصَرة، تم النصر للمسلمين من دون أيّة تضحيات، فلم يُقتَل من المسلمين حتى شخص واحد، الأمر

الذي يثبت أنّ النصر لا يوجد إلاّ من عند الله ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾[1].

في آية أخرى سبقت هذه الآية يصف الله حالة المسلمين في هذه الحرب بقوله تعالى: ﴿إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر﴾[2]، وذلك أدق تعبير عن حالة الخوف والهلع التي كان يعيشها المسلمون، فإنّ الإنسان الخائف لا تكون حركة سواد عينه منتظمة بل تدور من هنا وهناك، والزيغ يعني الميل، فإنّ عين الخائف مفتوحة على الدوام وهو يواجهك ولكن لا يراك، وإذا سلّمت عليه قد لا يردّ جوابك، ولا ينتبه لك، بل قد يجرح الإنسان الخائف وهو غير ملتفت أنّه مجروح، وقد يصطدم بجدار أمامه ولا يشعر به ولا يراه، فإنّ العين ترى ولكن انشغال الفكر والخوف يكون مانعاً من استيعاب الصورة التي تنقلها العين للفكر ليكون له تأثير على حركة الشخص. وهكذا كان المسلمون في حرب الأحزاب أي أنّ أعينهم كانت تدور ولكن لا يرون شيئاً.

وهناك صورة أخرى تعبّر عن الخوف الشديد هي قوله تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾. كيف تبلغ القلوب الحناجر مع أنّ الفاصلة بينهما تزيد على أربع بوصات؟ إنّ الإنسان الخائف تزداد ضربات قلبه فيشتدّ نفسه وتنتفخ رئته أكثر من اللازم فتضغط على القلب وهو بدوره يزيد من ضغط الرئة حتى يصاب الشخص بالحشرجة وهو صوت يخرج من الصدر كما عند المصابين بضيق النفس. يقول المؤرّخون: إنّ المسلمين أُصيبوا بالحشرجة عندما عرفوا أنّهم محاصَرون بجيش الأحزاب.

وبعد ذلك يقول الله تعالى في وصف حالهم: ﴿وتظنّون بالله الظنونا﴾ أي تقولون إنّ الله أخبرنا أنّ النصر من عنده، فأين النصر ونحن قليلون وهؤلاء الكفّار

---

(١) سورة آل عمران: ١٢٦، سورة الأنفال: ١٠.

(٢) سورة الأحزاب: ١٠.

محيطون بنا؟

ولكن الله يفعل كل ذلك لامتحان العباد، ولذلك خلقهم؛ يقول تعالى: ﴿أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون، ولقد فتنّنا الذين من قبلهم﴾[1].

فكلّ هذه المظاهر امتحانية، وكثير من المسلمين فقدوا إيماهم في هذا الامتحان وسقطوا، وهم أولئك الذين قالوا: «ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً».

لقد وقعت حرب الأحزاب في أخريات حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة أي قبيل فتح مكة، ولكن الله يمهل الظالمين ولا يهمل، والنصر حليف المؤمنين وإن جاء متأخراً. إذا كان في المؤمنين أربعة قاموا لله بكل قلوبهم وأخلصوا له من أعماقهم وحاربوا من أجله وتكلّموا في سبيله ونطقوا له، فهذا يكفي لأن يحقّق الله تعالى نصره لجميع المسلمين بواسطة هؤلاء الأربعة.

لقد كان في صفوف الجيش الإسلامي - غير الذين قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً - عدد قليل بقي ظنّهم بالله حسناً و لم يظنّوا به الظنون، بل قالوا: الأمر لله والله ورسوله وعدانا بالنصر، والنصر سيكون حليفنا وإن كان الجيش الكافر أكثر منّا عدّة وعدداً.

وهكذا كانت النتيجة: ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾[2] في أعظم حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعادت أسهل حروبه، وتم النصر للمؤمنين بقتل عمرو بن عبد ود على يد عليٍّ بن أبي طالب (عليه السلام) وانهزم الجيش الكافر عن آخره و لم يُقتَل مسلم واحد!

وهكذا كلّما تصارع الحق والباطل وبرز من المؤمنين جماعة شجعان نذروا

---

(١) سورة العنكبوت: ٢ - ٣.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٥.

أنفسهم لله فإنّ الله يكتب لهم النصر كما كتبه للمؤمنين في الأحزاب. فهذه سنّة الله تعالى ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

■ الحكومة الإسلامية هي التي تطبق كل أحكام الله

المؤسف أنّ بعض الناس يتصوّر أنّ الحكومة الإسلامية هي التي تطبّق الحدود والتعزيرات والعقوبات فقط، مع أنّ هذا لا يشكّل إلاّ جزءاً ضئيلاً من أحكام الإسلام؛ ولو أنّ الإسلام طبّق بعضه دون بعض لارتسمت له صورة غير جميلة، وهكذا تكون التعضية في الغالب. فهذا الإنسان الذي يصفه الله بقوله: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1] لو فصلتَ بعضه عن بعض يكون أقبح الهياكل. فلو أنّ شخصاً جميلاً فقئت عينه فكيف سيبدو؟! وهكذا لو رفعت عظمة قحف الرأس ماذا سترى؟ هل منظراً جميلاً، أم مقرفاً؟ نقل لي أحد الطلاّب - والشيء بالشيء يُذكر - أنّه كان يحبّ دراسة الطب كثيراً لكن الشيء الذي كان يمنعه هو التشريح واشمئزازه من النظر إلى الأعضاء منفصلة عن بعض. حقاً لو رفع الغطاء الموجود على الجهاز الهضمي لدى الإنسان لاشمأزّ الناظر.

مثال آخر في اللغة: كلمة «لا إله إلاّ الله» هي كلمة التوحيد والإخلاص والخلاص وهي سبب الإيمان والإسلام والفلاح، ولكن ماذا يحدث لو فصلتَ بين جزئيها ونطقت بالجزء الأوّل وحده؟ إنّ مجرّد الفصل بين أجزاء كلمة والأخذ ببعض وترك بعض يغيّر الإيمان إلى الكفر!

إنّ تطبيق الإسلام بصورة ناقصة يعطي صورة مشوّهة عن الإسلام. وهذا هو حال بعض الدول الإسلامية اليوم المتبجّحة بتطبيق الإسلام مع أنّها لا تطبّق إلاّ جَلْد الزاني وقطع يد السارق، فهل هذا هو الإسلام وحسب؟

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

عندما تراجعون الفقه الإسلامي تجدون خمسين كتاباً، الكتاب الخمسون منها هو كتاب الحدود. فهو واحد من خمسين كتاباً بل هو الكتاب الأخير، فلماذا يُتصوّر أنّه الإسلام كلّه؟!

إنّ من واجبات الحكومة الإسلامية السماح لمواطنيها بالعمل وفق القانون الإسلامي المعروف بـ «إحياء الموات» في المجال الزراعي، ومفاد هذا القانون هو أنّ المسلم باستطاعته أن يتملّك أيّة أرض متروكة غير مملوكة ولا مزروعة، شريطة أن يباشر بزراعتها أو إحيائها، وهذا القانون يستند إلى حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مسند عن الشيعة والسنّة وهو: «مَن أحيى أرضاً مواتاً فهي له. قضاء من الله ورسوله صلى الله عليه وآله»[1]، ولا يوجد لهذه الحرية التي يمنحها الإسلام للمسلمين ولغيرهم في الزراعة نظير، في أيّ بلد أو بقعة من بقاع العالَم. ولو طُبِّق هذا القانون في أيّ بلد إسلامي لأصبح ذلك البلد جنّة غنّاء، ولما بقي إنسان بلا مسكن أو جائعاً؛ لأنّ كلّ إنسان يمكنه أن يفتّش عن أرض غير مزروعة ولا تعود ملكيتها لأحد (وأرض الله واسعة)، ثم يقوم بزراعتها فيأكل من زرعه ويسكن الأرض التي ملَكها بإحيائها.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا القانون يمنع الاحتكار في الوقت نفسه، لأنّ أيّ إنسان لا يحقّ له أن يستحوذ على أرض دون أن يحييها أو يزرعها وإن كانت بواراً لا تعود لأحد؛ لأنّ شرط التملّك هو الإحياء المباشر.

ومن جهة ثالثة سوف لا تبقى يد واحدة عاطلة عن العمل.

فهل طبّقت الدول التي تدّعي الإسلام هذا البند من بنوده الكفيلة بتحقيق السعادة والتقدم والرقي، أم اكتفت منه بضرب السياط وقطع الرقاب وهذا كلّ شيء؟!

---

(١) الكافي ج٥، ص١٨٠، عن السكوني، أبي عبد الله الصادق (عليه السلام).

ثم بند ثانٍ من بنود الإسلام هو تحرير التجارة وعدم احتكارها من قِبل الدولة حيث تحصرها على أناس معيّنين فيما تحرم سائر أبناء المجتمع وتفرض عليهم الجمارك الثقيلة؟!

في الإسلام مَن يملك ذكاءً أكثر يمكنه أن يعمل أكثر. أمّا في الأنظمة الوضعية التي تدّعي الإسلام فالشرط الأساسي ليس الذكاء والخبرة بل الروابط والعلاقات مع الحاكم، فمَن حظي بشيء منها مُنح امتياز عشرين نوعاً من التجارة، وإن كان من أغبى الناس! فهل هذا من الإسلام؟

سألني بعض الناس في العراق - والآن يسألني البعض أيضاً - هل تهريب البضائع - أو ما يُعبَّر عنه باللهجة العراقية (القچق) - حرام؟ فقلت لهم: بل هو مشروع ومطلوب. تقولون كيف؟ أقول: ما هو التهريب؟ التهريب معناه أنّ الدولة منعت استيراد أو تصدير بعض المواد وإذا ضبطها مأمور الجمارك فرض عليها ضرائب باهظة. نسأل: ما هو رأي الإسلام في هذه الأمور الثلاثة: إجازة الاستيراد وإجازة التصدير والضرائب المفروضة؟ والجواب: إنّ الإسلام يرفضها جميعاً. إنّ القانون الذي طبّقه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام علي (عليه السلام) لم يكن فيه إجازة للتصدير ولا إجازة للاستيراد ولا ضرائب عليهما، بل على العكس يقول الفقهاء: لا يجب بل لا يجوز العمل بالقوانين الصادرة من الدولة غير الإسلامية، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[1]، والمقصود بالدولة غير الإسلامية هي الدولة التي لا تحكم بالإسلام أي لا تطبّق قوانين الإسلام، وإن كانت تسمّي نفسها إسلامية، فليس المهم الاسم بل التطبيق والعمل، وكل حكم لا ينتهي إلى الله فهو غير مشروع وغير إسلامي وإن كان صادراً عن دولة تسمى إسلامية؛ لأنّ المهم الواقع وليس الظاهر، فلو صنعت من

---

(١) سورة المائدة: ٣.

الكارتون شكلاً على هيئة إنسان فهل يصبح إنساناً مع أنّه لا روح فيه ولا يتكلّم ولا يرى ولا يفكّر؟ أم أنّ الإنسان هو هذا الكائن الذي يتحرّك ويريد ويقوم ويقعد ويفكّر. وهل الأسد الذي يُخاف منه هو الأسد الحقيقي أم المنقوش على الستار أم المكتوب بحروف ألف وسين ودال؟ لاشكّ أنّه لا النقش ولا الحروف. وكذلك الإسلام اللفظي أو الكتبي المجموع في حروف ألف، سين، لام، ألف، ميم، لا يفعل شيئاً بل الأثر هو للإسلام الحقيقي. فلا يكفي للحاكم أن يقول: إنّني حاكم إسلامي بل لابدّ أن يكون مستنداً إلى القرآن والسنّة. فما لم يؤيّده القرآن والسنّة والمعصومون (عليهم السلام) ويقولون إنّه من عند الله، فهو في واقعه غير إسلامي وإن تسمّى بالإسلام.

إنّنا لا نسير خلف الأسماء والشعارات بل خلف الواقع، وقد ورد في الحديث: «يأتي على أمّتي زمن لا يبقى من الإسلام إلاّ اسمه، ومن القرآن إلاّ رسمه»[1].

أعود إلى المسألة التي ذكرتها وهي أنّ الدولة التي لا تطبّق الإسلام بحذافيره لو أقرّت قانوناً ما فإنّ العلماء يقولون بالإجماع - سنّة وشيعة وبمختلف مذاهبهم - إنّه لا يجوز اتّباعها والانصياع لقانونها إلاّ في حال الاضطرار تماماً هو حكم تناول لحم الخنْزير أو المسكر حال الضرورة وبمقدار رفع الضرر فقط! ويضربون لذلك مثلاً بجوازات السفر التي تصدرها الدول غير الإسلامية، فإنّ مَن لا ضرورة له إليها - كالرجل المسنّ أو المريض ومَن لا يستطيع السفر - لا يجوز له الرضوخ لها، لأنّه غير مضطرّ إليها.

فكما أنّ الإنسان إذا كان في مكان منقطع وأشرف على الموت جوعاً ولم يكن عنده ما يدفع عنه خطر الموت من الجوع إلاّ لحم الخنْزير فإنّه يجوز له ولكن لا على نحو الشبع بل بمقدار رفع الضرورة، حتى يصل المكان الذي فيه الأكل

---

(١) العدد القوية، لعلي بن يوسف الحلّي، ص٨٣.

الحلال، وكما لو أشرف (الإنسان) على الموت بسبب العطش ولم يجد إلاّ الخمر فإنّه يجوز له أن يتناول منه بمقدار رفع ضرر الموت وليس أكثر حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه مائعاً حلالاً... فإنّ حكم القوانين غير الإسلامية كلها هكذا بإجماع علماء المسلمين، أي لا يجوز الرضوخ لها إلاّ بمقدار الضرورة ومواصلة الحياة. وحتى التهريب يكون حراماً ولا يجوز عند الضرورة فقط، وذلك فيما لو كانت ممارسته تؤدّي إلى إلقاء النفس في التهلكة، والله تعالى يقول: ﴿ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1]، وإلاّ فهو في الأصل جائز إن لم يحمل معه خطر القتل. أمّا الخطر الأدون كالتعرّض للسجن أو الضرب؛ وحتى الإهانة فلم يقل العلماء إنّ دفعها من الضرورات لأنّ «الناس مسلّطون على أنفسهم»[2]، والله تعالى خلق الإنسان مختاراً فلماذا يكون عبداً لغيره، بل لا يجوز له أن يكون عبداً لغير الله تعالى ولا ينبغي له أن ينصاع لغير قوانين الله وهي القوانين التي تضعها الحكومة الإسلامية الشرعية المصدَّقة من قِبل القرآن، فهذه واجبة التنفيذ على الجميع. أمّا القوانين غير المصدَّقة من قِبل الله تعالى، والأحكام التي تصدر عن الحاكم غير المنصوب من قِبل الله أو شرائعه فغير واجبة الاتّباع بل غير جائزة الاتّباع إلاّ في إطار الضرورة وخوف التهلكة فقط!

■ عود على بدء

نخلص من كل ما تقدّم أنّ ما نشاهده هذه الأيّام – وعلى مرّ التاريخ– من أحداث توجب إخافة بعض المؤمنين، لا ينبغي أن تزلزل إيمانهم بل عليهم أن يراجعوا القرآن ويقرأوه ويتدبروا آياته ليروا أيّة مواقف نصر الله تعالى فيها المسلمين

---

(١) سورة البقرة: ١٩٦.

(٢) المكاسب ج٦، ص٢١٦، وجامع المدارك، للسيد الخونساري، ج٣، ص١٨٧.

وكيف نصَرَهم؟!

لقد نصَر الله المسلمين في مواقف كان النصر فيها يبدو مستحيلاً بالحسابات العقلية، ومع ذلك كتب الله لهم النصر، ومن تلك المواقف وأهمّها معركة الأحزاب.

إنّ الله وعد المسلمين النصر في صدر الإسلام، ولكن المنافقين والذين في قلوبهم مرض كذبوا الله ورسوله عندما رأوا الأحزاب وقالوا: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾، ونحن اليوم معرّضون للامتحان نفسه، أفنشكّ في وعد الله للمؤمنين بالنصر، أم نكون من الثابتين على الإيمان، المصدِّقين وعْدَ الله، غير الظانّين به ظنّ السوء؟!

ومن المؤسف حقاً أن بعض الناس يبيع إيمانه بالتافه، فمع أنّه ليس عضواً ولا عميلاً في أجهزة الاستخبارات ولا يتقاضى منهم أجراً ولا مرتّباً ولكنه يعطي كلّ ما عنده للظالمين بلا عوض، ويجعل رقبته جسراً لهم ومعبراً؛ ويكون من الذين قال الله عنهم: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾.

نسأل الله أن يجنّبنا خطل القول والعمل وأن يوفّقنا لمراضيه.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الفهرس

هذا الكتاب

عبارة عن خمسة وعشرين محاضرة ألقاها سماحة المرجع الديني آية الله العظمى المحقق السيد صادق الشيرازي (دام ظله الوارف) خلال فترات مختلفة، وقد تضمنت مواضيع فكرية روحية وتربوية متنوعة أفاض بها سماحته.

وقد جاءت محاضرات سماحته تلبية للحاجة الملحة لبث الروح الإسلامية الفعالة والمتمثلة في المنهجية المتكاملة لفكر أهل البيت (عليهم السلام) التي أضحت ضرورة حياتية لا غنى عنها.



محاضرات فكرية روحية تربوية

المجلد الأول

المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله)

طبع بإشراف

لجنة سيد الشهداء الخيرية

